
الطبعة
الإلكترونية
الثّانية
قانون
04.09.2020
في 50 فتي سانت
ICLAVIA ID
روبرت غرين بالعربي
فيفتي سانت
و روبرت غرين
ترجمة :
رشا عربي
محمد الإدريسي

قانون

50

فيفتي

سانت

04.09.2020



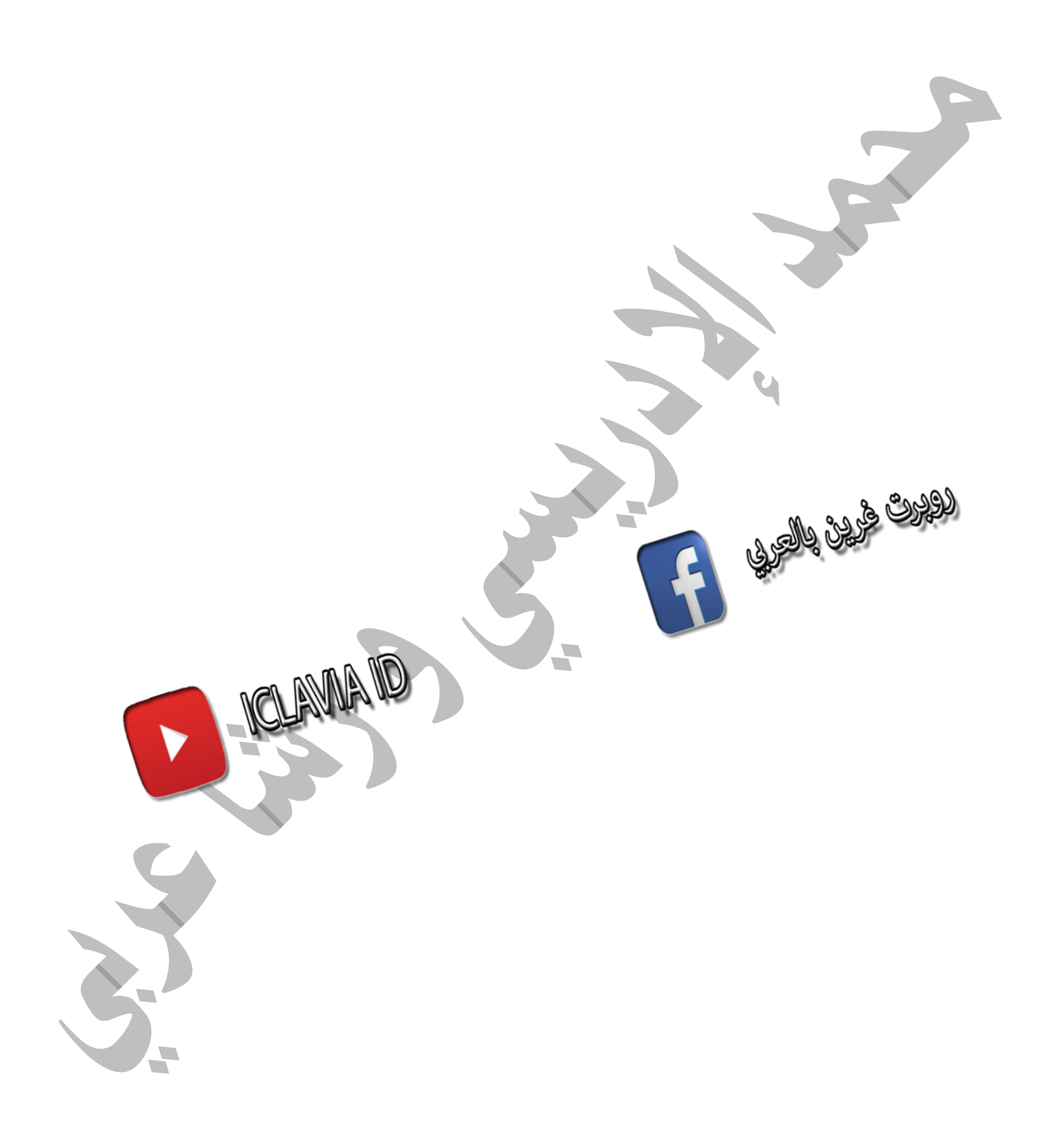
فيفتي سانت

و روبرت غرين

ترجمة

محمد الإدريسي

رشا عربي


محمد الإدريسي ورشا عربي
روبرت غرين بالعربي
ICLAVIA ID

الفهرس





كلمة

قانون {**فيـ50ـفتي** سانت}، في الطبعة الأولى كُنا نظن أن العنوان عبارة عن {القانون خمسون} لكن تبيّن فيما بعد أن العنوان الأول عبارة عن ترجمة حرفية للكتاب، وهذا كان بمثابة غلطة قُمنا بها، لأن {روبرت غرين} استلهم هذا العنوان من مغني الراب {فيفتي سانت} نفسه وسمّى قانون الكتاب على اسمه، وهذا ما ستلاحظنه عندما تنتهون من قراءة الكتاب.

بالنسبة للتّرجمة، قمتُ بإعادة ترميم ومراجعة الطبعة الإلكترونية الأولى من الكتاب التي نشرناها في الماضي، حيث كان بها الكثير من الأخطاء، وحاولت قدر الإمكان تصحيح التّرجمة وتنسيق المعاني وتنقيحه لكي يصل المعنى الأصلي للكتاب. و لا ننسى مجهود الأستاذة {**رشا عربي**} التي ساهمت في ترجمة الطّبعة الإلكترونية الأولى للكتاب خصوصا من الفصل الأول إلى الفصل التّاسع.

وأتمنى أن تقرؤوا الكتاب بتمعّن وبتأني، لأنه شديد الاختصار ومعلوماتُه مُكثفة. أنا شخصيا أُفضّله لأنّه ساعدني وألهمني في عدة أمور مُتعلقة بالبيئة التي أعيش فيها.

محمد الإدريسي

04/09/2020

تمهيـد

قابلت {فيفتي سانت} لأول مرة في شتاء عام 2006م. و قد كان معجبًا بكتابي {48 قانونا للسّطوة}، وكان مهتمًا بالتعاون معي في مشروع كتاب. ففي الاجتماع تحدثنا عن الحرب والإرهاب وأعمال الموسيقى. وأكثر ما أدهشني أن لدينا طريقة مماثلة بشكل ملحوظ في كيفية النظر إلى العالم، وطريقة تجاوزت الاختلافات الكبيرة في خلفياتنا. وعلى سبيل المثال، عند مناقشتنا ألعاب السّطوة التي كان يختبرها في ذلك الوقت في مجال الموسيقى، نظر كلانا إلى التفسيرات الحميدة للناس لسلوكهم وحاولنا معرفة ما الذي يريدون فعله حقًا. وقد طوّر طريقة التفكير هذه في شوارع منطقة جنوب كوينز الخطرة حيث كوّن مهارة حياتية ضرورية، أما أنا فقد اختبرتها فقط من خلال قراءة الكثير من كتب التاريخ ومراقبة المناورات الخادعة لمختلف الناس في هوليوود، حيث كنت أعمل لسنوات عديدة، ومع ذلك فالمنظور نفسه.

غادرنا الاجتماع في ذلك اليوم بفكرة مفتوحة حول مشروع مستقبلي. بينما كنت أفكر في الموضوع المحتمل لهذا الكتاب خلال الأشهر التالية، فأصبحت مفتونًا بشكل متزايد بفكرة الجمع بين عالمينا. وما يثيرني في أمريكا، حركتها الاجتماعية، فالناس يرتقون باستمرار من الأسفل إلى الأعلى فيغيرون الثقافة في هذه العملية. وعلى مستوى آخر، مع ذلك، نظل أمة تعيش في أحياء اجتماعية. يتجمّع المشاهير بشكل عام حول مشاهير آخرين. والأكاديميون والمثقفون مُنعزلون في عوالمهم، ويُحب الناس الارتباط مع من هم على شاكلتهم. فإذا تركنا هذه العوالم الضّيقة بدون دراسة، فإن ذلك عادة ما يكون مثل مراقبة أو سياحة فقط لمعرفة طريقة حياة أخرى. ما بدا احتمالًا مثيرًا للاهتمام هنا هو تجاهلنا للاختلافات السطحية التي لدينا قدر الإمكان والتعاون على مستوى الأفكار ـ لإلقاء الضّوء على بعض الحقائق حول الطبيعة البشرية التي تتجاوز الطبقة أو العِرق.

وبعقل متفتح وفكرة اكتشاف ما يمكن أن يكون عليه هذا الكتاب، عشت مع {فيفتي} مدة طويلة في عام 2007. وقد حصلت على وصول كامل تقريبًا إلى عالمه. وتتبعته في العديد من اجتماعات عمله الرفيعة المستوى، وجلست بهدوء في زاوية وأراقبه أثناء عمله. وذات يوم شاهدت معركة صاخبة في مكتبه بين اثنين من موظفيه، حيث اضطر {فيفتي} إلى تفكيكه شخصيًا. فلاحظت

أزمة وهمية صنعها للصحافة لأغراض دعائيّة. تابعته وهو يختلط بنجوم آخرين، وأصدقاء من ذوي القلنسوات، ومع عائلة ملكية أوروبية، وشخصيات سياسية. وزرت منزل طفولته في منطقة جنوب كوينز، وقضيت مع أصدقائه الذين كانوا معه في فترة احتياله، فشعرت بما يمكن أن يكون عليه عندما يكبر في هذا العالم. فكلما شاهدته وهو يعمل على كل هذه الجبهات، أذهلني أن {فيفتي} كان مثالًا حيًا ومُتنقلا على الشخصيات التاريخية التي كتبتها في كتبي الثلاثة. إنه بمثابة اللاّعب الرئيسي في السّلطة، وهو النوع الخاص بموسيقى الهيب هوب الذي يحمل عقلية نابليون بونابرت.

أثناء الكتابة عن أشخاص أقوياء المُختلفين في التّاريخ، طوّرت نظرية مفادها أن مصدر نجاحهم يمكن دائمًا تقريبًا تتبعه إلى مهارة واحدة أو صفة فريدة تفصلهم عن الآخرين. فبالنسبة لنابليون، كانت قدرته الرائعة على استيعاب قدر هائل من التفاصيل وتنظيمها في ذهنه. مما سمح له ذلك دائمًا بمعرفة ما كان يجري أكثر عن خصومه الجنرالات. فبعد مراقبة {فيفتي} والتحدث معه عن ماضيه، قررت أن مصدر قوته - جُرأته المطلقة.

لا تتجلى هذه الخاصية في الصّراخ أو أساليب التخويف الواضحة. ففي كل مرة يتصرّف {فيفتي} بهذه الطريقة أمام العامة يكون مُجرد شخص مسرحي أما خلف الكواليس يصبح شخصا رائعا وحريصا، ليُظهر عدم خوفه في سلوكه وأفعاله. وقد شاهد وعاش العديد من المواجهات الخطيرة في الشوارع لدرجة أنه لا يمكن أن يتأثر بأي شيء في عالم الشركات. فإذا كانت الصفقة لا ترضيه، فسيبتعد بدون أن يهتم. وإذا احتاج إلى اللعب بقسوة مع خصم ما، فإنه يذهب إليه دون تفكير ثانٍ. حيث يشعر بالثقة المطلقة في نفسه. بينما يعيش في عالم يكون فيه معظم الناس خجولين ومحافظين بشكل عام، أما هو فيتمتع دائمًا بميزة الاستعداد لفعل المزيد، والمجازفة، وأن يكون مُبدعا، قادمًا من بيئة لم يتوقع أبدًا أن يعيش فيها بعد سن الخامسة والعشرين، فأصبح يشعر أن ليس لديه ما يخسره، وهذا الأمر يجلب له قوة هائلة.

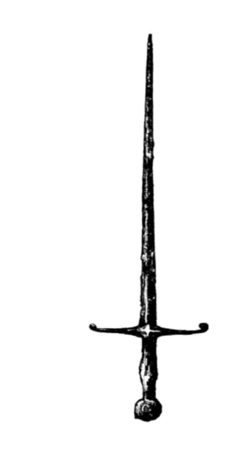
كلما فكرت في هذه القوة الفريدة التي لديه، كلما بدت أنها ملهمة ومفيدة أكثر. وقد استطعت أن أرى نفسي أستفيد من مثاله لأتغلب على مخاوفي. فقررت أن الجرأة بجميع أنواعها ستكون موضوع الكتاب.

كانت عملية كتابة قانون {فيـ50ـفتي} بسيطة. أثناء الملاحظة والتحدث إلى {فيفتي سانت}، لاحظت أنماطًا معينة من السلوك والموضوعات التي ستتحول في النهاية إلى الفصول العشرة من

هذا الكتاب. فبمجرد أن حددت هذه الموضوعات، ناقشتها معه، وقمنا معًا بتشكيلها بصيغة أكبر. وتحدثنا عن التغلب على الخوف من الموت، والقدرة على احتضان الفوضى والتغيير، وأيضا عن الكيمياء العقلية التي يمكنك التأثير فيها من خلال التفكير في أي محنة على أنها فرصة للقوة. وقد ربطنا هذه الأفكار بتجاربنا الخاصة وبالعالم بأسره، ثم توسعت في هذه المناقشات من خلال بحثي الخاص، حيث جمعت مثال فيفتي سانت مع قصص أشخاص آخرين عبر التاريخ أظهروا نفس الصّفة الجريئة.

وفي النهاية، هذا الكتاب يتحدث عن فلسفة معينة للحياة ويمكن تلخيصها على النحو التالي - إنّ مخاوفك هي نوع من السّجن الذي يَحصرك في نطاق محدود من تصرفاتك. فكلما قل خوفك، زادت القوة لديك وكلما عِشت بشكل كامل. ونأمل أن يُلهمك قانون {فيـ50ـفتي} لاكتشاف هذه القوة بنفسك.


محمد الإدريسي و رشا عربي



تقـــديـــم

يوجد بداخلكم أعظم عدوا يمكنه أن يكون لدى أي إنسان. هذا العدو هو الخوف. أنا أعلم أن البعض منكم خائف من الاستماع إلى الحقيقة. لأنكم نَشَأتم على الخوف والأكاذيب. لكن سَأُبشّركم بالحقيقة حتى تصبحوا متحررين من هذا الخوف...

{مالكوم إكس}

موقف الخائف

في البداية، كان الخوف عاطفة أساسية بسيطة بالنسبة لنا ككائنات بشرية، فعندما نواجه شيئا مَهولاً - كأننا في حالة تهديد وشيك للموت، سواء على هيئة حرب، أو طاعون، أو كوارث طبيعية، فعندها نشعر بالخوف الشديد مثل أي كائن حيواني. إن هذا الانفعال لديه وظيفة وقائية – حيث يسمح لنا أن نأخذ حذرنا من المخاطر والتهديدات في الوقت المناسب. فبالنسبة لنا نحن البشر فهو ينفعنا بشكل إضافي لغرض إيجابي - ليُمكّننا من تذكّر مصدر التهديد وحماية أنفسنا بشكل أفضل في المرة القادمة. وقد اعتمدت الحضارة على هذه القابلية لتنبّؤ والاستعداد للمخاطر في محيطها البيئي.

وأيضا بدافع عاطفة الخوف قُمنا بتطوير مفهوم {الدّين} وأنظمة الاعتقاد المختلفة الأخرى فقط لتُشعرنا بالراحة.

فالخوف هو أقدم وأقوى انفعال عرفه الإنسان، لأنه شيء محفور بعمق في نظامنا العصبي واللاّوعي الخاص بنا. على أي حال، فبمرور الوقت شيء ما يبدأ في الحدوث. حيث يكون الرعب الفعلي الذي وجهناه في الماضي يبدأ في نقصان حِدّته، كما لو أنّنا اكتسبنا زيادة في سيطرتنا على بيئتنا. لكن بدلا من انخفاض مخاوفنا كما يجب فإن تلك المخاوف تبدأ في المضاعفة من حيث العدد. فنقلق من وضعيتنا في المجتمع، سواء هل الناس يحبوننا أم لا؟ أو كيف يمكننا الانسجام مع مجموعة ما؟. وأيضا نصبح قلقين من وضعيتنا المعيشية، وعلى مستقبل عائلتنا وأطفالنا، وحول صحتنا الشخصية وعلى تقدُّمنا في السن. ببساطة، إن الخوف الشّديد من شيء حقيقي ذو قوة ونفوذ، يحثنا على تطوير نوع من القلق العام كما لو أن شعورنا بالخوف في وجه الطبيعة لمدة الآلاف السنين لن يزول - و يجب علينا أن نجد شيئا لتوجيه قلقنا. بغضّ النظر عن مدى صغره أو بعيد الاحتمال.

فإنّ اللحظة الحاسمة في تطور الخوف التي جرت في القرن التاسع عشر عندما اكتشف الناس في الإعلان والصحافة أنهم إذا صاغوا قصصهم ومناشداتهم بالخوف، سيُمكّنهم ذلك من الاستيلاء على انتباهنا، حيث نجد صعوبة كبيرة في مقاومة هذه العاطفة أو السيطرة عليها. إذًا فَهُم بثبات يقومون بتحويل تركيزنا إلى مصادر جديدة محتملة للقلق: كأحدث مخاوف صحية، أو خبر لجريمة حديثة، أو زلة اجتماعية قد نكون ملتزمين بها، أو مخاطر التي لا نهاية لها في البيئة التي لم نكن ندركها. وبالتعقيد المتزايد لوسائل الإعلام والجودة الحسية للصّور، تمكنوا من إعطائنا شعورا بأننا كائنات هشّة في بيئة مليئة بالمخاطر- بالرغم من أننا نعيش في عالم أكثر أمنًا ويمكن التنبؤ به أكثر من أي شيء آخر عرفه أسلافنا. وبمساعدتهم إحساسنا بالقلق يزداد. حيث إن الخوف ليس مصمما لغرض محدد. بل تتمثل مهمته في تحفيز الاستجابات الجسدية القوية ليسمح للكائن أن يتراجع في الوقت المناسب. فإن بعد الحَدَث، من المفترض أن تتلاشى عاطفة الخوف، لأن الكائن الذي لا يستطيع أن يتخلص من مخاوفه ما إن يتلاشى التهديد، سيجد صعوبة في الأكل والنوم.

نحن كذلك كائنات لا تستطيع التخلص من مخاوفها خصوصا عندما يَكمُن المزيد بداخلنا، حيث تميل هذه المخاوف إلى تلوين كيفية رؤيتنا للعالم من حولنا. فننتقل من الشعور بالخوف بسبب بعض التهديدات، فنصبح خاضعين لسلوك الخائف تجاه الحياة نفسها بالكامل، فنأتي لرؤية كل حدث تقريبا على شكل مجازفة، فنبالغ في تقدير المخاطر و في حساسيّتنا، ونفكر بشكل فوري في المحن التي ما تكون دائما ممكنة أو محتملة، وبشكل عام نكون غير مدركين لهذه الظاهرة لأننا نقبلها بشكل اعتيادي. وفي أوقات الازدهار يكون لدينا متسع من الرفاهية في عدة أشياء. لكن في أوقات المصائب يصبح سلوك الخائف جزءا خبيثا منا. مثل هذه اللحظات هي اللحظات التي نحتاج فيها حلولا لبعض المشاكل، والتي نريد فيها أن نتعامل مع واقعنا والمضي قدمًا، لكن الخوف يصبح نداء للتراجع والانخفاض.

هذا بالضبط ما واجهه {فرانكلين ديلانو روزفلت} عندما تولى منصبه في عام 1933م. حيث بدأ الكساد الكبير بسوق الأسهم الذي كان في أسوء حالاته في عام 1929م. لكن ما أصاب {روزفلت} لم يكن العوامل الاقتصادية الفعلية بل المزاج العام للجمهور. حيث بدا له أن الناس ليسوا فقط أكثر خوفا من اللازم بل أن خوفهم يجعل من الصعب التغلب على الشدائد والمحن. حيث قال في خطابه الافتتاحي للبلاد أنه لن يتجاهل الحقائق الواضحة مثل الانهيار الاقتصادي هذا، ولن يخاطبهم بخطاب تفاؤلي ساذج. لكنه ناشد مستمعيه أن يتذكروا أن البلاد واجهت فترة أسوء في الماضي مثل فترة الحرب الأهلية. وما أخرجنا من هذه اللحظات العصيبة هي روحنا النقية الأصيلة، عزيمتنا ونيتنا الصائبة. وهذا ما يعنيه المرء أن يكون أمريكيا.

يخلق الخوف ديناميكيته الخاصة التي تتحقق من تلقاء نفسه. كما يستسلم له الناس. حيث يفقدون الطاقة والقدرة التحفيزية النفسية (الزخم) – أي افتقارهم للثقة الذي يُترجم إلى الخمود الذي يخفض مستويات الثقة إلى أبعد من ذلك أكثر فأكثر... لِذا {روزفلت} أخبر جمهوره :[إذًا، أوّلا. دعوني أؤكد لكم إيماني الراسخ بأن الشيء الوحيد الذي يجب علينا أن نخاف منه هو الخوف نفسه، أي الرعب من المجهول و الغير معقول والغير مبرر، كل هذه الأشياء تشل الجهود اللازمة لتحويل التراجع إلى التقدم والمبادرة]، فَما قام به {روزفلت} في خطابه هو استخدامه عنصر حافة السكين التي تفصل الفشل عن النجاح في الحياة. وهذه الحافة هي موقفك وتذكرة تصرفك حيث لديها قدرة على مساعدتك في تشكيل واقعك. إذا شاهدت كل شيء من خلال عدسة الخوف، عندها ستميل إلى البقاء في موضع التراجع دائما. بدلا من ذلك يمكنك أن ترى بسهولة

الأزمات والمصائب على أنها تحدي لك. كفرصة لتثبت بها نفسك، فرصة لتعزيز وتشديد نفسك. أو كدعوة إلى عمل جماعي.

عن طريق النظر إلى هذه الأشياء كتحدي لك، فسوف تمتلك قدرة على تحويل المنطقة السالبة إلى منطقة إيجابية، وذلك ببساطة من خلال العملية العقلية التي من شأنها أن تؤدي إلى أفعال إيجابية كما يجب. ففي الواقع، استطاع {روزفلت}، من خلال قيادته الملهمة، مساعدة البلاد على تحويل تفكيرها ومواجهة الكساد بروح أكثر جرأة. واليوم يبدوا أننا نواجه مشاكل وأزمات جديدة التي تختبر حماسنا الوطني. مثلما جعل {فرانكلين ديلانو روزفلت} بمقارنته أسوء الأوقات والعصور في الماضي.

يمكننا أن نقول إن ما نواجهه ليس سيئا كأخطار سنة 1930م وسنوات الحرب السابقة. في الحقيقة، واقع القرن الحادي والعشرين، أمريكا هي شيء أشبه بما يلي: {الكاتب يخاطب موطنه} أن بيئتنا المادية هي أكثر أمنا وأكثر اطمئنانا من أي وقت مضى في تاريخنا، نعيش في دولة أكثر ازدهارا في العالم. ففي الماضي الذكور البيض هم الوحيدين القادرين على أن يلعبوا لعبة السلطة. أما في الوقت الحاضر، أتيحت لِلملايين ولِلنّساء فرص الانخراط والدخول إلى ساحة السلطة. وهذا يعتبر تغييرا ديناميكيا إلى الأبد - مما يجعلنا الدولة الاجتماعية الأكثر تقدّما في هذا الصدد. وقد أتاح التطور التكنولوجي جميع أنواع الفرص الجديدة: حيث تحللت نماذج الأعمال القديمة، تاركة المجال مفتوحًا على نطاق واسع للابتكار. لذا فقد حان وقت التغيير الشامل والثورة في وجه هذا التحول.

إننا كذلك نواجه تماما تحديات معينة، والعالم أصبح أكثر تنافسية، وللاقتصاد نقاط ضعف التي لا يمكننا إنكارها وهو في حاجة إلى التجديد، كما هو الحال في جميع الحالات. إن العامل الحاسم سيكون موقفنا في طريقة رؤيتنا إلى هذا الواقع. إذا استسلمنا للخوف سيعطى هذا انتباها غير متكافئ إلى شيء سلبي وسيخلق ظروفا مضادة قد نخشاها. لو سرنا في الاتجاه المقابل وزرعنا نهجا جريئا في الحياة، وواجهنا كل شيء بجرأة وطاقة فسيُمكّننا من إنشاء الكثير من التحركات الديناميكية المختلفة.

افهم هذا: نحن جميعًا خائفون جدًا - من الإساءة إلى الناس، وإثارة الصراع، خائفون من الوقوف خارج الحشد أو المجتمع أو مجموعة ما، خائفون من اتخاذ تصرّفات جريئة. فلآلاف

السنين تطورت علاقتنا بهذه العاطفة من الخوف البدائي من الطبيعة، إلى قلق عام من المستقبل. وإلى حالة سلوك الخائف الذي يهيمن علينا. إن كَوننَا كائنات عقلانية وكمنتجين بالغين، فإننا مدعوِّين للتغلب أخيرا على هذا المنحدر والتطور أبعد من مخاوفنا.

النوع الجريء

الشيء الأول الذي أتذكره في طفولتي المبكرة هو اللهب. لهب لونه أزرق يقفز من غاز يُوقد مجسما ما أنار... كنت في الثالثة من عمري عندها... شعرت بالخوف، خوف حقيقي و لأول مرة في حياتي. لكن أتذكره أيضا كنوع من المغامرة، وكنوع من الفرح وبهجة غريبة. أظن أن هذه التجربة أخذتني إلى مكان ما في عقلي لم أكن به قبلا - إلى الحدود - إلى الحافة، ربما إلى المُمكنات ... الخوف الذي أحظيت به اعتبرته تقريبا كدعوة، كتحدي للتقدم لشيء لا أعرف عنه شيئا، هنا، حيث أعتقد تكمن فلسفتي الشخصية للحياة... بدأت بتلك اللحظة ... في ذهني اعتقدت دائما وفكرت منذ ذلك الحين أن حركتي يجب أن تتقدم، بعيدا عن حرارة ذلك اللهب.

{مايلز ديفيس}

هناك طريقتان للتعامل مع الخوف - أحدهما سلبي والآخر نشط. في الوضع السلبي، نسعى لتجنب الموقف الذي يسبب لنا القلق. وقد يترجم هذا إلى تأجيل أي قرارات قد نؤذي فيها مشاعر الناس. وقد يعني أيضا اختيار أن يكون كل شيء آمنًا ومريحًا في حياتنا اليومية، لذلك لا نرغب أن يدخل أي قدر من الفوضى [في حياتنا]. عندما نكون في هذا الوضع [السلبي]، هذا لأننا نشعر بأننا هشون وسنكون متضررين بمواجهة الأشياء التي تُفزعنا وتُخيفنا. أما في الحالة النّشطة فهو شيء اختبره معظمنا في مرحلة ما في حياته: أي المواقف الخطرة أو الصعبة التي نخاف أن تُدفع على عاتقنا. ككارثة طبيعية. أو موت شخص مقرب إلينا. أو تقلبات في الثروة التي نفقد فيها شيئا. ففي

أغلب الأحيان في هذه {اللحظات} نجد قوة داخلية تفاجئنا. فما كنا نخافه ليس بذلك السوء. ولا نستطيع تفادي الخوف ويجب أن نجد طريقة للتغلب عليه أو سنعاني من العواقب الحقيقية جراء تفاديه. مثل هذه {اللحظات} فهي علاجية بشكل غريب، لأننا في النهاية سنواجه شيئا ملموسا وواقعي – أي ليس سيناريو خوف مُتخيل لُقّن إلينا بأجهزة الإعلام. على كل حال يمكننا أن نترك هذا الخوف، وتكمن المشكلة في مثل هذه اللحظات [الإحساس بمواجهة الخوف] أنها تميل في أن لا تدوم مدة طويلة جدا وأيضا في أغلب الأحيان تكرر نفسها. وقد تفقد قيمتها بسرعة فتعود إلى الحالة السلبية - أي حالة التجنب السلبية.

عندما نعيش في ظروف مريحة نسبيا، حيث لا تضغط البيئة علينا بالأخطار الواضحة، أو العنف، ولا تضع قيود على حركتنا. فيكون إذن هدفنا الرئيسي هو الحفاظ على الراحة والأمن عندنا، وبالتالي نصبح أكثر حساسية لأدنى خطر أو تهديد للوضع الراهن. فنجد صعوبة أكبر في تحمل مشاعر الخوف لأنها أكثر غموضًا وإزعاجًا - لذلك نبقى في الوضع السلبي.

ومع ذلك، عبر التاريخ، كان هناك أُناس عاشوا في ظروف أكثر تشدّدًا، وضغط الأخطار عليهم على أساس يومي. مما وجب على هذه الأنواع مواجهة مخاوفهم في الوضع النشط مرارًا وتكرارًا. وقد يكون هذا نابع من نشأتهم في فقر مدقع؛ أو مواجهة الموت في ساحة المعركة أو قيادة جيش في حرب؛ أو العيش في فترات ثورية مضطربة؛ أو كونهم قواد في وقت الأزمات؛ أو معاناتهم من خسارة شخصية أو مواجهتهم مأساة ما؛ أو وجود لحظة اقتربوا فيها من حافة الموت. فالكثير من الناس يُنشؤون في هذه الظروف وروحهم مسحوقة بهذه المصائب والمحن. لكن القليل من يتجاوزه كأنه الاختيار الايجابي الوحيد لهم - أي ضرورة مواجهة هذه المخاوف اليومية والتغلب عليها، أو يصبح الفرد أسفل السافلين، لأن بالتغلب على الخوف والتكيف مع المصائب والعنف يمكن للشخص أن يصبح أشد صلابة إلى حد الفولاذ.

افهم هذا: لا يولد أحد بهذه الطريقة. فمن غير الطبيعي ألا تشعر بالخوف. لأنها عملية تتطلب تحديات واختبارات. وما يفصل بين من ينخفض ومن يرتفع فوق الشدائد هو من يمتلك إرادة قوية وشغف كبير للسطوة.

في مرحلة ما، يتحول هذا الموقف الدفاعي للتغلب على المخاوف إلى موقف هجومي - أي موقف الجريء. هذه الأنواع تتعلم القيمة ليس فقط في عدم الخوف لكن أيضا في مهاجمة الحياة بلمسة

من الاحساس بالجرأة والاضطرار وبنظرة غير مألوفة أو غير تقليدية، يخلقون طرق جديدة بدلا من اتباع الطرق القديمة. هذه الأنواع يرون القوة العظمى التي جُلبت لهم ستصبح قريبا عقليتهم المهيمنة. نجد هذه الأنواع في جميع الثقافات وفي جميع الفترات الزمنية - من {سقراط والرواقيين} إلى {كورنيليوس فاندربيلت وأبراهام لينكولن}.

يمثل {نابوليون بونابارت} النوع الكلاسيكي الجريء. حيث بدأ مهنته في الجيش في اللحظة التي اندلعت الثورة الفرنسية. ففي هذه اللحظة الحرجة من حياته كان لا بد له أن يختبر أكثر المراحل فوضوية والمرعبة في التاريخ، حيث واجه أخطار لا نهائية في ساحة المعركة كنوع جديد للظهور في الحرب، وأبحر في العديد من دسائس السياسة، فإن خطوة خاطئة منه حتما ستؤدي به إلى المقصلة أو الموت. رغم ذلك ظهر {نابليون} وبزغ أمام كل هذه العقبات والمحن بروح جريئة، واحتضن أوقات الفوضى والتغيرات الكبيرة مما أدى هذان العنصران في استمراره في فن الحرب. ففي أحد حملاته المتعددة، أبدى كلمات التي يمكن أن تعمل كشعار لكل الأنواع الجريئة.

في ربيع سنة 1800م كان {نابوليون} يستعد لقيادة جيشه إلى إيطاليا، فقام حُرّاسهُ الميدانيون من تحذيره أن جبال الألب غير صالحة للعبور في مثل هذا الوقت من السنة وأخبروه أن ينتظر، على الرغم من أن الانتظار سيفسد فرص النجاح، فرد عليهم الجنرال **:[إلى جيش نابليون ، لن تكون هناك جبال الألب]**. ثم ركب فوق بغله، وتقدم نابليون شخصيا بقيادة قواته عبر تضاريس غادرة وعقبات لا حصر لها. كانت قوة إرادة رجل واحد كفيلة بدفع جيش كامل لعبور جبال الألب ليمسكوا العدو بالكامل عن طريق مفاجئتهم وهزيمتهم. فبدون مخاوف لا توجد هناك جبال ألب ولا عقبات التي يمكن أن تقف في وجه أي شخص.

مثال أخر عن هذا النوع الذي يجب أن يكون من أعظم الكُتّاب وأعظم شخص إلغائي ضد العبودية وهو العظيم {فريدريك دوغلاس} الذي ولد في العبودية سنة 1817م في {ميرلاند}، كما كتب سابقا، فقد كانت العبودية نظاما يعتمد على خلق مستويات عميقة للخوف، لكن {دوغلاس} أجبر نفسه بشكل مستمر في الاتجاه المعاكس، وعلى الرغم من التهديد بالعقاب الشديد ، فقد علم نفسه سرا القراءة والكتابة، عندما تم جلده لموقفه المتمرد، قاتل مرة أخرى ورأى أنه تم جلده بشكل أقل. وبدون مال وبدون علاقات أو اتصالات، هرب {دوغلاس} إلى الشمال في سن

العشرين، وأصبح يقود حملات كإلغائي ضد العبودية، يتجول في الشمال ويخبر العامة والناس بشرور العبودية، وأراد أنصاره الإلغائيون أن يُبقوا دوغلاس في دائرة محاضراته ويكرر نفس القصص مرارًا وتكرارًا، لكن {دوغلاس} أراد أن يقوم بشيء أكبر بكثير من ذلك، ومرة أخرى ازداد تمرده، فأسس صحيفته الخاصة المضادة للعبودية، حيث لم يسمع عن عبد سابق قام بهذا الفعل الجريء، رغم ذلك استمرت الصحيفة في نجاح هائل.

اختبر {دوغلاس} في كل مراحل حياته أقوى الاحتمالات والمواقف ضده، بدلا من أن يستسلم للخوف من الجلد والضرب، والوحدة في شوارع المدن الغريبة، ومواجهته غضب الإلغائيين، فقد رفع من مستوى جرأته ودفع نفسه أبعد من ذلك. هذه الثقة أعطته قوة لكي يرتفع فوق المقاومات العنيفة وعداوات الذين من حوله، وهذه هي الديناميكية التي اكتشفتها الأنواع الجريئة في مرحلة ما من حياتهم - أي تصعيد ملائم للاعتقاد الذاتي والطاقة في مواجهة المواقف السلبية أو حتى الظروف المستحيلة.

الأشخاص الجريؤون لا يَظهرون بالضرورة بشكل خاص من بيئة فقيرة أو بيئة قاسية. فـ{فرانكلين ديلانوا روزفلت} نشأ في عائلة ثرية ومميزة. لكن في سن التاسعة والثلاثين أصيب بمرض شلل الأطفال الذي شله وعطل أطرافه السفلى من الخصر إلى الأسفل، هذا المرض كان نقطة التحول في حياته، كما واجه تقييد صارم لحركته ومن المحتمل أن مهنته في السياسة قد تنتهي. لكنه رفض الاستسلام للخوف ولتأثير الفشل على روحه، بل ذهب روزفلت في الاتجاه المعاكس، حيث كافح للاستفادة من حالته الصحية وطور روحا لا تقهر التي حولته إلى أكثر رئيس جريء على الإطلاق. بالنسبة لهذا النوع من الأشخاص، أي صنف من مواجهة مصيبة ما وتقييد ما، وفي أي عمر كان، يمكنه أن يعمل كاختبار قاس لصياغة سلوك أو موقف ما.

النوع الجديد للجريء

هذا الماضي، ماضٍ زنجي، في إطلاق النار، والتعذيب، والتقييد... والموت والإدلال، والخوف أثناء النهار والليل، الخوف بعمق نخاع العظم... هذا الماضي، هذا الكفاح اللانهائي لإنجاز وكشف وتأكيد أي هوية إنسانية... رغم احتوائه على جميع أنواع المخاوف فهو شيء جميل جدا.. فإن الأشخاص الذين لا يستطيعون المعاناة، لا يُمكنهم بالمرة أن يُنضجوا، ولا يمكنهم أبدا أن يكتشفوا حقيقتهم.

{جيمس بالدوين}

خلال معظم القرن التاسع العشر، واجه الأمريكيون جميع أنواع المخاطر والمحن، تمثلت في البيئة المادية المعادية للحدود، والانقسامات السياسية الحادة، وانعدام القانون والفوضى التي انبثقت من خلال التغيرات الضخمة في التكنولوجيا والحِراك الاجتماعي [الحراك تعني التنقل]. وقد استجبنا لهذه البيئة التقييدية من خلال التغلب على مخاوفنا وتطوير ما أصبح يُعرف باسم الروح الأصيلة أو الرائدة - أي إحساسنا بالمغامرة وقدرتنا المعروفة لحل المشكلات.

بازدهارنا المتزايد بدأ هذا يتغير في القرن العشرين، ومع ذلك، ظلت بيئة واحدة قاسية مثل أي وقت مضى، وهم الأحياء السوداء داخل مدينة أمريكية. فمن خلال هذا الاختبار القاسي ظهر نوع جديد جريء، التي تمثلها الشخصيات التالية مثل {جيمس بلدوين} و {مالكوم إكس} و {محمد علي}. لكن عصر التمييز العنصري قد قلص قدرتهم على إعطاء العنان الكامل لهذه الروح.

في الآونة الأخيرة، ظهرت أنواع أحدث في أمريكا بالمزيد من الحرية للتقدم إلى أعلى نقاط السلطة في مجال الترفيه والسياسة والأعمال. كأنهم أتوا من بيئة تشبه الغرب المتوحش - حيث تعلموا أن يدافعوا عن أنفسهم وأن يَطلقوا العنان الكامل لطموحاتهم. فتعليمهم أتى من الحياة داخل الشوارع ومن تجاربهم القاسية. وبطريقة ما أصبحوا رِدّة من الأنواع الحرة للقرن التاسع عشر،

الذين لم يكن لديهم سوى القليل من التعليم الرسمي، ومع ذلك خلقوا وأنشأوا طريقة جديدة لممارسة أعمالهم، فأصبحت روحهم تتناسب مع اضطراب القرن الحادي والعشرين، ورائعون في المراقبة، ولديهم الكثير ليُعلمونا من بعض النواحي.

مغني الراب المعروف {فيفتي سانت} [المعروف باسم كورتس جاكسون] يجب أن يعتبر أحد الأمثلة المعاصرة المثيرة لهذه الظاهرة وهذا النوع، حيث نشأ في حي يتّسم بالعنف والتوتر وسط وباء متصدع في منطقة جنوب كوينز في الثمانينيات. ففي كل مرحلة من حياته يواجه الأخطار التي تختبره وتُصلبه وتُشدّد عليه، كأن طقوس التلقين إلى الموقف الجريء يتسرب إلى داخل عقله ليُطوره بشكل بطيء.

أحد أكبر المخاوف التي يعاني منها أي طفل هو أن يتم التخلي عنه وتركه بمفرده في عالم مرعب. وهو مصدر أكثر كوابيسنا بدائية. وهذا ما كان عليه واقع {فيفتى سانت}، حيث لم يعرف والده قط، ووالدته قُتلت عندما كان عمره ثماني سنوات. وقد طور بشكل سريع عادة في عدم الاعتماد على أشخاص آخرين لحمايته أو إيوائه. هذا معناه أنه في كل مواجهة للعواقب في الحياة عندما يشعر فيه بالخوف، كان يلجأ فيه إلى نفسه فقط. وإذا لم يرغب الشعور بعاطفة الخوف، كان يضطر في أن يتعلم كيفية التغلب عليه لوحده.

بدأ {فيفتي سانت} في عمر مبكر في الانشغال والاندفاع داخل حياة الشوارع، ولم تكن لديه أي طريقة تُمكّنه من تجنب الشعور بالخوف. وعلى أساس يومي اضطر لمواجهة العنف والعدوان، ليرى الخوف يعمل بشكل دوري في حياته، ففهِم معنى العاطفة التدميرية والموهنة وكيف يمكنها أن تكون، ففي عالم الشوارع إذا أظهرت شعورا بالخوف، سيجعلك تفقدك الاحترام الذي يليه الناس لك. وقد ينتهي بك الأمر إلى إبعادك بسبب رغبتك في تجنب العنف الذي على الأرجح ستكون أكثر عرضة له. وليس لديك أي خيار.. إذا كنت تريد أي نوع من القوة كمحتال، عليك أن تتغلب على هذه العاطفة [الخوف]، حيث لا يمكن لأي أحد قراءته في عينيك. هذا يعني بأن {فيفتي} سانت يجب عليه أن يضع نفسه مرارا وتكرارا في وضعيات وحالات التي يمكن أن تحفز شعوره بالقلق، حيث في مرحلة ما من حياته واجه شخصا صوّب مسدسا نحوه، ففي المرة الأولى كان مرتعبا ومرتعدا، وفي المرة الثانية، كان الشعور بالرعب قد قل، أما في المرة الثالثة لم يشعر بأي شيء، بمعنى لم يعد خائفا من المسدس نفسه.

اختباره وتثبيت شجاعته بهذه الطريقة وفي هذه الحالة أعطته قوة مرعبة. فتعلم بشكل سريع قيمة الجرأة، وكيف يمكنه دفع الأخرين على أعقابهم بشعوره بالثقة العليا في نفسه مهما أصبحت قسوتهم وصلابتهم. إن المحتالين عادة يواجهون عقبة رهيبة واحدة وهي خوفهم من ترك حياة الشوارع التي أصبحت بالنسبة لهم شيئا مألوفا، التي مكنتهم من اكتساب مهاراتهم منها. حيث أدمنوا على أسلوب حياتها بالرغم من أنهم أكثر عرضة للدخول إلى السجن أو التعرض للقتل، هم لا يستطيعون ترك هذا المخطط الاجرامي بالمرة.

ومع ذلك ، كان لدى {فيفتي سانت} طموحات أكبر من أن يصبح مجرد محتال ناجح ،ولذلك أجبر نفسه على مواجهة الخوف والتغلب عليه. ففي عمر العشرين وفي دِروة نجاحه كمحتال، قرر قطع روابطه للعبة وغاص في مجال الموسيقى دون أي اتصالات أو شبكة أمان، لأن لم تكن لديه خطة ثانية، ذلك يعني إما أن ينجح في الموسيقى أو ينهار، وقد اشتغل بكد وجهد مضاعف، وبطاقته الإيجابية الجريئة التي كان يحملها في نفسه هي ما جعلته مشهورا في عالم الراب.

فقد كان {فيفتي سانت} لا يزال شابا عندما واجه أسوء المخاوف التي يمكن أن تصيب أي إنسان، الهجر، العنف، وفي ظل هذه التغيرات ظلّ يظهر فيها في كل مرة بشكل أقوى وأكثر مرونة. لكن في سن الرابعة والعشرين، عشية إطلاق تسجيله الأول (أغنيته)، التقى وجهاً لوجه بما يعتبره الكثير منا الخوف المطلق، وهو الموت نفسه. ففي شهر ماي سنة 2000 م قام قاتل بإطلاق تسع رصاصات على فيفتي سانت في وضح النهار وهو جالس في سيارته، وقد كانت رصاصة واحدة مرت بجانب فكه جاءت على بعد ملليمتر من قتله.

بعد حادثة إطلاق النار، أسقطته شركة {كولومبيا للتسجيلات} من علاماتها، حيث ألغت إصدار ألبومه الأول، كما أن المسؤولون التنفيذيون يخشون أن يكون لديهم أي نوع من التورط معه وبالعنف الذي ارتبط به. وانقلب عليه أصدقائه، ربما شعروا بضعفه، ولم يعد يملك من المال شيئا، لم يكن يريد أن يعود إلى حياته السابقة كمحتال بعد أن رفض تلك الحياة، فبدا أن مسيرته الموسيقية ستنتهي. كانت هذه إحدى نقاط التحول تلك التي تكشف قوة موقف المرء في مواجهة الشدائد. كما لو أنه يواجه جبال الألب الغير قابلة للعبور.

في مثل هذه اللحظات، قام {فيفتي سانت} بما قام به {فريدريك دوغلاس}، حيث قرر تصعيد غضبه وطاقته وعدم الخضوع للخوف ليصل بنفسه إلى الإحساس بحافة الموت، فقد فهم كيف

يمكن أن تكون الحياة قصيرة ولا يريد أن يضيع ثانية واحدة، كان يرفض الطرق المعتادة للنجاح - مثل العمل داخل صناعة التسجيلات، والاستلاء على هذه الصفقة الذهبية، وإخراج الأغنية التي يعتقدون أنها ستباع. فقد كان {فيفتي سانت} عكس ذلك، كانت له طريقته الخاصة، حيث أطلق حملة {الأغاني المتنوّعة} يبيع فيها أغانيه أو يقدمها مجانا للعامة في الشوارع. وبهذه الطريقة كان يصقل الأصوات الصعبة والصافية التي كانت تبدو بالنسبة له أكثر طبيعية. حيث كان يستطيع التعبير بلغة الشارع دون الحاجة إلى استخدام كلمات ناعمة على الإطلاق.

فجأة شعر بإحساس كبير بالحرية - أي استطاعته في ابتكار نموذج أعمال الخاصة به حسب رغبته، وقد شعر أن ليس لديه شيء ليخسره، كما لو أن الأجزاء الأخيرة من الخوف التي بقيت بداخله قد تحررت إلى الخارج في حادثة السيارة التي وقعت له سنة 2000م. وقد جعلته الحملة المختلطة مشهورا في الشوارع، فاكتسب فيها انتباها كبيرا لدى المغني الراب المشهور {إمينيم}، الذي سرعان ما وقع على فيفتي على علامته وعلى علامة {دكتور دري}، مما مهد الطريق لإعداد مسرح كبير لفيفتي للصعود إلى قمة عالم الراب الموسيقي في سنة 2003م، وما تلاه، من إنشاء إمبراطورية الأعمال التي قام بصياغتها منذ ذلك الحين.

إننا نعيش في أوقات ثورية غريبة، فالنظام القديم ينهار أمام أعيننا على مستويات عديدة، ومع ذلك، ففي مثل هذه اللحظة المضطربة، يتمسك قادتنا بالماضي ويعتمدون على الطرق القديمة للقيام بعدة أشياء سواء في الأعمال أو السياسة، لأنهم خائفون من التغيير ومن أي اضطراب.

إن الأنواع الجديدة الجريئة، كالتي تمثلت في فيفتي سانت، اتخذوا اتجاها وطرقا معاكسة. وجدوا أن أوقات الفوضى تتناسب مع أمزجتهم، حيث نشأوا وهم غير خائفين من تجريب أشياء جديدة، مثل الاحتيال والسرقة، أو محاولة استخدام طرق جديدة في أعمالهم. ويحتضنون التطورات التكنولوجية التي تجعل الآخرين يخافون سرا. يتركون ماضيهم ويبتكرون أعمالهم الخاصة. و لا يستسلمون للروح المحافظة التي تلاحق الشركات الأمريكية في هذه المرحلة الراديكالية المتطرفة. ففي جوهر نجاحهم تكمن فرضية الجرأة، التي تتمثل في قانون السلطة المعروفة والمستخدمة من قبل جميع الأرواح الجريئة في الماضي، وهي أساس أي نوع من النجاح في العالم.

قانـون فيـ50ـفتي

لدى الناس أعظم خوف من أن يكونوا أنفسهم، يريدون أن يكونوا مثل فيفتي سانت أو شخص آخر، يفعلون ما يفعله الأخرون حتى لو لم تتناسب مع شخصياتهم ومكانتهم. إن بهذه الطريقة في التفكير لن تصل بها لأي نتيجة ، فطاقتك ضعيفة، ولن ينتبه لك أحد. فأنت تهرب من شيء واحد تملكه، شيء يجعلك مختلفا عن الاخرين. وبمجرد أن شعرت بالقوة التي امتلكتها عن طريق إظهار للعالم أنني لا أهتم بأن أكون مثل الأخرين عندها لم أقم بالرجوع للخلف وهكذا فقدت هذا النوع من الخوف.

{ فيفتي سانت }

إن قانون {فيـ50ـفتي} يستند على الفرضية التالية: نحن البشر لدينا سيطرة ضئيلة على الظروف، حيث يتداخل الناس في حياتنا، بفعل أشياء لنا بشكل مباشر أو غير مباشر، فنقضي أيامنا في الرد على ما يجلبونه لنا. و نستقبل الأشياء الجيدة في طريقنا، تليها أشياء سيئة. فنُكافح قدر الإمكان للحصول على بعض السيطرة، لأن كوننا عاجزون في مواجهة الأحداث يجعلنا نشعر بالتعاسة. بل في بعض الأحيان ننجح، لكن هامش السيطرة الذي نملكه على الناس والظروف يكون ضيقا للغاية.

ومع ذلك، ينص قانون {فيـ50ـفتي} على أن هناك شيئا واحدا يمكننا التحكم فيه فعليا - وهي العقلية التي نستجيب بها للأحداث من حولنا. وإذا تمكّنا من التغلب على مخاوفنا وتشكيل موقف جريء تجاه الحياة، يمكن أن يحدث شيء غريب ومثير للإعجاب حيث سيصبح هامش السيطرة على الظروف في الازدياد. وفي أقصى نقطة، يمكننا خلق الظروف نفسها، التي تُعدّ مصدر القوة الهائلة التي كانت تملكها الأنواع الجريئة التي لا تخشى الخوف عبر التاريخ. فالأشخاص الذين يمارسون القانون خمسون في حياتهم يتشاركون جميعا في صفات معينة. كالجرأة القصوى،

خروجهم عن المألوف، والسيولة، والشعور بالإلحاح - وهذه الصفات هي التي تمنحهم هذه القدرة الفريدة لتشكيل ظروفهم.

يتطلب الفعل الجريء درجة عالية من الثقة. فالأشخاص الذين يستهدفون الفعل الجريء أو الذين يشهدونه، لا يسعهم إلا أن يصدقوا أن هذه الثقة حقيقية ومبررة. فهم يستجيبون بشكل غريزي عن طريق شيء مدعومين به، أو سلوك سبل مختلفة، أو باتباع الشخص الواثق. الفعل الجريء يمكن أن يثبت الناس على أقدامهم ويزيل العقبات عن طريقهم. بهذه الطريقة، يخلق الناس ظروفهم الخاصة المناسبة.

فنحن مخلوقات اجتماعية، ولذلك فمن الطبيعي أن نرغب في التوافق مع الناس من حولنا ومع معايير المجموعة، ولكن تحت هذا الخوف العميق – أي الخوف من باتباع طريقنا الخاص بغض النظر عن رأي الناس فينا. إن الأنواع الجريئة قادرة على التغلب على هذا الخوف. إنهم يفتنوننا إلى أي مدى يذهبون بإبداعاتهم، نحن نعجب بهم سرا ونحترمهم لهذا، فنتمنى أن نتصرف بالطريقة التي يفعلون بها. ومن الصعب عادة أن نتحكم في اهتماماتنا، حيث نحول اهتمامنا من مشهد إلى آخر. لكن أولئك الذين يُعبّرون عن اختلافهم يجذبون اهتمامنا على مستوى أعمق لمدة أطول، مما يترجم إلى قوة وسيطرة.

الكثير منا يستجيب لظروف الحياة المتغيرة من خلال محاولة إدارة كل شيء في بيئتنا المباشرة. فعندما يحدث شيء غير متوقع، نصبح جامدين ونستجيب باستخدام بعض التكتيكات التي نجحت معنا في الماضي. وإذا تغيرت الأحداث بسرعة، فسيكون من السهل علينا أن نفقد السيطرة. إن أولئك الذين يتّبعون القانون خمسون غير خائفين من التغيير أو الفوضى. يعتنقونها من خلال كونها مرنة قدر الإمكان. إنهم يتحركون مع تدفق الأحداث ثم يوجهونها برفق في اتجاه اختيارهم، مستغلين اللحظة من خلال وحالتهم الذهنية، يقومون بتحويل الأحداث السلبية [الأحداث غير المتوقعة] إلى أحداث إيجابية [فرصة].

إن امتلاك معركة قصيرة مع الموت، أو تنبيه بطريقة درامية لضيق حياتنا، يمكن أن يكون له تأثير علاجي إيجابي علينا. حيث إن أيامنا معدودة ولذلك فمن الأفضل أن نجعل كل لحظة محسوبة، لنشعر بالحاجة الملحة للحياة. حيث هذه الحاجة الملحة للحياة يمكن أن تنتهي في أي لحظة. عادة ما تكتسب الأنواع الجريئة هذا الوعي من خلال بعض التجارب المؤلمة. فيتم

تنشيطهم لتحقيق أقصى استفادة من كل عمل، ويساعدهم الزخم الذي يوفره لهم هذا في الحياة على تحديد ما سيحدث بعد ذلك.

ببساطة : عندما تنتهك هذا القانون الأساسي عن طريق جلب مخاوفك المعتادة في أي مواجهة، فإنك تضيق خياراتك وقدرتك على تشكيل الأحداث. ويمكن لخوفك أن يجعلك موضعٍ سلبي حيث يتم عكس صلاحياتك. كونك متحفظ على سبيل المثال، يمكن أن يجبرك على الدخول في زاوية من المرجح أن تخسر فيها ما لديك على المدى الطويل لأنك ستفقد القدرة على التكيف مع التغيير. وإن محاولة جاهدة لإرضاء الناس يمكن أن ينتهي بهم المطاف بعيدا عنك - فمن الصعب احترام شخص لديه مثل هذا الموقف الغريب. وإذا كنت تخشى أن تتعلم من أخطائك، فستستمر على الأرجح في تكرارها. فعندما تنتهك هذا القانون، لا يمكن لأي قدر من التعليم، أو شبكة من الاتصالات، أو معرفتك التقنية أن تحميك. موقفك من الخوف يحيطك في سجن غير مرئي، وستبقى مسجونا هناك.

إن رصد وملاحظة قانون {فيـ50ـفتي} يمكن أن يخلق ديناميكية معاكسة - فهو يفتح الاحتمالات ويجلب حرية العمل ويساعد على خلق زخم التقدم في الحياة. إن مفتاح امتلاك هذه القوة المطلقة هو أن تفترض نفسك في الحالة النشطة في التعامل مع مخاوفك. هذا يعني الدخول إلى الساحات التي عادة ما تخجل منها: كاتخاذ القرارات الصعبة التي كنت تتجنبها، ومواجهة الأشخاص الذين يلعبون ألعاب السلطة معك، والتفكير في نفسك وما تحتاجه بدلا من إرضاء الآخرين، مما يجعلك تغير اتجاه حياتك على الرغم من أن هذا التغيير نفسه هو الشيء الذي تخشاه.

ضع نفسك بشكل متعمد في مواقف صعبة لكي تفحص وتراقب ردود أفعالك. ففي هذه الحالة، ستلاحظ أن مخاوفك كانت مبالغا فيها وأن مواجهتها لها تأثير قوي يجعلك أقرب إلى الواقع. وعند مرحلة ما سوف تكتشف قوة الانعكاس – أي التغلب على السلبية من خوف معين الذي يؤدي إلى جودة إيجابية، والاعتماد على النفس، والصبر، والثقة في النفس المطلقة [كل واحدة من الفصول التالية ستسلط الضوء على هذا الانعكاس في المنظور]. مع ذلك بمجرد أن تبدأ في هذا المسار، من الصعب العودة إلى الوراء. حيث ستستمر على طول الطريق إلى نهجٍ جريء في كل شيء.

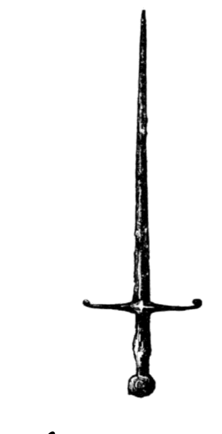
افهم هذا: ليس من الضروري أن تترعرع في منطقة جنوب كوينز أو أن تكون هدفا لقاتل لتطوير هذا الموقف. جميعنا نواجه تحديات، ومنافسين، ونكسات، التي نختار تجاهلها أو تجنبها

بدافع الخوف. إن ما يهم هو حالتك العقلية وليس الواقع المادي لبيئتك، أي الكيفية التي تتعامل فيها مع الشدائد التي هي جزء من الحياة على كل المستويات. فكما اضطر فيفتي سانت على مواجهة مخاوفه، أنت أيضا يجب عليك اختيار هذا.

وفي الأخير، يتمتع موقفك بقوة تشكيل الواقع في اتجاهين متعاكسين - اتجاه يُقيّدك ويَضعك في زاوية الخوف، والآخر يفتح الاحتمالات وحرية العمل. إنه نفس الشيء بالنسبة للروح الذهنية التي تضعها في قراءة الفصول التالية. فإذا كنت تقرأها مع نفسك وبغرور مُقدّما، وشعرت أنه يتم الحكم عليك هنا، أو تتعرض للهجوم، بعبارة أخرى، إذا قرأت هذه الفصول في وضع دفاعي، فستغلق نفسك بدون داع من القوة التي يمكن أن تجلبها لك. نحن كلنا بشر، كلنا متورطون في مشاعر الخوف. لا أحد مُحاكم. وبالمثل، إذا كنت تقرأ هذه الكلمات على أنها وصفات ضيقة لحياتك، في محاولة اتباعها للحرف، فإنك تقيد قيمتها، وتُقيد تطبيقها على واقعك. بدلا من ذلك، يجب أن تمتص هذه الكلمات بروح منفتحة وبجرأة، واترك الأفكار تؤثر على كيفية رؤيتك للعالم. لا تخف من تجربة هذه الفصول. حيث بهذه الطريقة، سيشكل هذا الكتاب ظروفك لتكتسب قوة مماثلة على العالم.

من وجهة نظري ... من الأفضل أن تكون متهورا على أن تكون حذرا، لأن الحظ امرأة، وإذا كنت ترغب في أن تهيمن عليها فعليك أن تضربها وتزعجها. فمن الواضح أنها ستسمح لنفسها أن تكون جائزة للرجال المتهورين بدلا من أولئك الذين يخطون بخطوات حذرة.

{نيقولو ميكيافيللي}



الفصل الأول

أنظر إلى الأشياء بحجمها الطبيعي

{الواقِعية الشديدة}

يمكن أن يكون الواقع قاسيا إلى حد ما، وأيامك معدودة، حيث قد يتطلب الأمر جهدا مستمرا لتوفير مكان لك في هذا العالم التنافسي القاسي والمحافظة عليه. قد يكون الناس غادرين يجلبون لك معارك لا نهاية لها إلى حياتك. فمهمتك إذا أن ترفض إغراء تمني أن يكون كل شيء مختلفا، بدلا من ذلك عليك أن تقبل هذه الظروف بجرأة، بل أن تحبها. فبتركيز انتباهك على ما يجري حولك، ستحصل على تقييم دقيق لما يجعل البعض ينجحون وآخرون يتخلفون، فمن خلال رؤيتك تلاعبات الناس ستتمكّن من جعلهم يلتفون حول أنفسهم. وكلما ازدادت شدة تمسكك بالواقع، كلما ازدادت معها قدرتك على تغييره لصالحك.

نظرة المحتال

هذه هي الحياة ، جديدة وغريبة، غريبة لأننا نخشاها وجديدة لأننا نبقي أعيننا مغلقة عنها... فالرجال هم الرجال والحياة هي الحياة وعلينا أن نتعامل معهم على ما هم عليه. وإذا رغبنا بتغييرهم علينا أن نتصرف معهم بالصورة التي يُوجدون عليها.

{ريتشارد رايت }

كصبي، كان لدى {كرتس جاكسون} طموح شديد في الحصول على الأشياء التي بدا أنه لن يستطيع بلوغها أبدا، أكثر من أي شي آخر - كالمال والسلطة والحرية. فبالنظر إلى طريقة حياة الشوارع في منطقة جنوب كوينز التي نشأ فيها، رأى كرتس واقعا قاتما ومحزنا يُحدق في وجهه .فقد كان بإمكانه الذهاب إلى المدرسة وأخذ الأمر بجدية، لكن بدا له أن الأطفال الذين فعلوا ذلك وصلوا فقط إلى حياة قائمة على وظائف زهيدة الأجر. أو بإمكانه اللجوء إلى عالم الجريمة واكتساب المال بسرعة منها، إلا أن من ذهب في هذا الطريق إما مات شابًّا أو قضى معظم شبابه في السجن. أو بإمكانه أن يهرب من هذا كله بتجربة تعاطي المخدرات، لكن إذا ذهب في هذا الاتجاه فلا مجال للعودة. وحدهم المحتالون وتجار المخدرات هم من يتمتعون بالحياة التي حلِم بها، كانوا يمتلكون السيارات، والملابس الجيدة، ونمط الحياة و مستوى السلطة الموافق لطموحه. وعليه، عند بلوغه سن الحادية عشرة، اختار أن يتبع هذا الاتجاه ليصبح المحتال الأعظم بينهم جميعا.

إلا أنه بتعمقه في الأمر أدرك أن الواقع أقسى وأشد تجهما مما تخيله. حيث كان مدمني المخدرات وزبائنه مُتهرِّبين ويصعب التعرف عليهم، أما زملائه المحتالين كانوا يتعاركون جميعا على ذات العدد المحدود من الزوايا وعلى استعداد دائم لطعنك في ظهرك. إن كبار التجار الذين يُديرون علاقات الحي يمكن أن يكونوا عنيفين وشديدي الوطأة، فإذا أبليت بلاءً حسنا قد يحاول

أحدهم أخذ ما لديك. والشرطة تحوم في كل مكان، إن خطوة واحدة خاطئة من شأنها أن تزج بك في السجن. ببساطة ، كيف يمكنه النجاح وسط هذه الفوضى وتفادي كل الأخطار المحتومة؟ يبدو الأمر مستحيلا.

ذات يوم كان يناقش بعض الجوانب العسيرة من اللعبة مع محتال قديم يُدعى تروث، الذي أخبره شيئا لن ينساه أبدا. قال له : لا تتذمر بشأن الظروف السيئة، في الواقع، الحياة الصعبة لهذه الشوارع هي نعمة إذا كنت تعرف ما الذي تفعله، حيث يجب على المحتال في هذا العالم الخطير أن يبقى مركزا بشدة على ما يحدث حوله، وعليه أن يعتاد على متاعب الشوارع التي قد تحمل معها فرصة جديدة، ولينظر المرء من خلال التلاعبات التي يقذفها الناس التافهين في وجهه ولأفكارهم القذرة. وعليه أن ينظر إلى نفسه ليرى معوقاته الخاصة وغباءه. كل هذا يشحذ تلك النظرة لتكون كحافة السكين لتجعل منه مراقبا متحمسا لكل شيء.

ثم أخبره : إن أعظم خطر نُواجههُ ليس الشرطة أو منافس قدر ما، بل الركود العقلي. فقد رأيت ذلك يحدث لعديد من المحتالين، فإذا مضت الأمور على نحو جيد، يبدأ في الاعتقاد بأن الأمور ستستمر على هذا النحو وإلى الأبد، فيغلق عينيه عن حياة الشوارع، أما إذا أصبحت الأمور سيئة فيبدأ في التمني بأنها ستتغير ويأتي بمخططات حمقاء لكسب المال السريع والسهل، وفي كلتا الحالتين يقع بسرعة. ارخي قبضتك عن واقع هذه الشوارع وستكون كمن يقتل نفسه.

خلال الشهور التالية، أخذ كرتس يفكر ويغوص أكثر فأكثر فيما قاله له تروث. فقرر أن يُحول كلمات هذا المحتال إلى ما يشبه قانونا يحيا بموجبه : لن يثق بأحد وسيخفي نواياه حتى عن أصدقاءه وشركاؤه . ومهما كان مقدار ارتفاع أو انخفاض الحياة التي أتت به فإنه سيبقى المراقب الأعظم، محافظا على نظرة المحتال الخاصة به حادة و مركزة.

على مدى السنوات القليلة المقبلة، أصبح أحد أكثر المحتالين ذكاءً في حيه، مستخدما فريق عمل جلبا له مالًا جيدًا. بدا المستقبل واعدا ولكنه وقع في قبضة الشرطة في لحظة غفلة وحُكم عليه وهو في سن السادسة عشر، بقضاء تسعة أشهر في مركز لإعادة التأهيل في شمال نيويورك. في هذا المكان الغير المألوف ومع وجود الوقت للتفكير، قفزت إلى ذهنه فجأة كلمات المحتال مرة أخرى. إنه ليس الوقت المناسب ليصاب بالاكتئاب أو ليحلم ولكن ليُسلط نظرة المحتالين هذه على نفسه وعلى العالم الذي يعيش فيه، وأن ينظر للأمر على طبيعته مهما كان سيئا.

كان لديه طموح جامح في الحصول على سلطة حقيقية، شيء يستطيع البناء عليه، ولكن طريق المحتالين لا يمتد إلى هذا البعد. إنها لعبة الشباب فقط، فعندما يبلغ المحتالون عقدهم الثاني تنخفض وتيرة سرعتهم فيحدث شيء سيء لهم أو ينطلقون نحو الوظائف زهيدة الأجر، وما يعميهم عن هذا الواقع هو المال ونمط الحياة الذي يتمتعون به في تلك اللحظة : حيث يظنون أنها ستظل إلى الأبد، فيخافون من تجربة شيء آخر. ولا يتعلق الأمر بمدى ذكائك، فدائما هناك سقف يحدد مقدار الارتفاع الذي تبلغه.

عليه أن يستيقظ ويجد لنفسه مخرجا طالما أنه لا يزال شابا يمكنه تحقيق طموحه، ولن يكون خائفا . فبناء على هذه الأفكار قرر أن يقوم بقفزة في مجال الموسيقى. حيث سيجد لنفسه مُرشدا، شخص يمكنه أن يعلمه الألحان ليتعلم كل ما يستطيعه عن الموسيقى وعالم الأعمال، ولن تكون لديه خطة بديلة، إما أن يفعلها أو يموت.

تحول إلى عالم الموسيقى بنوع من طاقة اليأس، راغبا في إيجاد مكان له لصنع صوت صعب الانقياد عاكسا واقع الشوارع. فبعد حملته الغنائية المكثفة في نيويورك، لفت انتباه {إيمينيم} واتبع ذلك صفقة لتسجيل أسطوانتة. وها هو الآن حقق حلم طفولته : المال والسلطة. وأصبح الناس لطفاء معه ويتغزلون به في كل مكان يذهب إليه، راغبين بأن يصبحوا جزءا من نجاحه. كان يشعر بحدوث ذلك - الإعلام الجيد والمعجبين المهووسين، كل هذا بدأ يدخل في رأسه و يشوش رؤيته . ظاهريا بدا كل شيء رائعا ولكن ما هي الحقيقة هنا ؟ إنه الآن بحاجة من أي وقت مضى إلى تلك النظرة الثاقبة الحادة التي تنظر خلف كل تلك الضجة والسحر.

كلما تعمق في النظر، كلما أدرك أن واقع عالم الموسيقى قاسٍ كواقع الشوارع، حيث أن المسؤولين التنفذيين الذين يتحكمون بمجريات الأمور قُساة. يشتّتون انتباهك بكلماتهم الساحرة ولكنهم في الواقع أقل اكتراثا بمستقبلك كفنان : يَمتصّون كل دُولار يستطيعون استخراجه منك إلى أن تجف، وعندما لا تعود مرغوبا ستجد نفسك ببطء مدفوعا جانبا، سيكون رفضك مؤلما أكثر من نجاح واحد تذوقته، ففي الحقيقة تصبح بيدقا في لعبتهم. هكذا كانت نظرة محتال الزوايا في الشارع تتحكم بمستقبله أكثر ما يفعله كمغني راب.

وماذا عن عالم الأعمال الغنائي ذاته؟ فقد تراجعت مبيعات الاسطوانات بسبب قيام الناس بقرصنتها أو شراء الموسيقى بأشكال مختلفة، يستطيع كل من لديه عينين رؤية ذلك. يجب أن

ينتهي النمط التجاري القديم، ولكن المسؤولين التنفذيين القدماء ذاتهم يبدون متزمتين خائفين من مواجهة الواقع، إنهم متمسكين بالماضي بشدة وسيُحطّمون الجميع معهم.

ولكن ليس فيفتي سانت، فهو سيتجنب هذا المصير بالسير في اتجاه مختلف، حيث سيؤسس إمبراطورية أعمال متنوعة، الموسيقى مجرد أداة للوصول إليها، وسيكون قراره مبنيا على قراءته المكثفة للبيئة المتغيرة التي اكتشفها في عالم الموسيقى، بل ستصيب جميع المستويات الأخرى من الأعمال. وسيدع الآخرين يعتمدون على مؤهلاتهم العليا، وأموالهم وعلاقاتهم، أما هو فسيعتمد بدلا من ذلك على نظرة المحتالين هذه التي رفعته من قاع أمريكا إلى القمة في سنوات معدودة .

الأسلوب الجريء

الواقعية هي مخدري، فكلما حصلت عليها أكثر، كلما ازدادت قوتي وارتفع احساسي بالسمو.

فيفتي سانت -

قد تتخيل أن حياة الشوارع التي كونت فيفتي سانت والقانون الذي وضعه لنفسه ليس لها علاقة تذكر بظروفك، إلا أن ذلك يدل على توهمك ومدى عمق الخيالات التي تأثرت بها و مدى شدة خوفك من مواجهة الواقع . إن العالم أصبح قاتما وخطيرا كشوارع منطقة جنوب كوينز- أي وجود بيئة تنافسية عالمية حيث كل شخص فيها هو محتال شرس يعمل لصالحه أو لصالحها.

إن كلمات تروث تنطبق عليك بقدر ما تنطبق على فيفتي سانت : إن أعظم خطر يواجهك هو نزوع العقل للوهن فتصبح نظرتك خاملة وباهتة. فعندما تواجهك المصاعب وتغدو متعبا من وطأتها يبدأ عقلك في الانجراف إلى الأوهام : حيث تتمنى أن تسير الأمور بطريقة معينة ثم ببطء وبهدوء فتصبح مستغرقا في أفكارك و رغباتك. فإذا مضت الأشياء على نحو جيد فإنك تكون راضيا وتتخيل أن ما لديك سيستمر للأبد. فتتوقف عن الانتباه، وقبل أن تستوعب ذلك، ينتهي بك الأمر مصدوما بالتغييرات الجارية وتجد المحيطين بك من الأشخاص الأصغر سنا يصعدون، مهددين مكانتك.

افهم هذا : أنت بحاجة لهذا القانون أكثر من فيفتي سانت نفسه. فقد كان عالمه قاسيا وخطيرا جدا لدرجة أنه أجبره على فتح عينيه على الواقع وعدم فقدان هذا الارتباط أبدا. إن عالمك يبدو أكثر حميمية، وأقل عنفا وأقل خطورة، يجعلك تجول وعيناك غافيتان في الأحلام. إن الديناميكية التنافسية (كما في الشوارع ، وعالم الأعمال) هي في الواقع ذاتها، إلا أن بيئتك التي تبدو مريحة جعلت رؤية ذلك صعبا بالنسبة لك. فالواقع يمتلك قوته الخاصة، تستطيع أن تدير ظهرك له ولكنه سيجدك في النهاية، فعدم قدرتك على التأقلم معه سيُدمرك. حان وقت التوقف عن الانجراف و الاستيقاظ من أجل تقييم نفسك، وتقييم المحيطين بك، وتقييم الاتجاه الذي تسير فيه مهما كان باردا وموحشا قدر المستطاع وبلا خوف.

فكر في الواقع على النحو التالي: إن الناس المحيطين بك غامضون بشكل عام ولست متأكدا من نواياهم إلى حد كبير، فهم يبرزون لك مظهرا مخادعا، و سلوكهم المتلاعب لا يتسق مع كلماتهم ووعودهم النبيلة. كل هذا دليل على وجود اضطراب، فرؤية الناس بحجمهم الطبيعي يعني الإحساس بدوافعهم. سيؤدي إلى اختراق المظهر الزائف الذي يُبدونه للعالم و رؤية شخصيتهم الحقيقية. وبهذه المعرفة سيصبح سلوكك في الحياة أشّد فاعلية.

حيث سيكون خط عملك هو طبقة أخرى من الواقع. لحد اللحظة قد تبدو الأمور هادئة على السطح، لكن هناك تغيرات متتالية عبر هذا العالم، فالأخطار تُلوح في الأفق وسرعان ما ستكون افتراضاتك حول كيفية عمل الأشياء قديمة، ولن تكون هذه التغيرات والمشكلات واضحة بشكل مباشر. إن قدرتك على اكتشافها قبل أن تتضخم كثيرا سيمدك بقوة هائلة .

القدرة على رؤية واقع الناس خلف مظهرهم هي مهارة غير متعلقة بالتعليم أو الذكاء. قد يكون الناس مليئين بمعرفة الكتب ومكتظين بالمعلومات، لكنهم لا يملكون حسا واقعيا بما يقع حولهم. إنها في الحقيقة مهارة ذات طابع وجرأة. ببساطة، لا يخشى الواقعيون النظر إلى الظروف القاسية في الحياة، حيث يشحذون نظرتهم من خلال الانتباه الشديد إلى التفاصيل و إلى نوايا الناس، و إلى الحقائق المظلمة المتوارية خلف الواجهة البراقة. ويقومون بتطوير مهارتهم هذه لتصبح أشد مثل أي عضلة مُدرّبة.

إنه ببساطة خيار عليك أن تتخذه. يُمكنك في أي لحظة في الحياة أن تتحول إلى النظرة الواقعية وهذا ليس نظاما اعتقاديا وإنما طريقة للنظر إلى العالم. هذا يعني أن كل ظرف و كل فرد هو

مختلف، و مهمتك هي قياس هذا الاختلاف ثم اتخاذ التصرف الملائم. فإن نظرتك يجب أن تكون ثابتة على محيطك وليس على نفسك أو غرورك، إن ما تراه هو ما يحدد ما تعتقده وما تفعله. وفي اللحظة التي تتشبث فيها بفكرة عزيزة بِغَضّ النظر عما تكشفه لك عيناك أو أذنيك فإنك لا تعود واقعيا.

لرؤية هذه القدرة بالفعل، أنظر الى رجل مثل أبراهام لنكولن الذي يُعد أعظم رئيس لنا، حيث تّلقى مقدارا بسيطا من التعليم الرسمي وترعرع في بيئة قاسية محدودة. فعندما كان شابّا، كان يُحب تفكيك الآلات وإعادة تركيبها، كان عمليا حتى النخاع. كرئيس ، وجد نفسه مضطرا لمواجهة أكبر أزمة في تاريخنا، كان محاطا بأعضاء مجلس الوزراء والمستشارين الساعين إلى إبراز أنفسهم وبالمعتقدات المتحجرة التي آمنوا بها. فقد كانوا عاطفيين وانفعاليين، فرأوا أن لنكولن شديد الضعف، حيث كان يستغرق وقتا طويلا ليتخذ قرارا، وغالبا ما يتعارض مع ما نصحوه به، وكان يثق بجنرالات مثل {يوليسيس إس غرانت}، الذي كان مدمناً على الكحول وغير اجتماعي، كما عمل مع أولئك الذين اعتبرهم مستشاروه الأعداء السياسيين على الجانب الآخر.

ما لم يدركوه وقتئذ أن لينكولن كان يواجه كل ظرف دون تصوّرات مسبقة، كان عازما على تقييم الأمور بحجمها الطبيعي بالضبط. فكانت خيارته مستمدة من الواقعية العملية البحتة، كان مراقبا دقيقا للطبيعة البشرية و قد تمسك بغرانت لأنه رآه الجنرال الوحيد القادر على اتخاذ قرارات فعالة، كان يُقيم الناس بناءً على النتائج لا على الصداقة أو القيم السياسية. إن حذره في تقييم الناس والأحداث لم يكن ضعفا بل في غاية القوة، وهي صفة جريئة. وبهذه الطريقة قاد البلاد بحذر متجاوزا مخاطر لا تحصى. إنه ليس تاريخا اعتدنا القراءة عنه، لأننا نُفضّل أن نكون منغمسين في الأفكار العظيمة والأحاسيس الدرامية، ولكن عبقرية لينكولن تمثلت في التركيز بشدة على الواقع والنظر للأمور بحجمها الطبيعي، وهو مثال حي على قوة الواقعية.

قد يبدو أن معايشة الواقع كثيرا تجعل المرء مكتئبا ولكن الأمر على خلاف ذلك، إن التمتع برؤية واضحة عن هدفك، وما يريد الناس الوصول إليه، وما يحدث في العالم حولك، سيترجم إلى ثقة وقوة وإحساس بالاستنارة. ستشعر بمزيد من الارتباط ببيئتك، كالعنكبوت في شبكته. فعندما تسوء الأمور في الحياة ستكون قادرا على إصلاح ذاتك أسرع من الآخرين لأنك ستدرك عاجلا ما

يجري بالفعل و ستتمكن من الاستفادة حتى من أسوأ لحظة. وبمجرد أن تتذوق هذه القوة، ستجد المزيد من الراحة في الاستيعاب المركز للواقع أكثر من الانغماس في أي نوع من الخيال والأوهام.

مفاتيح الجرأة

إن معرفة عدوك، ومعرفة نفسك، سيجعل النصر مؤكدا، وإن معرفة الأرض، ومعرفة الطقس، سيجعل النصر شاملا.

{سان تزو}

كانت أمريكا في يوم من الأيام دولة لأعظم الواقعيين والعمليين، ونظرا لقسوة البيئة والمخاطر العديدة التي تحف بالحياة. كان علينا أن نكون مراقبين مُتحمسين لكل ما يدور حولنا من أجل البقاء. ففي القرن التاسع عشر، أدت طريقة النظر هذه إلى العالم، في اختراعات لا حصر لها، وتراكمات في الثروات مما أدى لبروز دولتنا كقوة عظمى. إلا أنه مع هذه القوة المتنامية لم تعد البيئة تضغط علينا بعنف فبدأت شخصيتنا بالتغير.

ففي الحاضر أصبح يُنظر إلى الواقع كشيء يجب تفاديه. تدريجيا وببطء طورنا حس الهروب من مشاكلنا ومن العمل ومن قسوة الحياة، حيث بدأت ثقافتنا تنسج لنا خيالات لا نهاية لها لاستهلاكها. وكنتيجة لتغذيتنا بهذه الأوهام صرنا معرضين بسهولة للخداع، حيث لم يعد لدينا مقياس عقلي لتمييز الحقيقة عن الخيال.

هذه الديناميكية تكرر نفسها عبر التاريخ، فقد كانت روما القديمة دُويلة صغيرة وكان مواطنوها قساة و مُتحمِّلين، حيث اشتهروا بواقعيتهم العملية. إلا أنه مع تحولهم من جمهورية إلى إمبراطورية وتعاظم قوتهم، انعكس كل شيء، أصبحت عقولهم متعطش لأشكال الهروب الحديثة، ففقدوا احساسهم بالخطر. واستنفذت الخلافات السياسية انتباههم أكثر من تلك الأخطار الكبرى

على حدود الإمبراطورية. وقد سقطت هذه الأخيرة قبل غزو البرابرة بوقت طويل، حيث انهارت داخليا نتيجة الركود العقلي الجماعي لمواطنيها من خلال عدم مواجهتهم للواقع.

افهم هذا: أنت كفرد لا تستطيع إيقاف تأثير الخيال ولا تستطيع التهرب من الواقع الذي يجتاح ثقافتك، ولكن يمكنك أن تقف كحصن ضد هذا الاتجاه لتصنع قوةً لذاتك. فقد وُلدت بأعظم سلاح في الطبيعة كلها، ألا وهو العقل المنطقي الواعي الذي لديه القدرة على توسيع نطاق رؤيتك أعمق وأبعد، مانحا إياك المهارة الفريدة في تمييز أنماط الأحداث وفي التعلم من الماضي واستبصار المستقبل وفي النظر لما وراء المظاهر. إن الظروف تتآمر على هذا السلاح لتجعله عديم الفائدة عن طريق دفعك للانكفاء على ذاتك وإخافتك من الواقع.

اعتبرها حربا، حيث عليك أن تحارب هذا الميل بأفضل ما لديك لتتحرك في الاتجاه المعاكس، وكذلك أن تنفتح على الخارج وتكون مراقبا دقيقا لكل ما يحيط بك. فأنت ستخوض معركة ضد جميع الأوهام الملقاة عليك لتقوي علاقتك ببيئتك، فأنت تريد الوضوح وليس الهروب والتشويش. إن التحرك في هذا الاتجاه سيُعطيك أفضلية على الكثير من الحالمين.

ضع في اعتبارك ما يلي كتمارين لعقلك لجعله أقل تصلبا و أكثر حدة وتمددا ومقياسا دقيقا للواقع. درب نفسك على هذه التمارين بقدر ما تستطيع.

إعادة اكتشاف الفضول – الانفتاح

استرعى انتباه الفيلسوف الإغريقي العظيم سقراط ذات يوم أن كاهنا دِلفيا قد أعلنه كأحكم رجل في العالم (سقراط). وهذا ما حير الفيلسوف، حيث لم يعتقد أنه يستحق مثل هذا الحكم. بل أشعره بالانزعاج. فقرر ببساطة أن يطوف أنحاء أثينا بحثا عن شخص يفوقه حكمة، ويجب أن يكون ذلك سهلا ليدحض ما ادعاه الكاهن.

فدخل في مناقشات مع سياسيين وشعراء وحرفيين و فلاسفة آخرين و بدأ يدرك أن الكاهن كان محقا. فجميع الأشخاص الذين تحدث معهم كانت لديهم أنماط ثابتة من التفكير حول أمور وآراء صلبة لا يملكون خبرة فيها، كانوا فارغين.

فإذا قمت بسؤالهم عي أي شيء لن يستطيعوا الدفاع فعلا عن آرائهم التي يبدو أنهم أسسوها على أمور حددوها منذ سنوات. وقد تمثلت أفضلية سقراط في إدراكه بأنه يعرف أنه لا يعرف شيئا وهذا ما جعل عقله منفتحا لتجربة الأمور بحجمها الطبيعي، الشيء الذي يعد مصدرا للمعرفة.

هذا الموقف من الجهل الأساسي هو ما كُنّا نتمتع به عندما كنّا أطفالا. حيث كانت لدينا حاجة وتلهف للمعرفة من أجل التغلب على هذا الجهل، لذلك راقبنا العالم بأكبر قدر ممكن، مستوعبين كميات كبيرة من المعلومات، كل شيء كان مصدرا للتساؤل. لكن مع مرور الوقت تميل عقولنا للانغلاق في مرحلة ما، فنشعر بما يشبه أننا نعرف كل ما نحتاج إلى معرفته، فتصبح آراءنا ثابتة ومحددة. نحن نفعل ذلك بدافع الخوف حيث لا نرغب بأن تتعرض معتقداتنا للاهتزاز عن الحياة. فإذا ذهبنا أبعد في هذا الاتجاه سنصبح دفاعيين جدا ونغطي مخاوفنا بثقة ويقين مطلق.

ما عليك القيام به في الحياة هو العودة إلى ذلك العقل الذي امتلكته كطفل، والانفتاح على التجربة بدلا من الانغلاق عليها. تخيل و ليوم واحد فقط إنك لا تعرف شيئا، وأن ما تؤمن به قد يكون خاطئا كليا، تحرر من أفكارك المسبقة وحتى المعتقدات العزيزة على نفسك، أرغم ذاتك على اتخاذ رأي معاكس أو أنظر للعالم من خلال أعين خصومك، استمع الى الناس المحيطين بك بمزيد من الانتباه، اعتبر كل شيء مصدرا للتعليم حتى من اتفه اللقاءات. تخيل أن العالم لا زال زاخرا بالغموض.

عندما تتصرف بهذه الصورة ستجد أن شيئا غريبا يحدث غالباً، فتبدأ الفرص في الوقوع في حُضنك لكونك أصبحت فجأة أكثر استجابة لها. وفي بعض الأحيان يكون الحظ أو الصدفة مجرد قدرة ناتجة عن انفتاح عقلك.

معرفة التضاريس الكاملة - التوسع

تحدث الحرب على تضاريس محددة، ولكنها تنطوي على ما هو أكثر من ذلك، حيث هناك أيضا معنويات جنود العدو، ومعنويات القادة السياسيين الذين وضعوهم في حالة حركة، وحالة عقليات جنرالات المعارضين الذين يتخذون القرارات الرئيسية، بالإضافة إلى المال والموارد التي تقف وراء هذا كله، حيث يتقيد الجنرال العادي بمعلومات التضاريس الفيزيائية بينما الجنرال الأفضل يحاول توسيع نطاق معلوماته عن طريق قراءة التقارير المتعلقة بالعوامل الأخرى المؤثرة في

الجيش، أما الجنرال المتفوق سيقوم بتكثيف هذه المعرفة من خلال ملاحظة أكبر قدر ممكن إما بعينيه أو الاستعانة بمصادر مباشرة.

يعتبر نابليون بونابرت أعظم جنرال عاش على الأرض. وما رفعه إلى هذه المكانة بين جميع الجنرالات هو كمية المعلومات التي كان يستوعب فيها كامل تفاصيل المعركة وتصفيتها قدر المستطاع، الأمر الذي منحه قبضة قوية على الواقع.

فهدفك أن تتبع مسار نابليون، أي عليك أن تراقب بعينيك كل ما يمكنك مراقبته و تتصل مع الأشخاص داخل منظومتك من خلال تسلسل الأوامر صعودا ونزولا . لا ترسم حواجزا في تفاعلاتك الاجتماعية، بل وسع طريقك نحو الأفكار الجديدة وارغم نفسك على الدخول إلى الأماكن والأحداث الخارجة عن محيطك العادي. إذا لم تستطع ملاحظة شيء ما بطريقة مباشرة حاول أن تحصل على تقارير متصلة به أكثر وقم بتصفيتها، أو قم بتغيير المصادر حتى تتمكن من رؤية الأشياء من جوانب متعددة. اجعل انامللك تستشعر كل ما يجري في كامل تضاريس بيئتك.

احفر إلى الجذور - العمق

كان {مالكوم إكس} واقعيا، كانت له نظرة خاصة للعالم، التي صقلتها السنوات التي عاشها في الشوارع والسجن. فبعد خروجه من السجن كانت مهمته في الحياة معرفة جذر المشكلة التي يعاني منها السود في أمريكا. وقد أوضح في سيرته الذاتية " بأن هذه الدولة تهتم بالمظاهر البراقة، وتلجأ إلى حيلة التهرب، وتهتم بما هو على السطح، وتنسى التعامل مع مشكلاتها الحقيقية المتجذرة "، وتوصل أخيرًا إلى ما اعتقد انه السبب العميق، ألا وهو العبودية.

كما هو معلوم بأن السود في أمريكا كانوا لا يستطيعون فعل الأشياء بمفردهم بالكامل، فقد اعتمدوا على الحكومة والليبراليين و قادتهم وعلى الجميع، ولم يعتمدوا على أنفسهم. فلو استطاعوا إنهاء هذه العبودية لكانت لديهم القدرة في عكس كل الأمور لصالحهم.

توفي مالكوم إكس قبل أن يمضي أبعد من ذلك في مهمة حياته، ولكن بقيت منهجيته صالحة لكل زمان. عندما لا تستطيع التوصل الى جذر المشكلة فلن تتمكن من حلها بأية طريقة مفيدة. إن

الناس يُحبون الأخذ بالمظاهر والحصول على التعاطف والتفاعل وأيضا يُحبون القيام بأمور تجعلهم يشعرون بشعور أفضل على المدى القصير ولكنها لا تخدمهم على المدى الطويل. ويجب أن تكون هذه هي قوة عقلك واتجاهه عند مواجهة أية مشكلة، وذلك بأن تغوص فيها أعمق حتى تحصل على شيء أساسي متجذر. لا تكتفي بالشيء الذي يُظهر نفسه أمام عينيك، أنظر ما يكمن وراءه واستوعبه ثم احفر بشكل أعمق. وتساءل دائما لماذا وقع هذا الحدث المعين وما هي الدوافع المختلفة المحركة له، ومن هو المسؤول فعلا عنه ومن هو المستفيد منه. فغالبا ما يتمحور الأمر حول المال والسلطة ، وهذا ما يُقاتل الناس من أجله بغض النظر عن المظاهر البراقة التي يُقدّمونها. قد لا تصل إلى الجذر الحقيقي، لكن عملية الحفر ستقربك أكثر. والعمل بهذا النهج سيطور عقلك إلى أداة تحليلية قوية.

أنظر لما هو أبعد من بصرك – الإحساس بالتناسب

وفقا لطبيعتنا كمخلوقات عقلانية واعية، لا يسعنا إلا أن نفكر في المستقبل. لكن معظم الناس، خوفًا من ذلك، يُقيدون رؤيتهم للمستقبل في نطاق ضيق - كأفكار للغد أو لبضعة أسابيع قادمة أو خطة غير مؤكدة لأشهر مقبلة. فنحن نتعامل عموما مع الكثير من الصراعات المباشرة ويصعب علينا ترك التركيز على اللحظة الراهنة. ومع ذلك، فإن قانون السطوة هو أنه كلما فكرنا بصورة أبعد وأعمق في المستقبل تعاظمت قدرتنا على تشكيله وِفقاً لرغباتنا.

إذا كانت لديك أهداف بعيدة المدى قد تخيلتها بالتفصيل، فإنك ستكون أكثر قدرة على اتخاذ القرار الملائم في الوقت الحاضر. وستعرف ماهية الصراعات والأوضاع التي يجب تجنبها لأنها لا تقودك باتجاه هدفك. ومع تركيزك للمستقبل ستنتبه إلى الأخطار التي تُلوح في الأفق وستتخذ الإجراءات الوقائية لتجنبها، سيكون لديك إحساس بالتناسب. وأحيانا يكون الشيء الذي ننزعج منه في الحاضر غير مؤثر على المدى الطويل. يمنحك كل ذلك قوة متزايدة لتحقيق غاياتك.

كجزء من هذه العملية، أنظر الى المشاكل الأصغر التي تعيقك أو تعيق مُخططاتك في الحاضر وارسم أسهما باتجاه المستقبل، متصورا ما الذي قد تؤدي إليه ببساطة اذا تضخمت أكثر. فكر في أكبر أخطائك أو أخطاء الآخرين. وكيف يمكن أن تكون متوقعة؟ عموما هناك علامات ستبدو

واضحة جدا بعدئذ. وتصور لحظة وجود هذه العلامات ذاتها التي ربما تجاهلها في الوقت الحاضر.

أنظر إلى أفعال الناس لا أقوالِهم - الحِدّة

في الحرب أو أي لعبة تنافسية أخرى أنت لا تنتبه إلى نوايا الناس سواء كانت جيدة أم سيئة فهي لا تهمك. الأمر هو ذاته في لعبة الحياة. الجميع يلعب ليربح، وبعض الأشخاص قد يستخدمون المبررات الأخلاقية لتعزيز موقفهم. كل ما تنظر إليه هو مناوراتهم، وأفعالهم في الماضي وما تتوقع أن يفعلوه في المستقبل. في هذا الجانب أنت واقعي بشدة، حيث تدرك أن كل فرد يسعى إلى السلطة، ومن أجل الحصول اليها نلجأ جميعنا في بعض الحالات إلى التلاعب بل و حتى الخداع. إنها طبيعة إنسانية لا عيب فيها. لا تأخذ مناورات الناس بصورة شخصية. ربما حاولت الدفاع عن ذاتك من قبل أو تطويرها. أنت فقط تحاول الدفاع عن نفسك أو التقدم.

كجزء من هذا النهج، يجب أن تصبح مراقبًا أفضل للناس. وهذا لا يمكن عمله على الانترنت بل يجب أن يُصقل من خلال التعاملات الشخصية. فتُحاول قراءة الناس والنظر إلى دواخلهم بقدر ما تستطيع. لتستنتج مثلا أن الشخص الذي يكون ودودا جدا بصورة واضحة خلال فترة قصيرة جدا غالبا ما يؤول الأمر معه إلى عاقبة غير جيدة. فإذا امتدحوك فإن ذلك يدل بشكل عام على الحسد. وإن التصرف الذي يكون مبالغا فيه أو متهورا هو علامة لا يجب أن تغض عنها. ولا تتقيد بالتعابير وإيماءات الناس التي يرتدونها أمام العامة. انتبه أكثر إلى التفاصيل، إلى الأشياء الصغيرة التي يظهرونها في حياتهم اليومية. كذلك إن قراراتهم تكشف الكثير ويمكنك غالبا تمييز نمط معين عند رؤيته عن كثب.

بشكل عام، فإن النظر إلى الآخرين من خلال عدسة عواطفك سيشوش على ما تراه وسيجعلك تسيء فهم كل شيء. ما تريده هو عين حادة موجهة على أقرانك، تلك التي تكون ثاقبة و موضوعية وغير منحازة.

أعد تأسيس نفسك – الانفصال

يجب أن توجه قوتك المتزايدة في الملاحظة على نفسك من حين لأخر. اعتبر ذلك طقسا تقوم به كل بضعة أسابيع كإعادة تقييم صارمة في من تكون وإلى أين تتجه. أُنظر الى أفعالك الأخيرة كما لو أنها مناورات الشخص الآخر. تصور كيف يمكنك فعل ذلك كله بشكل أفضل، متجنبا الصراعات غير الضرورية، أو تخيل أنك تواجه الأشخاص الذين وقفوا في طريقك بدلا من الهروب منهم. ليس الهدف هنا هو الضغط على ذاتك وإنما اكتساب القدرة على تكييف وتغيير تصرفك عن طريق الاقتراب أكثر نحو الواقع.

إن الهدف النهائي لمثل هذا التمرين هو تنمية إحساس ملائم بالانفصال عن ذاتك وعن الحياة . ولا يعني ذلك أنك ترغب في أن تشعر بهذا الانفصال في كل لحظة، لأن هناك أوقات تتطلب منك التصرف فيها بعاطفة وجرأة وبدون شك أو بأخذ مسافة ذاتية، ومع ذلك فأنت بحاجة في العديد من المناسبات إلى أن تكون قادرا على تقييم ما يحدث، دون أن تجعل غرورك أو عواطفك تُلوّن تصوراتك. إن الانتقال إلى موقف داخلي هادئ ومنفصل لمراقبة الأحداث سيصبح عادة وشيء يمكنك الاعتماد عليه وسط أي أزمة. ففي تلك اللحظات في الحياة التي يفقد فيها الآخرون توازنهم ستجد نفسك في هدوء نسبي. كشخص لا يتأثر بالأحداث بسهولة حيث ستجذب الاهتمام والقوة.

عكس المنظور

يرتبط مفهوم الواقعية غالبا ببعض الدلالات السلبية. قد يكون الواقعيون وفقا للحكمة التقليدية عمليون لدرجة مبالغ فيها، فهم غالبا ما يفتقرون إلى الإحساس بالأشياء الرفيعة السامية في الحياة. فإذا ما أخذنا مثل هذه الأنواع في الاعتبار، سنجدها ساخرة ومتلاعبة وميكافيللية. حيث هم عكس الحالمين، أي الناس ذوو المخيلة الواسعة الذين يلهموننا بمثالياتهم ويجذبون أنظارنا باختراعاتهم الممتعة.

إن هذا المنظور يتأتى بالكفية التي يُنظر بها للعالم، أي بواسطة عدسة الخوف، وقد حان الوقت لعكس هذا المنظور ورؤية الحالمين والواقعيين في ضوئهم الحقيقي. الحالمون الذين يخطئون استقراء الحالة الواقعية للأمور و يتصرفون بناء على عواطفهم، هم غالبا مصدر أكبر الأخطاء

التي ارتكبت عبر التاريخ، كالحروب الغير منطقية، والكوارث الغير متوقعة . أما الواقعيون من جهة أخرى هم المخترعين والمبتكرين الحقيقيين. إنهم رجال ونساء ذوو مخيلة، ولكنها مخيلة على صلة وثيقة ببيئتهم وبالواقع، هم علماء تجريبيون، وكُتّاب يتمتعون بفهم دقيق لطبيعة الإنسان أو رؤساء يقودوننا بحكمة في الأزمات. وأيضا أقوياء بما فيه الكفاية ليروا العالم كما هو بما في ذلك عيوبهم الشخصية.

دعونا نأخذ هذا الأمر أبعد من ذلك، إن الشعر والجمال الحقيقي في الحياة ينتج عنه علاقة شديدة بالواقع في جميع جوانبه. وفي الحقيقة إن الواقعية هي القيمة العليا التي يجب أن نطمح لها والتي تمثل أرفع مستوى للعقلانية الإنسانية.

الأشخاص الذين يتعلقون بأوهامهم سيجدون أنه من الصعب، إن لم يكن مستحيلا أن يتعلموا شيئا يستحق التعلم : الأشخاص الذين هم بحاجة إلى بناء ذواتهم عليهم أن يجربوا كل شيء وأن يتشربوا التعلم كما تتشرب جذور الشجرة الماء.

{جيمس بالدوين}



الفصل الثاني

اجعل كل شيء خاص بك

{الاعتماد على الذات – العصامية}

عندما تعمل لصالح الآخرين فإنك تكون تحت رحمتهم. فيمتلكون عملك وبالتالي يمتلكونك، لتصبح روحك الإبداعية مسحوقة. إنّ ما يُبقيك في مثل هذه الأوضاع هو خوفك من تحمل المسؤولية عن نجاحك أو فشلك بنفسك. بدلا من ذلك عليك أن تشعر بخوفٍ أكبر مما سيحدث لك اذا استمريت مُتّكلا على الآخرين في الحصول على السلطة. يجب أن يكون هدفك في كل مناورة تقوم بها في الحياة هو أن تجعل كل شيء خاص بك، أي أن تصنع لك زاوية بنفسك. وعندما تفعل ذلك فلك أن تخسر، وستكون متحفزا و مبدعا بشكل أكثر حيوية. حيث إن أعظم قوة في الحياة هي أن تكون معتمدا على ذاتك.

إمبراطورية المحتال

طبيعة الإنسان مصممة على نحو لا تستطيع معه السمو بشخص عاجز. وعلى الرغم من أنها يمكن أن تشفق عليه، ولكن حتى هذا لا يستمر طويلا اذا لم تظهر علامات القوة .

{فريدريك دوغلاس}

بعد قضاء فترة محكوميته في برنامج إعادة التأهيل في بروكلين بسبب جريمته الأولى كتاجر مخدرات، عاد {كرتس جاكسون} إلى الشوارع، تقريبا إلى مكانه الأول. فقد نفذت جميع الأموال التي اكتسبها خلال الأشهر القليلة الماضية كمحتال زاوية، وكان زُبناؤه المخلصين قد وجدوا تجار آخرين ليشتروا منهم.

عرض أحد أصدقاء كرتس الذي يدير عمليات كبيرة لسحق الكوكايين، عملا في تعليب المخدرات المسحوقة و سيدفع له أجر يومي لا بأس به. فقَبِل هذا الأخير العرض تحت وطأة حاجته الشديدة للمال. بعد فترة ربما يمنحه صديقه صلاحية إدارة جزء من هذه العملية مما يسمح له بإعادة تأسيس تجارته الخاصة، لكن منذ يومه الأول في العمل، أدرك أن هذا كله كان غلطة. حيث كان يعمل مع مجموعة تابعة لمُعلبين آخرين الذين هم جميعهم من التجار السابقين. أماّ الآن قد تم استئجارهم كمساعدين – حيث عليهم أن يلتزموا بالحضور في وقت محدد، ويُظهروا الطاعة لأصحاب عملهم. لم يفقد كرتس ماله فقط ولكن أيضا حريته، و هذا الموقف الجديد يتعارض مع جميع دروس البقاء التي تعلمها في حياته القصيرة حتى تلك اللحظة.

لم يعرف كرتس والده أبدا، ووالدته قتلت عندما كان في الثامنة من العمر، و تولّى جدهُ و جدته بشكل أساسي تربيته. كانا محبين ولطيفين ولكن كان لديهما الكثير من الأطفال ليرعوهم ولا يوجد وقت كاف لمنح اهتمام فردي لأيا منهم. فإذا أراد الحصول على أي نوع من التوجيه أو النصح لا يجد أحدا في حياته يمكن أن يلجأ إليه. وفي الوقت ذاته عندما يرغب في الحصول على شيء

جديد كالملابس مثلا، لم يكن يشعر بالراحة عندما يطلب من جَدَّيه ذلك، لكونهما لا يملكان ما يكفي من المال. كل هذا يعني أنه كان وحده في هذا العالم، ولم يكن باستطاعته الإتكال على أي أحد لمنحه أي شيء. كان يضطر في أن يدافع عن نفسه.

وفي منتصف الثمانينيات انفجر مُعدل الكوكايين في الشوارع، فتغير كل شيء داخل منطقته بما ف ذلك ذاته. ففي الماضي كانت العصابات الكبيرة هي المسيطرة على تجارة المخدرات، ولكي تنضم إليهم يجب أن تكون متوافقا مع نمطهم وأن تقضي سنوات من أجل الصعود ضمن تسلسلهم الهرمي. إلا أن سحق الكوكايين كان سهلا في التصنيع، وكان الطلب عليه جد مرتفع. وباستطاعة أي شخص بصرف النظر عن سنه أن يدخل اللعبة دون حاجة لرأس مال لبدء عمله الخاص، ليُمكّنه من العمل بمفرده لتحقيق أرباح جيدة. بالنسبة لهؤلاء الذين هم على شاكلة كرتس ممن ترعرعوا دون إشراف أبوي و مع ازدراءهم للسلطة، كان العمل كمحتال زاوية هو الخيار الأمثل لهم، حيث لا توجد ألعاب سياسية ولا رؤساء يخضعون لهم. وعليه فقد انضم كرتس سريعا إلى المجموعة المتنامية لمحتالي الشوارع المتعاملين في المخدرات في شوارع منطقة جنوب كوينز.

مع تقدّمه في اللّعبة، تعلم درسا أساسيا، تمثلت في المشاكل التي كان يواجهها محتالوا الشوارع التي لا حصر لها - المخبرين السريين، والمتعاملين المنافسين الماكرين، الذين يتحايلون لسلب ما لديك. فإذا كنت ضعيفا وبحثت عن آخرين لمساعدتك أو عكاز لتتكئ عليه، كالمخدرات أو الكحول، فهذا هو طريق الموت. في نهاية المطاف لن يأتي صديقك كما وعدك، أو سيكون دماغك مشوش جدا على إثر المخدرات ولن تستطيع اكتشاف أي خيانة. إن السّبيل الوحيد للنجاة هو الاعتراف والإقرار بأنك مفردك، وأن تتعلم كيف تتخذ قراراتك الخاصة وأن تثق بأحكامك. لا تسأل عما تحتاجه بل خذه واعتمد على ذكائك فقط.

كان الأمر كما لو أن المحتال الذي ولد في حيّ ضيق وسط بيئة قذرة أصبح يمتلك إمبراطورية، إن الزاوية التي يعمل عليها أو العلاقات التي يتولى إدارتها لا تقتصر على كونها أشياء مادية فقط بل إنها تمثل وقت وطاقة المحتال، ومخططاته الإبداعية وحريته في التحرك متى أراد. إذا بقي مسؤولا عن هذه الإمبراطورية سيجمع الكثير من المال وسيزدهر، أما إذا بحث عن مساعدة أو تورط في ألعاب الاخرين السياسية، فإنه يتخلى عن كل ما جناه. ففي هذه الحالة ستتفاقم الظروف السيئة للحيّ وينتهي به الأمر مُتسوّلا أو بيدقا في لعبة الآخر.

وبينما كان يجلس في تعليب المخدرات في اليوم الأول، أدرك كرتس أن ذلك يمتد إلى أبعد من مجرد ركود عرضي في حياته، حيث احتاج فيه إلى بعض المال السريع، وكانت هذه هي نقطة تحوله. فنظر إلى المعلبين الآخرين، فقد كانوا جميعا يعانون من انكماشات في الثروة، والعنف، وفترة السجن وما إلى ذلك. لقد أصبحوا خائفين ومتعبين من هذا العمل الشاق. فقد أرادوا الحصول على الراحة و أمان الراتب، وسيبقى هذا نمطا لبقية حياتهم، فبسبب خوفهم من مواجهة تحديات الحياة - سيعتمدون على أشخاص آخرين لمساعدتهم، وربما يمكن أن يستمروا على هذا النحو لعدة سنوات، ولكن يوم الطرد سيأتي عندما لا توجد هناك المزيد من الوظائف وسيكونون قد نسوا كيف يعتمدون على أنفسهم.

كان من السُخف أن يتخيل كرتس أن الرجل الذي وظفه حاليا للتعليب، سيساعده يوما ما في إقامة متجره الخاص. إن رؤسائك لا يفعلون أشياء كهذه، حتى لو كانوا أصدقائك، فهم يفكرون في أنفسهم ليقوموا باستغلالك. لِذا عليه أن يخرج الآن، فقبل أن تفلت هذه الإمبراطورية من يديه وقبل أن يصبح مجرد محتال سابق آخر يعيش على تبرعات واستحسانات الآخرين. دخل سريعا في وضعية الاحتيال الكامل ليكتشف طريقه خارج هذا الفخ.

في نهاية اليوم الأول عقد صفقة مع المُعلبين، وذلك بأن يوزع الأجرة اليومية عليهم جميعا مقابل أن يُعلِمهم كيف يضعوا كمية أقل من المسحوق في كل كبسولة مع جعلها تبدو ممتلئة (كان يفعل ذلك في الشارع لسنوات)، و عليهم بعدئذ أن يعطوا كرتس فائض المسحوق من كل كبسولة. وفي خلال أسبوع راكم كميات من المخدرات التي ستكفيه لعودة إلى الاحتيال في الشوارع وفقا لشروطه، وبعدها أقسم لنفسه أنه لن يعمل تحت إمرة شخص آخر مرة أخرى أبدا، وتفضيله للموت على أن يعمل لدى شخص ما.

تمكن كرتس بعد سنوات (الذي صار يعرف في هذه المرحلة ب فيفتي سانت) من الانضمام لعالم الموسيقى. وبعد حملته المكثفة للأشرطة المختلِطة التي لاقت نجاحا محليا في شوارع نيويورك، حصل على انتباه أيمينيم، الذي ساعده على عقد صفقة مربحة ضمن علامته الخاصة داخل أسطوانات انترسكوب.

من أجل إطلاق ألبومه الأول بعنوان {الثراء} أو {مت وأنت تحاول}، كان هناك الكثير من العمل للقيام به، لتسويق في حملته، لفيديوهاته وأعماله الفنية أخرى، وعليه فقد ذهب إلى شركة

{إنترسكوب} في لوس أنجلوس للعمل على هذه المشروعات. ولكنه كلما قضى وقتا أطول في مكاتبهم البسيطة، كلما ازداد لديه الشعور بأنه في مواجهة نقطة تحوّل أخرى في حياته.

إن اللعبة التي كان يلعبها هؤلاء المسؤولين التنفيذيين الموسيقيين بشكل بسيط : أنهم قد يمتلكون موسيقاك و ما يزيد على ذلك بكثير، حيث يرغبون في حزم الفنان ليكون بما يوافق هواهم، للتحكم في القرارات الرئيسية المتعلقة بالتسجيلات الغنائية والظهور الإعلامي. وفي المقابل يغرقونك بالمال والتشجيع. إنهم يخلقون شعورا بالعبودية، فبدون إمكانياتهم الضخمة خلفك ستكون عاجزا عن مواجهة العالم التجاري المتنافس بشراسة. في الواقع إنك تقايض المال من أجل الحرية. وبمجرد أن تستسلم فعليا لمنطقهم وأموالهم فإنك تكون قد انتهيت. انت الان ليس إلا مُعلِّب يؤدي عملا بأجر مرتفع.

وهكذا، كما فعل فيفتي سانت من قبل في وضعية الاحتيال الكامل من أجل استعادة إمبراطورتيه. وضع خلال فترة قصيرة خُططا لإطلاق فيديوهاته بماله الخاص، وخَصْخَص خططه التسويقية. بدا الأمر بالنسبة لانترسكوب توفيرا لمالهم و مواردهم، ولكنه كان بالنسبة لفيفتي سانت بمثابة طريقة خفية لاستعادة سيطرته على صورته. وكذلك أنشأ علامة تجارية موسيقية لها نمط مميز من بين الفنانين الآخرين في انترسكوب، واستعمل هذه العلامة لتعليم نفسه كافة جوانب الإنتاج الفني، و أنشأ موقعه الالكتروني الخاص حيث يستطيع اختبار الوسائل الجديدة لتسويق موسيقاه. فقد حوّل ديناميكية الاعتماد حوله باستخدام انترسكوب كمدرسة لتعليمه كيف يقوم بالأشياء بنفسه.

كل هذا كان جزءًا من اللعبة النهائية التي رسمها في ذهنه. حيث سينهي عقده مع انترسكوب، وَبدلا من إبرام عقد جديد، سيعلن انفصاله ليصبح أول فنان ينشئ علامته الموسيقية الحرة. انطلاقا من مركز قوة كهذا، لن يكون هناك المزيد من المسؤولين التنفيذيين ليسترضيهم، وأيضا بإمكانه توسيع إمبراطورتيه بشروطه الخاصة. إنها تشبه الحرية التي جربها من قبل في الشوارع ولكن على نطاق واسع.

الأسلوب الجريء

وُلِدْت وحيدا وسأموت وحيدا، ويجب عليَّ أن أفعل ما أراه صحيحا ومناسبا بالنسبة لي و ألا أعيش حياتي بالطريقة التي يريدها أي شخص آخر.

{فيفتي سانت}

لقد جئت إلى هذه الحياة بممتلكات حقيقية معينة و التي تهم فعلا أكثر من أي شيء آخر- جسدك، الوقت الذي عليك أن تعيشه، وأفكارك المميزة، و استقلاليتك. لكن بمرور الوقت تميل إلى إهمال كل هذا. فتقضي سنوات في العمل لدى آخرين الذين يمتلكونك أثناء تلك المدة فتتورط في ألعاب ومعارك الناس بلا داع، مُهدرا طاقة ووقتا لن تستعيدهما أبدا. فيصبح تقديرك لأفكارك الخاصة بالانخفاض شيئا فشيئا، حيث تستمع إلى الخبراء و تتمسك بالآراء التقليدية، ولا تدرك أنك بهذا تبدد استقلاليتك التي تجعل منك فردا مبدعا.

عليك أن تعيد صياغة مفهومك عن الملكية بالكامل قبل فوات الأوان. ولا يتعلق الأمر بامتلاك الأشياء أو المال أو الألقاب فهذه أمور يمكنك الحصول عليها بوفرة، ولكن إذا كنت فردا مُعتمدا على الآخرين لطلب المساعدة والتوجيه أو اعتمادك على أموالك أو مواردك، فإنك غالبا ستخسر ما لديك عندما يخذلك الآخرون أو تصيبك محنة أو تتوصل إلى مخططات حمقاء ناتجة عن نفاذ الصبر. إن خاصية الملكية الحقيقة يمكنها أن تأتي فقط من داخلك. إنها تأتي من احتقارك لأي شيء أو أي شخص قد يُقيّد حريتك، ويُقيّد ثقتك في قراراتك الخاصة، و أيضا هذه الخاصية تأتي من استغلال وقتك في السعي المستمر للتعليم والتحسين.

فقط من خلال هذا الوضع الداخلي من هذه القوة ومن اعتمادك على ذاتك، ستمكنك من العمل بنفسك ولن تتراجع أبدا. إذا ظهرت حالات تُرغِمك على اتخاذ شركاء أو التنسيق مع منظومة أخرى، فإنك تكون قد هيأت نفسك ذهنيا للحظة التي ستتحرك فيها إلى أبعد من هذه العلاقات المتشابكة المؤقتة. إذا لم تمتلك ذاتك أولا، فستبقى تحت رحمة الناس وتحت رحمة الظروف، متطلعا إلى الخارج بدلا من الاعتماد على نفسك و على ذكائك.

افهم هذا : نحن نعيش وسط ثورة أعمال حرة مقارنة بتلك التي اجتاحت حي فيفتي سانت في الثمانينات، بل التي اكتسحت ما هو أبعد من ذلك على نطاق واسع. حيث قد انهارت مراكز القوة القديمة، وأصبح الأفراد في كل مكان أكثر رغبة في السيطرة على مصائرهم، وأقل احتراما للسلطة التي لا تستند على ميزة معينة وإنما على شيء من السطوة والقوة. جميعنا نتساءل بشكل تلقائي لماذا يحكمنا شخص ما، ولماذا يعتمد مصدر معلوماتنا على وسائل الإعلام الرئيسية الحالية وغيرها من التساؤلات. ولم نعد نقبل ما كنا نقبله في الماضي.

نحن جميعا مُزوّدين فطريا بإمكانية تشغيل مشاريعنا الخاصة وتجربة هذه الحرية بأية صيغة كانت. نحن جميعا محتالي زاوية في بيئة اقتصادية حديثة، ولكي نتمكن من النمو فيها علينا أن نزرع في أنفسنا ذلك النوع من الاعتمادية والعصامية التي ساعدت في دفع فيفتي سانت لتجاوز جميع التبعيات الخطيرة التي هددته على طول الطريق.

بالنسبة لفيفتي كان الأمر واضحا، كان وحيدا في المنزل الذي ترعرع فيه وكذلك في الشوارع. فافتقد للمساندة المُعتادة، لذلك اضطر أن يكون مكتفيا بذاته. فقد كانت العواقب المترتبة على الاعتماد على الناس في مثل حالته أشد خطورة، فهي تعني إحباطا دائما و احتياجات ضرورية لن تتم تلبيتها. يصعب علينا أن ندرك بأننا وحيدون بشكل أساسي في هذا العالم وأننا بحاجة إلى المهارات التي كان على فيفتي أن يطورها لنفسه في الشوارع. فبحوزتنا عوامل مساعدة تبدو كافية لدعمنا، إلا أن هذه المساعدات ليست في النهاية إلا وهم.

كل شخص في العالم محكوم بمصلحته الشخصية، حيث من الطبيعي أن يفكر الناس أولا بأنفسهم وبمخططاتهم. وإن إيماءات المساعدة الحنونة العرضية من الأشخاص الذين تعرفهم تؤدي إلى تشويه هذا الواقع فتجعلك تتوقع المزيد من هذا الدعم، إلى أن يتم خُذلانك مرارا و تكرارا. لذلك فأنت أكثر وحدة مما تتصور، ولكن لا يجب أن يكون ذلك مصدرا للخوف بل مصدرا للحرية. عندما تثبت لنفسك بأنك قادر على الحصول على الأشياء بمفردك ستختبر إحساسا بالتحرر، ولن تنتظر الناس ليقوموا لك بهذا أو ذاك (تكون عادة تجارب مغيظة ومحبطة). وستتمتع بالثقة بقدرتك على التعامل مع أي وضع سلبي بنفسك.

أنظر الى شخص مثل روبين {إعصار كارتر}، وهو ملاكم ناجح من ذوي الوزن المتوسط، وجد نفسه معتقلا في سنة 1966م، وهو في ذروة حياته المهنية حيث اتهم بثلاث جرائم قتل. ففي السنة التالية أدين وحكم عليه بثلاث عقوبات متتالية مدى الحياة، وأثناء ذلك تمسك كارتر ببراءته بشدة. وفي عام 1986م، تمت تبرئته من الجرائم بصورة نهائية وإطلاق سراحه. ولكن خلال تلك السنوات التسع عشرة، كان عليه أن يتحمل واحدة من أكثر البيئات الوحشية التي عرفها الإنسان، والتي صُمّمت لتحطيم آخر ما تبقى من استقلاليته.

كان {كارتر} يعلم بأنه سيتحرر يوما ما، ولكن عند خروجه هل سيمشي في الشوارع بروح سحقها السجن لسنوات ؟ هل سيصبح من نوعية السجناء السابقين الذين يستمرون في العودة إلى النظام نفسه لعدم قدرتهم على عمل أي شيء لأنفسهم مرة أخرى ؟

قرر أنه سيهزم النظام، حيث سيستخدم السنوات التي يقضيها في السجن ليطور عصاميته، وبذلك فإنه عندما يخرج فإن هذا سيعني له شيئا. لهذا الغرض ابتكر الاستراتيجية التالية : سيتصرف كرجل حر بينما هو محاط بالجدران، ولن يرتدي تلك البدلة الرسمية أو يحمل شارة الهوية الشخصية. اعتبر نفسه فردا وليس رقما. ولن يأكل مع بقية السجناء ولن يقوم بالمهام المُوكّلة إليه، كذلك لن يذهب إلى جلسته الخاصة بالإفراج المشروط. وكان قد تم وضعه في محبس انفرادي خاص بنوعية التهم التي حكم عليه بها، ولم يكن خائفا من العقوبات أو البقاء وحيدا بل كان خوفه فقط من خسارة كرامته وتفرده.

كجزء من هذه الاستراتيجية، رفض استخدام وسائل الترفيه المعتادة في زنزانته - كالتلفاز، والمذياع والمجلات الإباحية، كان يعلم أنه سيصبح معتمدا على هذه المتع الضعيفة مما سيمنح الحراس شيئا يأخذوه من ذاته، كما أن هذه الملهيات مجرد محاولات لقتل الوقت. بدلا من ذلك أصبح قارئًا نهمًا للكتب التي ستساعده على تقوية عقله. وقد كتب سيرة ذاتية اكتسبت التعاطف مع قضيته، وقد علّم نفسه القانون، وعقد العزم على تغيير قناعته بنفسه. وقام بتدريس بقية السجناء أفكاره التي تعلمها من خلال القراءة الكتب. وبهذه الطريقة استغل الوقت الضائع في السجن لأهدافه الخاصة.

عندما أُطلق سراحه في نهاية المطاف، رفض رفع دعوى مدنية ضد الدولة استنادا لكونه سُجن ظُلما و أَحقيته في طلب التعويض، لم يكن بحاجة لشيء. إنه الآن رجل حر مزود بمهارات

أساسية لاكتساب القوة في العالم. فبعد خروجه من السجن أصبح محاميا ناجحا عن حقوق السجناء وحصل على العديد من الدرجات العلمية الفخرية في القانون.

فكر في الأمر بهذه الطريقة: إن عادة الاعتماد على الغير يسهل اكتسابها. فنحن نعيش ضمن ثقافة توفر لنا جميع أنواع الركائز للاعتماد عليها، كلجوئنا إلى خبراء في مجال ما، و إلى عقاقير لعلاج أي قلق نفسي، وإلى ملذّات متنوعة لمساعدتنا في قضاء أو قتل الوقت، ووظائف بالكاد تكفي لإبقائنا أحياء. إنه وضع يصعب مقاومته، ولكن بمجرد أن تستسلم له فإنه يصبح كسجن تدخله ولا تستطيع مغادرته أبدا. فتستمر في النظر إلى الخارج لطلب المساعدة إلّا أن ذلك يُقيّد خياراتك و حريتك بشدة. و عندما يحين الوقت الذي يتوجب عليك فيه أن تتخذ قرارا هاما وهو "آت لا محالة"، فلن تجد في ذاتك شيئا ترتكز عليه.

قبل أن يفوت الأوان، عليك أن تتحرك في الاتجاه المعاكس. ولا يُمكنك أن تحصل على هذه القوة الداخلية المطلوبة من الكتب أو مُعلم أو عقاقير من أي نوع، بل هي تأتي منك فقط. إنها نوع من التمارين التي يجب أن تمارسها بشكل يومي، عن طريق فصل ذاتك عن التبعيات والاستماع إلى صوتك الداخلي أكثر من أصوات الآخرين، وتنمية مهارات جديدة. كما حدث مع كارتر وفيفتي، وستجد أن الاعتماد على الذات يصبح عادة ، وأن أي شيء ينم عن الاعتماد على الآخرين سيخيفك.

مفاتيح الجرأة

أنا المالك لقوتي، وأكون كذلك عندما أعرف أن ذاتي مميزة.

{ماكس سترينر}

عندما كنا أطفالا واجهنا مُعضلة. بدأنا الحياة كمخلوقات عنيدة لم يتم ترويضها بعد، حيث أردنا وطلبنا أشياء لأنفسنا، وعرفنا كيف نحصل عليها من البالغين حولنا. ومع ذلك، في الوقت نفسه، كنّا معتمدين كليا على والدينا في الكثير من الأشياء المهمة - كالراحة والحماية والحب والتوجيه.

وعليه فقد طورنا نوعا من الازدواجية بداخلنا : أردنا الحرية والقوة للتحرك بمفردنا، ولكننا أيضا عشقنا الراحة والأمان اللذين لا يمكن إلا على الآخرين فقط منحه لنا.

في مرحلة المراهقة، تمردنا على الجزء الاستقلالي من شخصيتنا، حيث أردنا تمييز أنفسنا عن آبائنا وأن نظهر بأننا قادرون على الدفاع عن أنفسنا. لقد كافحنا من أجل تشكيل هويتنا وعدم الرجوع ببساطة إلى قيم آبائنا. ولكن مع تقدمنا في العمر تميل ازدواجية الطفولة تلك إلى العودة للظهور على السطح. في مواجهة الكثير من المصاعب والتنافس في عالم الكبار، فيَحنّ جزء منا إلى العودة إلى وضع التبعية الطفولي هذا. فنحافظ على مظهرٍ راشد ونعمل على اكتساب القوة لأنفسنا، ولكننا في أعماقنا نتمنّى سرّا لو أن أزواجنا أو شركاؤنا أو أصدقاؤنا أو رؤساءنا في العمل يعتنوا بنا ويقوموا بحل مشاكلنا.

علينا أن نشنّ حربا شرسة ضد هذه الازدواجية المُتأصلة فينا، مع فهم واضح لما هو على المحك. مهمتنا كبالغين هي التملك الكامل لاستقلاليتنا وفرديتنا التي وُلدنا بها، و أن نتجاوز نهائيا مرحلة الاتكالية في الطفولة ونقف بأنفسنا. ويجب أن ننظر إلى الرغبة في العودة إلى تلك المرحلة بأنها مرحلة رديئة وخطرة، فهي تنبع من الخوف من تحمل مسؤولية نجاحنا أو فشلنا، من الاضطرار إلى التصرف بأنفسنا واتخاذ القرارات الصعبة. وغالبا ما نُغلف هذه الرغبة بمظهر مناقض لها - عن طريق العمل لدى الآخرين، وبأن نكون مطيعين، ومتوافقين، أو ندمج شخصيتنا في المجموعة، لنكون أشخاصا جيدين. ولكن ليس هذا إلا خوفنا يتكلم ويخدعنا. فإذا استسلمنا لهذا الخوف سنقضي بعدئذ حياتنا ونحن نبحث خارجا عن خلاص ولن نجده أبدا ، وسنقتصر فقط على الانتقال من تبعية لأخرى.

بالنسبة لمعظمنا، العقبة الكبرى في هذه الحرب هي عالم العمل. يدخل أغلبنا حياة الرشد مع طموحات عظيمة حول كيفية إنشاء مشاريعنا الخاصة، إلا أن قسوة الحياة تسحقنا. فنستقر في وظيفة معينة، ثم نستسلم تدريجيا لوهم أن رؤساءنا في العمل يهتمون بنا وبمستقبلنا، وأنهم يقضون الوقت في التفكير فيما هو خير لنا. فننسى الحقيقة الجوهرية بأن البشر تحكمهم المصلحة الشخصية. حيث يحتفظ بنا رؤساءنا في العمل بدافع الحاجة لا العاطفة، وسيتخلصون منا في الوقت الذي تقل فيه هذه الحاجة، أو سيجدون شخصا أصغر منا وأقل تكلفة ليحل محلنا. إذا

استسلمنا للوهم و الراحة المتأتية من الراتب، فإننا نهمل بناء مهارات الاعتماد على الذات، فنقوم فقط بتأجيل لحظة الحسم إلى الوقت الذي نجبر فيه إلى إعالة أنفسنا.

يجب أن تكون حياتك تقدّماً باتجاه الملكية، أولا أن تكون مستقلا ذهنيا عن طريق فرديتك، ثم ماديا عن طريق عملك، بأن تملك ما تنتجه. فكر في الخطوات التالية كنوع من المخطط حول كيفية السير في هذا الاتجاه.

الخطوة الأولى: استرجع الوقت الضائع

عندما كان {كورنيليوس فاندربيلت} (1794 - 1877) في الثانية عشرة من عمره، أُجبر على العمل مع والده في تجارته الصغيرة في الشحن. كان العمل شاقا وقد كرهه. وكان كورنيليوس طفلا عنيدا وطموحا، ولذلك قرر في ذهنه القرار التالي: خلال بضع سنوات سيؤسس مشروع شحن خاص به. غيّر هذا القرار البسيط كل شيء . فأصبح عمله الآن وظيفة تدريبية عاجلة له، فاضطر أن يبقي عينيه مفتوحتين ويتعلم كل ما يستطيعه عن تجارة أبيه بما في ذلك كيف تعمل الأشياء بصورة أفضل. بدلا من كونه عملا بليدا أصبح الآن تحديا ممتعا بالنسبة له.

في عمر السادسة عشرة اقترض مئة دولار من والدته. واستخدم المال لشراء قارب وبدأ بنقل الركاب بين مانهاتن و جزيرة ستاتن. تمكن خلال سنة من سداد القرض . في الوقت الذي كان فيه في الحادية والعشرين، كان قد حقق ثروة صغيرة و في طريقه ليصبح أغنى رجل في عصره. من خلال هذه التجربة أسس شعاره لمدى الحياة :[لا تكن تابعا أبدا ، دائما كن المالك].

الوقت عامل جوهري في حياتنا، وهو أثمن مواردنا المهمة. إن المشكلة عندما نعمل لدى الآخرين هو أن الوقت المخصص لهم يصبح غالبا وقتا ضائعا نرغب في قضاءه بأسرع ما يمكن، الوقت الذي ليس لنا. كل واحد منا تقريبا يبدأ حياته المهنية بالعمل لدى الآخرين، ولكن يبقى في مقدورنا تحويل هذا الوقت من شيء ميت إلى شيء حي. فإذا عزمنا على فعل ذات الأمور التي عزم عليها فاندربيليت (أن تكون مالكا لا تابعا)، فإن هذا الوقت سيُستخدم لتعلم أكبر قدر ممكن عن ماذا يحدث حولنا - الألاعيب السياسية ، الثغرات في مغامرة معينة، اللعبة الكبرى التي تجري في عالم التجارة، وكيف نستطيع عمل الأشياء بصورة أفضل. علينا أن نُوجّه انتباهنا

ونتشرّب أكبر قدر ممكن من المعلومات. فسيساعدنا هذا على تحمل العمل الذي لا يبدو مجزيّا للغاية. بهذه الطريقة، سنمتلك وقتنا وافكارنا قبل امتلاكنا لمشروع تجاري

تذكر هذا : يُفضل رؤسائك إبقائك في مناصب تابعا لهم. لأن من مصلحتهم ألا تكون معتمدا على ذاتك، لذا سيميلون إلى إخفاء المعلومات عنك. ويجب عليك أن تعمل سرا ضد هذا وتأخذ تلك المعلومات لنفسك.

الخطوة الثانية: أنشئ إمبراطوريات صغيرة

أثناء عملك لدى الآخرين يجب أن يكون هدفك في مرحلة معينة تكوين إمبراطوريات صغيرة تعمل فيها لحسابك، ومن أجل تنمية المهارات العملية في ريادة الأعمال. قد يعني هذا أن تعرض تولي مهمة إكمال المشاريع التي لم يُكملها آخرون أو تطبيق أفكار جديدة من عندك ولكن لا تبالغ جدا لكي لا تثير الشك. ما تفعله هو تنمية خبرة عمل الأشياء بنفسك و اتخاذ قراراتك الخاصة والتعلم من أخطاءك. فإذا لم يسمح لك رؤساءك بفعل هذه الخطوة على أي مستوى، فأنت لست في المكان الصحيح. وإذا فشلت هذه المغامرة فإنك تكون قد حصلت على درس ثمين، ولكن عموما يؤدي اتخاذ المبادرة بعمل هذه الأشياء بنفسك إلى اجبارك على العمل بشكل أفضل وبجدية أكبر، فتصبح متمتعا بإبداع ودافعية أشد بسبب وجود الكثير من الأشياء على المحك نتيجة لقيامك برفع مستوى التحدي.

ضع في اعتبارك ما يلي: إن ما تقدره فعلا في الحياة هو الملكية وليس المال. إذا كان هناك خيار ما بين المزيد من المال أو المزيد من المسؤوليات فعليك دائما أن تختار الخيار الأخير. إن الوظيفة ذات الأجر الأقل والتي تمنحك مساحة ووقتا أكبر لاتخاذ قرارات وتكوين إمبراطوريات صغيرة، هي أفضل وبشكل لا يقارن من شيء يدفع لك المال جيدا ولكنه يقيد تحركاتك.

الخطوة الثالثة: تحرك لأعلى السلسة الغذائية

في عام 1499م، تمكن البابا ألكسندر السادس من وضع إمارة لابنه سيزار بورجيا، في منطقة رومانيا في إيطاليا. ولم يكن ذلك سهلا، حيث كانت جميع أنواع القوى المتنافسة تتنافس للسيطرة على الدولة - عائلات التي تتصدر المشهد السياسي، وملوك الدول الأخرى الذين يتحايلون لتولي

السيطرة على مناطق معينة، والأقاليم المتمتعة بمساحات من التأثير، وأخيرا الكنيسة ذاتها. ولتأمين رومانيا لابنه كان على البابا أن ينتصر على أقوى عائلتين في إيطاليا و أن يتحالف مع الملك لويس الثاني عشر، بالإضافة إلى تكوين جيش من المرتزقة.

كان سيزار بورجيا شابًا داهية. كان هدفه هو التوسع خارج رومانيا، وتوحيد إيطاليا كلها، مما يجعلها قوة عظمى. إلا أن وضعه الآن متوقف على العديد من القوى الخارجية المتحكمة بمصيره، وكل واحدة منها أشد من الأخرى - حيث الجيش موالي للأسر القوية وللملك الفرنسي، و كذلك البابا نفسه الذي قد يموت في أي وقت ويتم استبداله بشخص معاد لبورجيا. هذه التحالفات قد تتغير وتنعكس ضده، لذلك عليه أن يقضي على تلك التبعيات واحدة تلو الأخرى إلى أن يتمكن من القيام بنفسه دون أحد يعلوه.

باستخدامه للرشوة، وضع نفسه على رأس زمرة الأسرة الذي كان والده قد تحالف معه، ثم تحرك ليقضي على عدوه الرئيسي. وعمل على التخلص من جيش المرتزقة وإنشاء جيش خاص به، كذلك تحايل من أجل عمل تحالفات توفر له الحماية في مواجهة ملك فرنسا الذي اعتبره الآن كخطر. واستحوذ على المزيد والمزيد من الأقاليم، وكان على وشك توسيع قاعدته إلى نقطة اللآعودة إلى أن سقط مصابا بمرض خطير في عام 1504م. بعد ذلك بفترة قصيرة توفي والده وتم استبداله سريعا ببابا آخر الذي عزم على أن يوقف سيزار بورجيا. من يدري إلى أي مدى كان يمكن أن يحصل إذا لم تنحل خططه بسبب مثل هذه الظروف غير المتوقعة.

كان سيزار بورجيا رائدا عصاميا سابقا لعصره. فقد أدرك أن البشر هم مخلوقات سياسية، تتحايل باستمرار للحفاظ على مصالحها. إذا قمت بتكوين شراكات معهم أو اعتمدت عليهم من أجل تطورك وحمايتك، فإنك تسعى لورطة. وسينقلبون عليك في وقت ما أو سيستخدمونك كمخلب القط للحصول على ما يريدون. ويجب أن يكون هدفك في الحياة هو أن تنتقل بشكل تدريجي من المجموعة المستهلكة إلى المجموعة المُنتجة من السلسة الغذائية وذلك بأن تسيطر وحدك على وجهة مشروعك، غير معتمد على أحد. نظرًا لأن هذا الهدف مثالي في المستقبل، حيث عليك أن تسعى جاهدا في الحاضر الحفاظ على نفسك حرا من أية تشابكات وتحالفات غير الضرورية. إذا لم تستطع تجنب الشراكات، فكن على بينة من العمل الذي يؤدونه لك وكيف تتحرر منهم في اللحظة المناسبة.

يجب أن تتذكر بأنه عندما يمنحك الناس أشياءً، أو يصنعوا لك معروفا، فإن ذلك دائما ما يكون مُرفقا بقيود. فهم يريدون شيئا منك في المقابل – كإسداء العون، أو ولاء دون شك فيه وما إلى ذلك. ولترغب في أن تبقي نفسك حرا من أكبر قدر ممكن من هذه الالتزامات، عليك أن تعتد على أخذ ما تحتاجه لنفسك بدلاً من توقع ما سيمنحه لك الآخرون.

الخطوة الرابعة: اجعل مشروعك انعكاسا لشخصيتك

إن حياتك كلّها عبارة عن عملية من التعلم، في تطوير المهارات والاعتماد على الذات اللازمة لإنشاء مشروعك الخاص لتصبح رئيسا لنفسك. ولكن هناك عائق أخير يعترض تحقيق ذلك. وهو ميلك إلى النظر نحو ما حققه الآخرون في مجالك لتحاول ببساطة تكرار أو محاكاة نجاحهم. وقد تتمكن من اكتساب بعض القوة من هذه الاستراتيجية، لكنك لن تمضي بها بعيدا ولن تدوم.

افهم هذا: أنت فريد من نوعك، وخصائصك الشخصية هي نوع من مزيج كيميائي لن يتكرر أبدا في التاريخ. هناك أفكار مميزة لك و أنماط و مواصفات محددة التي تُكوّن نقاطا لقوتك وليس نقاطا لضعفك. ويجب ألا تخاف من تفرُّدك وألا تكترث بما يعتقده الناس عنك.

هذا هو مسار أقوى الأشخاص في التاريخ. حيث كان موسيقي الجاز العظيم مايلز دايفز مدفوعا دائما خلال حياته لتكييف إيقاعه وفق نمط محدد لجمهوره في ذلك الوقت، إلا أنه أصر على المحافظة على وضع بصمته الخاصة على أي شيء يعزفه. ومع تقدمه في العمر أصبح أشد إصرارا حتى أحدث ثورة في عالم الجاز بفضل ابتكاراته المستمرة في الإيقاع. عند نقطة معينة توقف ببساطة عن الاستماع للآخرين.

رفض جون إف كينيدي إقامة حملة مثل فرانكلين ديلانو روزفلت أو غيره من السياسيين الأمريكين في الماضي، بل صنع أسلوبه الخاص الفريد استنادا للأوقات التي مر بها و شخصيته المميزة. عن طريق المضي في مساره الخاص، غير إلى الأبد مسار الحملات السياسية .

هذا التّفرّد الذي تعبر عنه ليس شيئا جامحا أو غريبا جدا، بل هو مؤثر بذاته. نادرا ما يكون الناس بهذا الاختلاف. فكلما كنت كما أنت، كلما أمكنك القيام بذلك. ولا يسع العالم إلا أن يستجيب لمثل هذه الأصالة.

مخالفة المفهوم

قد نعتقد أن الأشخاص المستقلين الذين اعتادوا أن يكونوا بمفردهم على أنهم مُنعزلون ومُعقدون ومن الصعب التواجد حولهم، ونميل وفق ثقافتنا إلى تقدير أو رفع من شأن أولئك الذين لديهم ملكة التحدث بانسيابية، وهم أكثر انقيادا للجماعة، ويتطابقون أكثر مع معايير معينة. كما أنهم يبتسمون ويبدون أكثر سعادة. وهذا تقييم سطحي للشخصية . فاذا عكسنا المفهوم ونظرنا إلى ذلك من زاوية الجرأة فسنصل إلى نتيجة مناقضة.

إن الأشخاص الذين يتمتعون بالاكتفاء الذاتي هم عموما من النوعيات المرتاحة مع نفسها، لا يبحثون عن الاشياء التي يحتاجونها من الآخرين. ومن المفارقات أن هذا يجعلهم أكثر جاذبية وإغراءا. حيث نتمنى لو كنا أكثر مثل هؤلاء رغبةً في البقاء حولهم، متمنين بعضا من خصال استقلاليتهم التي يمكن أن تحفزنا.

إن الفئات المتشبثة والمحتاجة وحتى الأنواع الأكثر اجتماعية منها، غالبا ما تدفعنا بعيدا عنها بشكل لا واع. نحن نستشعر حاجتهم للراحة والتقدير ونرغب سرا أن نقول لهم "احصل عليه بنفسك - توقف عن كونك ضعيفًا جدًا وتعتمد عليه".

يبدي هؤلاء العصاميون للناس "من واقع قوتهم " رغبة في شراكات ممتعة أو تبادل أفكار. إذا لم يفعل الآخرون لهم ما طلبوه أو توقعوه، فإنهم لا يُجرحون ولا يَشعرون بالخذلان. حيث تأتي سعادتهم من الداخل وهذا هو السبب الأكثر عمقا لكل ما سبق.

وفي الختام، لا تنخدع بثقافة السهولة، حيث ستحاول كتب المساعدة الذاتية والخبراء إقناعك أنه يمكنك الحصول على ما تريده باتباع بضع خطوات بسيطة . لأن الأشياء التي تصل إليها بسهولة وبشكل أسرع سوف تتركك بنفس السرعة. إن السّبيل الوحيد لاكتساب العصامية أو أية قوة أخرى هو من خلال الجهد الكبير والممارسة. ويجب أن لا تنظر إلى هذا الجهد كشيء قبيح أو ممل، لأنها عملية الحصول على السطوة لنفسك وهي الأكثر اشباعا على الإطلاق، مع العلم أنك من خلال خطوة بخطوة سترفع ذاتك تدريجيا فوق الجماهير التبعية.

هناك وقت في مرحلة تعليم كل شخص يتوصل فيها إلى قناعة بأن.... التلقين هو انتحار. على الرغم من أن الكون مليء بالنعم، لا توجد نواة واحدة لذرة ذات قيمة غذائية تأتي إليه، وإنما عن طريق النعم البديلة على قطعة الأرض المعطاة له حتى الآن. القوة التي تكمن فيه جديدة في طبيعتها، ولا أحد غيره يعرف ما الذي يستطيع أن يفعله، ولن يعرف شيئا حتى يُجرّبه أولا.

{رالف والدو امرسون}



الفصل الثالث

حول القذارة إلى شيء حُلو

الانتهازية

كل موقف سلبي ينطوي على احتمال وجود شيء إيجابي، كفرصة مثلا، حيث يتعلق الأمر بكيفية رؤيتك لها. قد يعد نقص مواردك ميزة إذ أنه يجبرك على أن تكون أكثر ابتكارا وابداعا بما تملكه. إن خسارة معركة ما ستسمح لك بتكييف ذاتك كمستضعف ودود. لا تدع المخاوف تجعلك تنتظر اللحظة المناسبة أو أن تصبح متحفظا. إذا كانت هناك ظروف لا تستطيع السيطرة عليها، فحاول أن تستغلها بأفضل طريقة ممكنة، إنها الخيمياء المطلقة لتحويل كل هذه السلبيات إلى مزايا و قوة.

الغلاف الخيميائي

إذا كان الشخص غالبا ما يرفض النجاة دائما من أسوأ ما تجيء به الحياة، فإنه يكون محكوما بالخوف مما قد تأتي به الحياة.

{جيمس بالدوين}

لأكثر من عام ، كان فيفتي سانت يعمل فيما يفترض أن يكون ألبومه الأول - قوة الدولار، الذي أصبح أخيرًا في ربيع عام 2000 ، جاهزًا للإصدار من قبل شركة كولومبيا للتسجيلات.، وقد مثلت له كل المصاعب التي عاشها في الشوارع، والتي تمنّى بأنها ستغير حياته للأفضل. ففي مايو من ذلك العام وقبل أسابيع قليلة من تاريخ إصداره، قام قاتل مأجور بإطلاق تسع رصاصات عليه أثناء جلوسه في المقعد الخلفي من السيارة، فاخترقت إحدى الرصاصات فكه وكانت على وشك قتله.

خلال برهة، تغيرت كل الأمور التي بناها بنفسه والتي كانت قوة دافعة له، حيث ألغت كولومبيا للتسجيلات إصدار ألبومه وأنهت التعاقد مع فيفتي. حيث اقترن اسمه بعنف شديد وكان ذلك شيئا سيئا فيما يتعلق بالأعمال. فأصبحت بعض الاستفسارات أمرا واضحا بالنسبة إليه حيث أن بقية العلامات الغنائية شعرت بالشيء نفسه تجاهَهُ، لقد كان يتم استبعاده عن هذه الصناعة. فقد أخبره أحد المسؤولين تنفيذيين بشكل قاطع انه يجب عليه الانتظار لمدة عامين على الأقل قبل أن يفكر في إحياء مهنته.

كانت محاولة الاغتيال من بقايا أيامه السابقة كتاجر مخدرات، لم يتمكن القتلة من السماح له بالبقاء على قيد الحياة وسيحاولون إنهاء مهمتهم. فقد كان على فيفتي أن يحتفظ بتقدير منخفض لاسمه الفني، وفي الوقت ذاته ليس لديه مال ولا يمكنه العودة إلى احتيال الشوارع. حتى اصدقاءه العديدون الذين كانوا يرغبون بأن يصبحوا جزءا من نجاحه كمغني راب بدأوا يتجنبونه.

خلال عدة أسابيع قليلة كان أمره قد انتهى من أجواء الشهرة والفرصة للوصول إلى القمة، ويبدو أنه لا طريق للخروج من الزاوية التي وجد نفسه فيها. فهل ستكون هذه هي النهاية لجميع جهوده؟ الموت أفضل له من الإحساس بهذا الضعف. أثناء استلقائه على السرير في منزل جَدّيهِ في فترة نقاهته من الإصابة، كان يستمع بكثرة للراديو وما سمعه أعطاه اندفاعا مذهلا من التفاؤل، حيث بدأت فكرة تتشكل في ذهنه بأن حادث إطلاق النار ليس إلا نعمة مُقنعة، وأنه نجا من هذا الضيق لسبب ما.

كانت كل الموسيقى في الراديو مكررة جدا وسبق إنتاجها حتى الأمور الصعبة منها، و راب العصابات كان مزيفا كذلك. فالكلمات لم تعكس أي شيء من الشوارع التي كان يَعرفها. إن محاولة تمريرها كموسيقى واقعية وحضارية جعلته غاضبا إلى نقطة لم يستطع تحملها. وليس هذا هو الوقت المناسب ليكون خائفا أو يائسا، أو الجلوس أو الانتظار عدة سنوات إلى أن ينتهي كل العنف من حوله. لم يكن قط مغني راب مزيف، و الآن لديه تسعة جروح لرصاصات ليثبت ذلك. كانت هذه هي لحظة تحويل غضبه وعواطفه السلبية إلى حملة قوية من شأنها أن تهز أسس الهيب هوب.

تعلم فيفتي درسا أساسيا كونه كان محتال شوارع : إن الطريق إلى المال و الموارد يُعدان أمران محدودان جدا في منطقته. وعلى المحتال أن يُحول كل حدث صغير و كل موضوع هائم إلى حيلة ما لكسب النقود، و حتى أسوأ قذارة تحدث لك يمكنك تحويلها إلى ذهب اذا كنت ذكيا بما فيه الكفاية. والآن يمكن تحويل جميع العوامل السلبية التي تواجهه - قلة المال، انعدام العلاقات وثمن رأسه يمكن تحويلها إلى نقائضها لتُكوّن مزايا وفرصا. وهذه هي الطريقة التي سيواجه بها العقبات التي لا يمكن التغلب عليها والتي تبدو معترضة طريقه.

قرر الاختفاء عدة أشهر والبقاء في منزل أصدقائه، وبدأ بإعادة تكوين ذاته و مهنته الموسيقية. فعدم وجود مسؤولين تنفذيين ليسترضيهم أو يقلق بشأنهم يستطيع دفع أغانيه و موسيقاه القوية إلى أبعد حد يريده. فقد تغيّر صوته نتيجة وجود شظايا رصاصة مستقرة في لسانه، فقد أصبح له الآن نوع من البحة أو الهسهسة. كان لا يزال تحريك الفم مؤلما له، لذا كان عليه أن يغني ببطء أكثر. بدلا من محاولة استعادة صوته الطبيعي قرر أن يجعل صوته الحالي ميزة له، ليكون أسلوبه

الجديد في موسيقى الراب أكثر جرأة وتهديدا. إن هذه البحة ستُذكّر المستمعين بالرصاصة التي عبرت فكه، وسيلعب على كل هذه الأوتار.

في صيف عام 2001 عندما بدأ الناس بنسيانه، أطلق فيفتي فجأة أغنيته الأولى للشوارع. عنوانها "عليك اللعنة" وتلخص كلماتها شعوره نحو قاتله وكل شخص أراد التخلص منه. إن مجرد إخراج الأغنية كانت بمثابة رسالة كافية - أنه يتحدى قتلته صراحة وعلنا. فقد عاد فيفتي سانت مرة أخرى وعليهم إنهاء مهمتهم لكي يخرسوه. إن الغضب الواضح في صوته و اللحن العميق الصعب للأغنية جعلتها تعكس الشعور الموجود في الشوارع. لقد جاءت أيضا مع إيقاع إضافي لأنه أراد أن يبدو داعيا للمزيد من العنف، و كان على العامة أن يلتقطوا كل شيء أنتجه قبل قتله. فصنعت زاوية الحياة والموت هذه مشهدا مقنعا.

بدأت الأغنية الأن تفيض بما في داخله، حيث غذّاها بكل الغضب الذي شعر به وجميع الشكوك التي راودت الناس حوله. كما كان مستنزفا أيضا بحس الإلحاح - لأنها كانت فرصته الأخيرة لفعل ذلك، ولذا فقد عمل ليلا ونهارا لإنجازه. فأخذت أسطوانات فيفتي المنوعة تغزو الشارع بسرعة الغضب.

سرعان ما أدرك أعظم ميزة امتلكها في هذه الحملة ألا وهي إحساسه الذي بلغ به إلى القاع وليس لديه ما يخسره. استطاع هز الصناعة الغنائية والسخرية من خجلها، و قرصن معظم الأغاني المعروفة التي تُذاع في الراديو و وضع عليها كلماته الخاصة ليصنع محاكاة ساخرة منها، غير مكترث بالعواقب. فكلما فعل ذلك أكثر، استجاب جمهوره أكثر. لقد أحبوا تجاوزه للحدود، كانت كحملة صليبية في مواجهة جميع التفاهات المزيفة على الراديو، و كان الاستماع إلى فيفتي يعد مشاركة كبيرة في قضيته.

أصبح يقوم مرارا وتكرارا بتحويل كل حدث سلبي يمكن تصوّره إلى شيء إيجابي. و من أجل تعويض نقص المال اللازم لتوزيع الأسطوانات المُنوعة على المدى البعيد الواسع، قرر تشجيع المهربين على قرصنة أغانيه ونشرها كوباء فيروسي. مع استمرار المطالبة بسعرٍ على رأسه، لم يستطع تقديم حفلات أو القيام بأي نوع من الترويج العام، لكنه بطريقة ما استطاع تحويل هذا الوضع إلى أداة تسويق. حيث إن الاستماع الى أغانيه في كل مكان مع عدم القدرة على رؤيته أضاف فقط إليه هالة من الغموض والاهتمام الذي يوليه الناس له. فساهمت الشائعات وتناقل

الكلام في تشكيل هالة أخرى أسطورية حول فيفتي الذي بدوره جعل ظهوره أشد ندرة ليغذي هذه العملية.

إن هذه الميكانيكية الآن أصبحت مدمرة، لا تستطيع المضي بعيدا في نيويورك دون أن تسمع موسيقاه تنطلق من زاوية ما. بعد ذلك بفترة وجيزة طرقت إحدى اسطواناته المنوعة سمع إيمنيم، الذي قرر بأنه هذا هو مستقبل الهيب هوب وسريعا قام بتوقيعٍ على فيفتي في بدايات عام 2003 على اتفاقية مع علامة دكتور دري، و شادي أفترماث، استكمالا لواحدة من أسرع فرص إعادة البناء وأشدها لفتا للنظر في العصر الحديث.

الأسلوب الجريء

كل سلبي هو إيجابي. الأشياء السيئة التي حدثت لي جعلتها بطريقة ما جيدة. هذا يعني أنه لن تستطيع فعل أي شيء لتجرحني.

{فيفتي سانت}

الأحداث في الحياة ليست سلبية ولا إيجابية، إنها حيادية تماما. لا يكترث الكون بنيتك، إذ أنه لا يختلف الأمر بالنسبة للعنف الذي قد يصيبك أو الموت نفسه، إن الأشياء تحدث لك و حسب. وعقلك هو الذي يختار تفسيرها في أي وضع سواء سلبية أو إيجابية. لأنك تحمل عوامل من الخوف كامنة بداخلك، فإنك تتجه تلقائيا إلى تفسير العقبات المؤقتة في طريقك على أنها أشياء أكبر من ذلك - انتكاسات وأزمات.

في مثل هذا الإطار الذهني فإنك تبالغ في تقدير الأخطار. فإذا هاجمك أحدهم أو أذاك بطريقة ما، فإنك تركز على المال أو المركز الذي خسرته في المعركة، أو تركز على السّمعة السلبية أو العواطف القاسية التي نتجت عنها. هذا ما يجعلك تغدو حذرا، ومتراجعا، على أمل أن تحمي نفسك أكثر من هذه الأشياء السلبية. فقد حان الوقت القيام بنفسك و الاستلقاء والانتظار حتى تتحسّن الأمور، فانت بحاجة للسكون والأمن.

ما لا تدركه هو أنك تجعل الوضع أسوأ دون قصد، حيث يزداد خصمك قوة بقدر تراجعك، فتصبح السّمعة السيئة مرتبطة بك بقوة. ثم ينقلب التحفظ إلى عادة تنتقل فيها إلى لحظات أقل صعوبة، و يكون التحول إلى وضعية الهجوم أصعب فاصعب. في الواقع إنك تختار قولبة منعطفات الحياة الحتمية كفرص على أنها صعوبات، مما يمنحهم ثِقلا وتحملًا لا يستحقونه.

ما تحتاج لفعله، كما اكتشفه فيفتي هو اتخاذ الاتجاه المعاكس. فبدلا من أن تكون محبطا ويائسا نتيجة لأي نوع من التراجع، عليك أن ترى هذا كنداء استيقاظ، كتحدي ستقوم بتحويله إلى فرصة للقوة. حيث ترتفع مستويات طاقتك فتتحرك للهجوم مباغتا أعداءك بجرأة. وستكترث أقل لما يعتقده الناس عنك، وهذا ما يجعلهم على خلاف المتوقع فيعجبون بك، فتتحول السمعة السيئة إلى نقيضها. لا تنتظر أن تتحسّن الأمور، بل انتهز هذه الفرصة لتثبت نفسك. فعند صياغة حدث سلبي كنعمة مبطنة ذهنيا يجعلك تتخطاه بسهولة، وهو نوع من الخيمياء العقلية - أي تحويل القذارة إلى شيء حُلو.

افهم هذا : نحن نعيش في مجتمع يتسم بالازدهار نسبيّا، ولكن من نواحٍ عديدة يؤدي إلى إلحاق الضرر بأرواحنا. فنشعر بأننا فطريا نستحق الأشياء الجيدة لكوننا نتمتع بامتيازات معينة خاصة بنا في مجتمعنا. وعندما تحدث النّكسات، فإننا نعتبرها غالبا إهانة أو عقاب شخصي، فنسأل أنفسنا: "كيف يمكن لهذا أن يحدث؟". إما ان نلوم الآخرين أو أنفسنا، وفي كلتا الحالتين، نخسر وقتا ثمينا فنصبح عاطفيين أكثر من اللازم.

في أماكن مثل الأحياء الفقيرة أو أي نوع من البيئات المحرومة مادّيا، تختلف الاستجابة للمصاعب كثيرا. إن الأشياء السيئة التي تحدث هناك مفترضة كنوع من الحياة الطبيعية، كجزء من الحياة اليومية، حيث يفكر المحتال على النحو الآتي: "يجب أن أحقق أقصى استفادة مما لدي، حتى الأشياء السيئة منها، فالأمور لا تتحسن من تلقاء نفسِها. فمن الحماقة الانتظار، فالغد قد يأتي بقذارة أكثر". لو كان فيفتي سانت قد انتظر كما نصحوه، سيكون مجرد مغني راب آخر ممن يحصلون على لحظة من النجاح ثم يتلاشون سريعا، حيث سيستنزفه ظاهر الأمر في المنطقة التي كان بها.

إن عقلية المحتال هذه أكثر واقعية وفعّالية. الحقيقة هي أن الحياة بطبيعتها قاسية وتنافسية. لا يهم مقدار المال أو الموارد التي جمعتها، حيث سيحاول أحدهم أخذها منك او ستدفعك تغيرات غير

متوقعة في الحياة إلى الوراء. إنها ليست ظروف معاكسة ولكن الحياة بطبيعتها المجردة هكذا. وليس لديك وقت للخوف أو الاكتئاب، وليس لديك رفاهية الانتظار.

جميع أقوى الأشخاص في التاريخ يُظهرون بطريقة أو بأخرى هذا الموقف الجريء تجاه الشدائ، أنظر إلى جورج واشنطن، كان من ملاك الأراضي الأثرياء ولكن موقفه تُجاه الحياة قد تبلور بفعل سنوات الحرب بين بريطانيا و فرنسا و الحرب الهندية، و كذلك نتيجة العيش ضمن البيئة القاسية على حدود امريكا. ففي عام 1776م، تم تعيين واشنطن القائد الأعلى للجيش الثوري الأمريكي. بدا هذا المنصب للوهلة الأولى كلعنة. لم يكن الجيش سوى حشد شبه منظم، لم يكن لديهم تدريب، ولم يحصلوا على رواتب جيدة قليل وتجهيزاتهم ومعنوياتهم منخفضة. لم يصدق معظم الجنود حقا بأنهم يستطيعون قهر البريطانيين الأقوياء.

على مدار عام 1777م، قامت القوات البريطانية بإزاحة هذا الجيش الأمريكي الضعيف من بوسطن إلى نيويورك، إلى أن تم إجبار واشنطن في نهاية العام على الرجوع إلى نيوجيرسي. فكانت هذه هي اللحظة الأشد سوادًا في مهنته وفي حرب الاستقلال. حيث تضاءل جيش واشنطن إلى بضعة آلاف من الرجال، كان لديهم القليل من الطعام، وملابس رثة أثناء واحد من أشد فصول الشتاء قسوة في الذاكرة. كذلك تخوف مؤتمر القارة الأمريكية من كارثة وشيكة الحدوث ستتحول من فيلادلفيا إلى بالتيمور.

للتقييم هذا الوضع، يختار القائد الحذر الانتظار إلى نهاية الشتاء، لجمع المزيد من القوات مع تمني حدوث تغيير ما في الحظ. ولكن عقلية واشنطن كانت مختلفة، حيث تصور الوضع كالتالي: سيعتبر البريطانيون جيشه أضعف جدا من أن يشكل أي تهديد، ولكون ضآلة جيشه، سيتمكن من التحرك دون علم العدو، مُشِنًّا هجوما مسببا به صدمة وكأنه خارج من العدم. وسيثير التحرك للهجوم القوات حاصدا المزيد من السمعة الجيدة. استنادا للتفكير بهذه الطريقة، قرر أن يقود غارة على حامية الأعداء في ترينتون، والتي أثبتت نجاحها العظيم، وتابع ذلك بهجوم على الإمدادات البريطانية في برينستون. إن هذه الانتصارات الجريئة أسرت اهتمام الرأي العام الأمريكي وأعادت الثقة في واشنطن كقائد وفي الجيش الأمريكي كقوة شرعية.

منذ ذلك الحين شنّ واشنطن حرب عصابات ممزقا بذلك البريطانيين بالمسافات الواسعة التي يجب عليهم تغطيتها. انقلب كل شيء إلى نقيضه - قلة الأموال والخبرات قادت إلى طريقة أكثر

إبداعا في القتال، حيث أتاح له صغر حجم قواته تعذيب الخصوم بمناورات سلسة عبر التضاريس القاسية. لم ينتظر مرحلة معينة من أجل حشد المزيد من القوات أو المال أو تحسن الظروف، بل استمرّ بالهجوم بما يملكه، لقد كانت حملة كبرى للجرأة التي تحولت فيها جميع السلبيات إلى مزايا.

هذا حدث شائع في التاريخ : كل الانتصارات العسكرية والسياسية العظيمة تقريبا تكون مسبوقة بنوع من الأزمات. وذلك لأن النصر الكبير يأتي فقط في لحظة الخطر والهجوم، ومن دون هذه اللحظات لن يواجه الزعماء أي تحدٍّ، ولن تكون لديهم الفرصة لإثبات أنفسهم. فإذا كان الطريق سلسا جدا، سيصبح هؤلاء مغرورين و سيرتكبون أخطاءً مميتة. تتطلب الشخصيات الجريئة نوعا من المصاعب والمحن، ليتعوّدوا على قياس قدراتهم بأنفسهم ضدها. إن التوتر الناتج عن هذه اللحظات العصيبة سيبرز ابداعا وحس الاستعجال لديهم، الأمر الذي سيجعلهم يرتقون إلى مستوى الحدث ويعكسون اتجاه الحظ من الهزيمة إلى نصر عظيم.

يجب أن تتبنى موقفا عكس الطريقة التي يفكر ويعمل بها معظم الناس. عندما تسير الأمور بصورة جيدة، هنا بالتحديد عليك أن تبقى مهتما ويقظا. فأنت تعلم أن ذلك لن يدوم وستقع في مأزق دون أن تكون مستعدا له. ولكن عندما تسوء الأوضاع فهذا هو الوقت الذي غالبا ما تكون فيه شجاعا وجريئا. و ختاما، سيكون لديك أداة تغيُّر الاتجاه القوي، وفرصة لإثبات ذاتك، والتي تنبثق فقط من الأخطار والصعوبات التي تستطيع أن تتخطاها. فعندما تتقبل اللحظة ببساطة كشيء إيجابي وضروري فإنك تكون قد حولتها فعلا إلى فرصة ذهبية.

مفاتيح الجرأة

الزوايا في مختلف أنحاء الأرض تضُم الرّجال الذين ينتظرون، ونادرا ما يعرفون في أي طريق هم ينتظرون، ناهيك عن أنهم ينتظرون لسبب تافه. من حين لآخر فإن النداء الذي يوقظ الحادث - الذي يمنح الإذن للتصرف - يأتي متأخرا جدا، عندما تكون أفضل فترات الشباب والقوة قد استُهلكت فعلا بسبب فترات الانتظار. وقد واجه العديد منهم الرعب عندما حاولوا التغيير، و وجدوا أن أطرافهم تجمدت و أرواحهم أصبحت ثقيلة جدا. يقولون لأنفسهم "تأخر الوقت كثيرا"، فاقدين بذلك إيمانهم بأنفسهم وسيبقون منذ الآن فصاعدا وإلى الأبد عديمي الفائدة.

{فريدريك نيتشه}

تمتلك عقولنا قوى لم نبدأ حتى في الاستفادة منها. تأتي هذه القوي من مزيج من التركيز المتزايد والطاقة والإبداع في مواجهة العقبات. كل منا لديه القابلية لتطوير هذه القدرات، ولكن علينا أولا أن نكون واعين لوجودها، وهذا يصعب في ثقافتنا التي تستند إلى وسائل مادية - التكنولوجيا، المال، العلاقات - كإجابة لكل شيء. فنضع قيودا غير ضرورية على ما يُمكن للعقل إنجازه، فيصبح هذا واقعنا. أنظر إلى مفهومنا للفرصة وسترى ذلك بأوضح ما يكون.

وفقا للحكمة التقليدية، الفرصة بمثابة شيء موجود في العالم الخارجي، و إذا جاءت في طريقنا والتقطناها فإنها تجلب لنا المال والسطوة. وقد تكون وظيفة معينة أو شيئا مثاليا بالنسبة لنا، وقد تكون فرصة لتكوين مشروع ما أو الانضمام لمغامرة جديدة، أو الالتقاء بالشخص المناسب. على أي حال، يعتمد الأمر على أن تكون في المكان الصحيح وفي الوقت الصحيح للتمتع بمهارات

ملائمة للاستفادة من هذه اللحظة المباركة. فنحن نؤمن عموما بأنه يوجد قدر ضئيل من هذه الفرص الذهبية في الحياة ومعظمنا ينتظر اللحظة في انتهازها.

هذا المفهوم ذو نطاق محدود للغاية، فهو يجعلنا نعتمد على قوى خارجية. و ينبع من موقف سلبي لمشاعر الخوف من الحياة، الأمر الذي يؤدي إلى نتائج عكسية. إنه يُقيّد عقولنا بدائرة صغيرة من الاحتمالات، بينما الحقيقة بالنسبة للعقل البشري هو أن كل شيء يعترض طريقه يمكن أن يكون أداة محتملة للقوة والتوسع.

لدى الكثير منا التجربة التالية : نجد أنفسنا في وضع مُلحّ وصعب، ربما علينا أن ننجز شيئا في وقت قصير جدا بشكل مستحيل، أو أن شخصًا اعتمدنا عليه للحصول على المساعدة لكن لم يقم بتقديمها، أو نجد أنفسنا في أرض أجنبية ويجب أن ندافع عن أنفسنا فجأة. في هذه الحالات فإننا نكون مغمورين بحالة الضرورة، علينا أن ننجز العمل ونحل المشاكل بسرعة وإلا سنعاني من تبعات فورية. ما يحدث هو أن عقولنا تتحول بسرعة إلى حالة تركيز، حيث نجد الطاقة الضرورية لإنجاز الأمر، لأنه علينا أن نفعل ذلك. فنحن نولي اهتماما إلى التفاصيل التي تصعب علينا عادة ملاحظتها، لأنها قد تصنع الفرق بين النجاح والفشل، وبين الحياة والموت. فنتفاجأ بمدى ابتكاراتنا وابداعاتنا، ففي مثل هذه اللحظات، نختبر شيء يسير من تلك القوة العقلية الاحتمالية بداخلنا والتي لا تزال غير مستغلة بشكل عام، مُتمنّين التمتع بتلك الروح والاتجاه في حياتنا اليومية.

هذا الاتجاه هو ما يفضل أن نطلق عليه " الانتهازية ". لا يتطلب الانتهازيون الحقيقيون ظروفا مُلِحّة أو ضاغطة ليصبحوا واعين ومبدعين، فهم يتصرفون بهذه الطريقة بشكل يومي ويوجّهون طاقتهم العدوانية إلى تَصيّد احتمالات الانتفاع في أكثر الأحداث تفاهة وهامشية. فكل شيء هو أداة في أيديهم، وبهذا الخيال الموسع من الفرص فإنهم يصنعون المزيد منها في حياتهم، مكتسبين بذلك سلطة عظيمة.

ربما يكون الانتهازي الأكبر في التاريخ هو نابليون بونابرت. لم يفلت شيء من انتباهه، حيث ركز بكثافة عالية على جميع التفاصيل، موجِدا طُرقا لتحويل أقل جوانب الحرب أهمية إلى أدوات للقوة، مثل كيفية حمل الإمدادات والسير بها وكيفية تنظيم القوات وتقسيمها. كما استغل أتفه

أخطاء خصومه بلا رحمة. كان سيّدا في تحويل أسوأ اللحظات في المعركة إلى مادة لهجوم مضاد مدمر.

جاء كل هذا من عزم نابليون على رؤية كل شيء حوله كفرصة. بسبب بحثه عن هذه الفرص، وجدها. و أصبحت هذه مهارة ذهنية صقلها إلى فن. هذه القوة متاحة لكل فرد منا وللجميع، إذا طبقنا المبادئ الأربعة الآتية لهذا الفن.

حقق أقصى استفادة مما لديك

في عام 1704م، وجد بحار اسكتلندي يدعى ألكسندر سيلكيرك نفسه معزولًا في جزيرة مهجورة على بعد أربعمائة ميل قبالة ساحل شيلي. كل ما كان بحوزته، بندقية، وبعض البارود، وسكين وبعض أدوات النجارة. في استكشافه للمناطق الداخلية، لم يرَ سوى حفنة من الماعز، وقطط، وفئران وبعض الحيوانات غير المألوفة التي تصدر أصواتا غريبة في الليل. كانت بيئة غير صالحة للسكن، ولذلك قرر البقاء قريبا من الشاطئ والمبيت في كهف، والحصول على ما يكفي من الطعام بواسطة صيد الأسماك. إلا أنه سرعان ما أفسح الطريق لكآبة عميقة أصابته، كان يعلم أن البارود سينفذ منه، وسيصدأ سكينه، كما أن ملابسه ستتعفن عليه. ولن يستطيع العيش على الأسماك فقط، وليس لديه ما يكفي من المؤن ليستند إليها و كذلك كانت الوحدة قاتلة. مُتمنيّا لو جلب المزيد من المواد من سفينته.

ثم غزت أسود البحر الشاطئ فجأة، لقد كان موسم تزاوجها. فأصبح الآن مجبرا على دخول الجزيرة، حيث لا يمكنه ببساطة اصطياد السمك، ولا يمكنه الجلوس مكتئبا في الكهف. اكتشف سريعا أن هذه الغابة السوداء تحتوي على كل شيء يحتاجه. فقام ببناء سلسلة من الاكواخ بواسطة الخشب الداخلي، و زرع أنواعا مختلفة من أشجار الفاكهة، و علم نفسه كيفية اصطياد المعز، كما استأنس العشرات من القطط الوحشية لحمايته من الفئران، ومنح لنفسه المزيد من الرفقة التي يحتاجها، وأخذ جانبا بندقيته قليلة الفائدة وأخرج القطع المكونة لها خارجا. مُتذكّر ما تعلمه من والده الذي كان صانع أحذية، فصنع ملابسه الخاصة من جلود الحيوانات. كما لو أنه عاد فجأة إلى الحياة واختفي اكتئابه. وأخيرا تم إنقاذه من الجزيرة ولكن التجربة كانت قد غيرت كليا طريقة تفكيره. وبعد سنوات كان يذكر الوقت الذي قضاه هناك على أنه الأسعد في حياته.

معظمنا مثل سيلكيرك عندما وجد نفسه عالقًا لأول مرة - ننظر إلى مواردنا المادية ونتمنى لو كان لدينا المزيد. إلا أنه تظهر لنا احتمالات مختلفة - إدراكا أن الموارد الكثيرة لا تأتي بالضرورة من الخارج بل علينا أن نستخدم ما هو موجود لدينا بالفعل لنحقق أثرا أفضل. ما نمتلكه في أيدينا قد يكون مادة بحثية لكتاب معين، أو أشخاص يعملون ضمن منظومتنا. إذا بحثنا عن معلومات أكثر، أو أشخاص من الخارج لمساعدتنا، فلن يؤدي ذلك بالضرورة إلى شيء أفضل، بل إن الانتظار والتبعية سيجعلنا في الواقع أقل إبداعا. وعندما نعمل بما هو متوفر، نجد طرقا جديدة لاستخدام هذه المواد، فنقوم بحل المشاكل، ونطور مهارات نستطيع استخدامها مرارا وتكرارا لنبني ثقتنا. فإذا صرنا أثرياء ومعتمدين على المال والتكنولوجيا، فإن عقولنا تضمر ولن يستمر هذا الثراء.

حوّل جميع العقبات إلى فُرص

واجه الملاكم العظيم جو لويس عقبة هائلة إبّان فترة العنصرية في الثلاثينيات من القرن الماضي. كان جاك جونسون سابقا على لويس كأشهر ملاكم أسود في عصره. فجونسون كان ماهرا للغاية ويهزم خصمه الأبيض بسهولة، إلا أنه كان مقاتلا عاطفيا - حيث يواجه حشودا تُردّد: "اقتل الزنجي"، وهذا فقط ما جعله متحفزا ومليئا بالطاقة. ولذا فقد وجد نفسه في مشاكل دائمة ثم سرعان ما استنزف بسبب كل تلك العداوات.

كانت موهبة لويس لا تقل عن سلفه ولكنه أحسّ بأنه لا يستطيع استعراض او إظهار العواطف بشكل يُحرض الجماهير البيض، فيغذي بذلك الصورة النمطية للملاكم الأسود الخارج عن السيطرة الذي تفيض عواطفه و روحه القتالية، لذلك كان يستخدم ذلك في سحق خصمه. فبدلا من التمرد ضد الوضع الحالي أو التوقف، قرر لويس أن يستخدم هذا لصالحه. ولن يظهر أيّة عواطف في الحلبة. فبعد أن يهزم أحدهم، سيعود بهدوء إلى زاويته، و سيحاول الخصم والجمهور دفعه لاستجابة عاطفية ولكنه سيقاوم، بل إن كل غضبه وروحه ستذهب إلى تشكيل هذا القناع البارد المخيف. وبذلك لم يستطيع العنصريون الوقوف في وجهه. فأصبح يعرف باسم "المحنّط"، و يكفيك رؤية تعابيره المتجهّمة عندما تدخل الحلبة لتشعر بساقيك تضعفان. في الحقيقة، فقد حوّل لويس هذه العقبة لتكون قوته العظمى.

الانتهازي في الحياة يرى جميع العقبات كأدوات للقوة والسبب في ذلك بسيط : أن الطاقة السلبية التي تصيبك بصورة ما، هي طاقة يمكن عكسها لتهزم خصما وترفعك. فعندما لا يوجد هذا النوع من الطاقة فلن يكون هناك ما تدفعه أو تقوم برد فعل ضده، وسيصبح من الصعب تحفيز ذاتك. إن الخصوم الذين يؤذونك سيُعرّضون أنفسهم لهجوم مضاد تتحكم أنت بتوقيته و سياقه. فإذا صادفت السمعة السيئة في طريقك، ففكر بها على أنها نوع من التركيز السلبي الذي تستطيع إعادة صياغته لصالحك. ويمكنك أن تبدو نادما أو مصابا بانفصام في الشخصية، أيا كان الأمر فإنه سيحفزك بعمق. فإذا تجاهلت الأمر فستبدو مذنبا، أما إذا تصارعت معه فستبدو دفاعيا. ولكن إذا سرت في تيّاره، ووجّهته في اتجاهك فإنك تعكسه إلى فرصة لتركيز إيجابي. عموما فان العقبات تجبر عقلك على التركيز والبحث عن طرق ما حوله، وهي ترفع مستوى قواك الذهنية ويجب أن يكون مرحبا بها.

ابْحث عن نِقاط التّحول

توجد الفرص في أي مجال ترتفع فيه حدة التوتر، كالمنافسة ، والقلق ، و حالات الفوضى. هناك شيء مهم يجري ضمن ذلك وإذا استطعت الوقوف على السبب الخفي يمكنك عندئذ صنع فرصة قوية لنفسك.

ابحث عن أي نجاحات أو إخفاقات مفاجئة في عالم الأعمال والتي يجدها الناس صعبة التفسير، فغالبا ما تكون هذه مؤشرات التحولات الجارية تحت السطح، ربما قام شخص ما عن غير قصد بإصابة نموذج جديدة في عمل الأشياء ويجب عليك أن تُحلّل هذا. وتفحص المخاوف العظمى لهؤلاء الذين هم في أي مجال تجاري أو صناعي. وعادة ما يتم تصنيف التغييرات العميقة الجارية كشيء يَنُمّ عن مشاعر الخوف بالنسبة للذين لا يعرفون كيف يتعاملون معها. يمكنك أن تكون أول من يستغل مثل هذه التغيرات لأغراض إيجابية.

أبقِ عينيك مفتوحة لأي نوع من التغيُّر في الأذواق أو القيم. فغالبا ما يقف الأشخاص في الإعلام أو المؤسسات ضد هذه التغييرات، ويرونها على أنها كمؤشر على التراجع الأخلاقي والفوضى. فيخشى الناس كل ما هو جديد، و يُمكنك تحويل هذا إلى فرصة عن طريق إعطاء معنى لهذا الاضطراب الواضح، بتدشينه على أنه قيمة إيجابية. فأنت لا تبحث عن البدع الزائلة بل عن

التغييرات عميقة الجذور في أذواق الناس. هناك فرصة يمكنك دائما التعويل عليها وهي أن الجيل الأحدث يتفاعل ضد الأفكار البالية الخاصة بالجيل الأقدم، فإذا كانت المجموعة الأقدم تقدس العفوية والفرح، تأكد بأن المجموعة الأحدث ستعشق النظام والتدين. إن عن طريق هز قيم الجيل الأقدم قبل أي أحد آخر، تستطيع اكتساب اهتماما عظيما.

تحرك قبل أن تكون مستعدا

ينتظر معظم الناس وقتا طويلا جدّا ليقوموا بإجراء ما، وينبع ذلك عموما من الخوف. حيث يرغبون في المزيد من المال أو انتظار ظروف مواتية. فأنت يجب عليك أن تمضي في الاتجاه المعاكس وتتحرك قبل أن تظن أنك مستعد. قد يبدو بأنك تجعل الأمر أصعب قليلا على نفسك، لكنك بذلك تصنع متعمدا العقبات في طريقك لتمتحن بها ذاتك. و هذا هو قانون القوة - حيث أن طاقتك سترتفع إلى المستوى الملائم دائما، فعندما تشعر بأنك مضطر في أن تعمل بجهد أكبر للحصول على هدفك لأنك لم تتهيأ بما فيه الكفاية، فأنت تكون بذلك أكثر وعيا وإبداعا. وهذه المغامرة عليها أن تنجح وهذا ما سيحدث بالفعل.

هذا هو مسار الأشخاص العظماء منذ القدم حتى العصر الحديث. عندما واجه يوليوس قيصر أعظم قرار في حياته. عما إذا كان يجب التحرك ضد مُومبِي وشنّ حرب أهلية أو الانتظار لحين الوقت المناسب، وقف على ضفة نهر الروبيكون الذي يفصل إيطاليا عن بلاد الغال مع قواته ضئيلة العدد. مع أن ذلك القرار بدا جنونيا لضباطه، إلا أنّه حكم على اللحظة بشكل صحيح. فقد عوّض عن ضآلة عدد جنوده بمعنوياتهم المرتفعة وذكائه الاستراتيجي. ثم عبر نهر الروبيكون مفاجئا أعدائه ولم يلتفت للخلف أبدا.

عندما كان باراك أوباما يفكر في الترشح للرئاسة عام 2006م، نصحه الجميع تقريبا بانتظار دوره. فقد كان يافعا جدا وغير معروف، كما لاحت هيلاري كلينتون في المشهد أيضا. إلا أنه رمى حِكمتهم النّصوحة التقليدية بعيدا فدخل السّباق الرئاسي. ولأن كل شيء وكل شخص كان ضده، وجب عليه أن يعوض هذا بالطاقة و الاستراتيجية العالية والتنظيم. لقد ارتفع إلى مستوى الحدث بحملة بارعة حولت جميع سلبياته إلى مزايا - فقلة خبرته مثلت نوعا من التغيير .... الخ.

تذكر هذا: كما قال نابليون: {قيمة المعنويات بالنسبة للقوى المادية تعادل ثلاثة على واحد}، مما يعني أن مستويات التحفيز والطاقة التي تجلبها أنت أو جيشك إلى المعركة تعادل وزن الموارد المادية بثلاثة أضعاف. ويستطيع الإنسان مع الطاقة والمعنويات العالية تخطّي أيّة عقبة تقريبا وخلق فرص من العدم.

مخالفة المفهوم

في الاستخدام الحديث ، يُعد مصطلح "الانتهازية" بشكل عام مصطلحًا مهينًا يشير إلى الأشخاص الذين سيفعلون أي شيء من أجل أنفسهم. ليست لديهم قيم أساسية من وراء تلبية حاجاتهم ولا يساهمون بشيء في المجتمع. إلا أن ذلك يعد فهما خاطئا للظاهرة ويرجع السبب إلى النخبة القديمة التي ترغب في إبقاء الفرص كمزايا حصرية للقلة القوية. هؤلاء الذين يأتون من القاع ويَجرُؤون على الترويج لأنفسهم بأية طريقة يُنظر إليهم كمِيكافيلّيين، وبينما من يتربعون على القمة فعلا والذين يطبقون ذات الاستراتيجيات هم في نظرنا أذكياء و واسعي الحيلة. إن مثل هذه الأحكام ليس إلا انعكاسا لمشاعر الخوف لدينا.

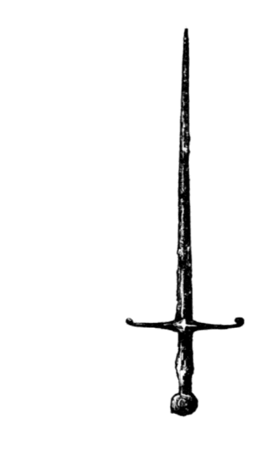
فالانتهازية في الحقيقة فن عظيم كان يُدرّس ويُطبّق في الكثير من الثقافات القديمة. فأعظم بطل في اليونان القديمة بأكملها - أوديسيوس - كان انتهازيا على أعلى مستوى. ففي كل لحظات الخطر التي مر بها في حياته، استغل مواطن ضعف أعدائه المكشوفة ليخدعهم ثم يقلب الطاولة عليهم. فقدّسه الإغريق كشخص أتقن فن تغيير ظروف الحياة، وفقا لمنظومة قيمهم. إن الأفراد الجامدين والمتمسكين بعقائد معينة ممن لا يستطيعون التكيف، والذين يُفوّتون كل الفرص هم أشخاص يستحقون ازدرائنا لهم، فهم يمنعون التقدم عنهم.

تأتي الانتهازية مع نظام عقائدي يتميز بقوته وإيجابيته، أحدهم كان معروفا لدى الفلاسفة الرواقيين في روما بِـ{أمُورْ فَاتِي} والتي تعني أحبب قَدرك، أي أن كل حدث وفقا لهذه الفلسفة كان مُقدّرا له الوقوع. عندما تتذمر وتسير ضد الظروف يختل توازنك بالنسبة للوضع الطبيعي للأشياء، حيث تتمنى لو كانت الأمور مختلفة. ما عليك أن تفعله بدلا من ذلك هو أن تتقبل حقيقة أن هذه الأحداث وقعت لسبب ما، وباستطاعتك أن ترى هذا السبب على نحو إيجابي. وقد شبّه مَارْكوس أُورّيليوس الأمر بالنار التي تلتهم كل شيء في طريقها، إذ أن جميع الظروف تصبح

مستهلكة بواسطة حرارتك الذهنية مما يحولها إلى فرص. الرجل أو المرأة اللذيْن يؤمنان بهذا لا يمكن جرحهم بأي شيء أو شخص.

بلا شك يصبح الأُمراء عظماء في حالة اجتيازهم المصاعب والعراقيل التي تعترض طريقهم. فعندما يرفع الحظ أميرا جديدا فإنه يصنع أعداء له ويجعلهم يَشنون الحملات ضده بحيث يكون مجبرا على الانتصار عليهم والقفز على درجة من السلم أعلى من تلك التي وضعوه عليها. وبالتالي يرى الكثيرين أنه على الأمير الحكيم أن يثير بمهارة بعض العداوات كلما سنحت له الفرصة، وعندئذ فإنه من خلال سحقهم سيقوي قاعدته.

{نيكولو ميكافيلي}



الفصل الرابع

استمر بالتحرك

{الزّخمُ المحسوب}

في الوقت الحاضر هناك تغيّر دائم، وكثيرا ما نعجز عن التحكم به. إذا حاولت دائما الوقوف على كل التفاصيل الكبيرة و الصّغيرة، فستخسر سيطرة أعظم على المدى الطويل. إن الحل الأمثل هو أن تدع الأمور وشأنها لتجري مع الفوضى التي تُظهر نفسها لك، ومن داخلها ستجد فرصا غير محدودة تفلت من أيدي معظم الناس. ولا تمنح الآخرين فرصة السيطرة عليك، استمر بالتحرك وغيّر مظاهرك بما يلائم محيطك. فإذا واجهت جُدرانا أو قُيودا حاول أن تجد سبيلا للإفلات منها. ولا تدع أي شيء يُفسد جريانك.

مرونة المحتال

يبقى الموسيقيين القدماء في المكان الذي هم فيه ويصبحون كالقطع الأثرية المحفوظة تحت الزجاج، آمنة وسهلة الفهم، عازفين ذات القذارات القديمة المستهلكة مِرارا وتكرارا... كانت موسيقى البِّيبوب هو التّغير والتّطور وليس الوقوف ثابتا لتحقيق الأمان. إذا أراد أي شخص أن يستمر في إبداعه فعليه أن يقبل التغير.

{مايلز دايفز}

عندما بدأ كرتس جاكسون الاحتيال في أواخر الثمانينيات، كان ذلك عالما فوضويا قد دخله. وأن سحق الكوكايين كان قد غزا الشوارع وقلب كل شيء رأسا على عقب، كما أطلق العنان الآن لمحتال الزاوية. انطلاقا من مبدأ التحرك إلى أي مكان يمكن فيه كسب المال، كان على هذا النوع الجديد من تجار المخدرات أن يتعاملوا مع عشرات المنافسين الماكرين، ومع مدمني المخدرات الضّالين، ومع زعماء العصابات القدماء الذين يحاولون تمهيد طريق عودتهم للتجارة، بالإضافة إلى الشرطة التي غزت المنطقة. فكان الأمر شبيها بالغرب المتوحش – حيث أن كل رجل يعمل لنفسه، يصنع قوانينه الخاصة أينما ذهب.

لم يستطع البعض تحمل ذلك. لأن هناك نوع يريد التنظيم وشخصا ما ليخبرهم متى ينهضون ومتى يتحركون للعمل. فلا يبقى هذا النوع مدة طويلة في ظل النظام الجديد، بينما يزدهر النوع الآخر وسط كل هذه الفوضى وفي حرية تامة. وقد كان كرتس من النوع الأخير.

ثم تغيّر كل شيء في يوم واحد، إذ قام أحد أفراد العصابات من الطراز القديم الملقب بـ{العرّاب} بممارسة السيطرة على تجارة المخدرات في منطقة جنوب كوينز، ونجح في ذلك. حيث قام بتثبيت ابنه جيرمن بجوار منطقة كرتس، وسرعان ما قام الابن ببسط القانون، وكانت عائلته أيضا موجودة لإحلال النظام في هذه التجارة. حيث سيبيع جيرمن هذه الكبسولات ذات القمة

الأرجوانية بسعر رخيص وستكون كلها بحجم واحد لا غير. ولن يستطيع أحد منافسته على أسعاره، وأي محتال سيحاول تحديه سيتم ترهيبه عن طريق التهديد بتسليمه للسلطات. فأصبح الجميع الآن يعملون لصالح جيرمن.

وجد كورتيس هذا صعب القبول. فهو لا يحب أي نوع من السلطة. فاستمر في محاولة الالتفاف على قبضة جيرمن القوية في المنطقة عن طريق بيع بضاعته الخاصة بطرق احتيالية، إلا أن جيرمن وفريق معاونيه استمروا في كشفه. وأخيرا وجّهوا له ضربة قاسية فقرر أنه من الحكمة الاستسلام إلى أن يحين الوقت المناسب.

أعجب جيرمن بروح كرتيس المستقلة، فقرر أن يضم الشّاب تحت جناحيه، ملقنا إياه ما تعلمه. حيث كان قد قضى بعض الوقت في السجن، و درس التجارة والاقتصاد هناك. فقد كان سيقوم بتسيير صناعة سحق الكوكايين وفقا لنماذج ملهمة لبعض أكثر التنظيمات نجاحا في أمريكا. فرغب في السيطرة على تجارة المخدرات المحلية من خلال الأسعار المنخفضة والاحتكار الكامل للتجارة. وهذا هو التطور الذي تبلغه المشروعات الناجحة حتى الجديدة منها مثل ميكروسوفت، حيث كان شخصيّا يكره كل الفوضى الموجودة في الشوارع، فهي ضارة بالتجارة جاعلة إياها صعبة المنال.

في أحد الأيام كان يقود سيارته الفيراري الحمراء ودعا كرتس للركوب معه في جولة. فذهب إلى مشاريع {بيسلي} الموجودة في الجوار والتي تمت استعادة السيطرة عليها من قبل {الفراعنة}، وهي عصابة مستثمرة بقوة في تجارة سحق المخدرات ومشهورة بسمعتها السيئة بسبب وسائلها العنيفة. وقد راقب كرتس ذلك بضيق متزايد، وكما بيّن جيرمن لرؤسائه مخططه لمنطقة الجوار. حيث لا يستطيع الحصول على أشخاص يعملون لصالحه و عصابات تعمل على حماية حدود إمبراطوريته، كما سيدخل الفراعنة على الخط أيضا ولكنه سيجد طريقة لجعل الأمر مربحا لهم.

أخذ غرور الرجل يزداد يوما بعد يوم. ربما سيتابع زيارته ببعض أعمال العنف ليثبت للفراعنة انه يعني ما قاله، إلا أن كرتس في الحقيقة كان لديه شعور سيء من بعد ظهر ذلك اليوم. فخلال بضعة أيام لاحقة، فعل ما بوسعه لتفادي الالتقاء بجيرمن. وبعد أسبوع قُتل جيرمن بطلقة في الرأس في أحد الأزقة الخلفية في المنطقة. والجميع يعلم من فعل ذلك ولماذا.

في الأشهر المُقبلة فكر كرتس طويلا وعميقا بما حدث. حيث كان جزء منه قد ارتبط بجيرمن، لأن هو الآخر لديه طموح عظيم، وأراد تشكيل نوع من الإمبراطورية في المنطقة. ولكن مع كل تلك المنافسة في الشوارع لن تكون هذه المهمة سهلة أبدا. فكان من الطبيعي إذن لشخص مثل جيرمن أن يقرر بأن الطريق الوحيد لبناء هذه الإمبراطورية هو من خلال القوة و من خلال تأسيس الاحتكار. إلا أن مثل هذا الجهد كان عقيما حتى لو استمر فترة أطول. فهناك الكثير جدا ممن يعملون على الهوامش رافضين هذه السيطرة وسيفعلون كل ما بوسعهم لتدميره. فالمتعاطين تَعبوا من النهج الواحد الثابت، وأرادوا التنويع، حتى لو كان التنويع في لون الكبسولات، كما لاحظت الشرطة نشاطه الواسع وحاولوا تخريبه. كان جيرمن يعيش في الماضي ضمن أفكار طُبخت في السجن في السبعينيات، فالعصر الأساسي لزعماء عصابات تجّار المخدرات، قد مر عليه الزمن، ونظرا للديناميكية القاسية في المنطقة دفع فيها ثمنا لحياته على ذلك.

المطلوب هو مجموعة مهارات جديدة، وعقلية مختلفة لإدارة الفوضى، وسيكون كرتس هو المحتال الذي سيطور هذه المهارات إلى الحد الأقصى. لهذا الغرض، تخلى عن أية رغبة في السيطرة على المنطقة من خلال عملية ضخمة واحدة، فبدلا من ذلك بدأ بالتجربة مع أربعة أو خمسة محتالين في نفس الوقت، وحتما ستعمل إحدى الزوايا فتدفع للبقية. وقد عمل على التأكد من وجود خيارات دائمة لديه، ومساحة للتحرك في حالة وجود الشرطة لكي لا تقطع أحد منافذ وصوله. كما أنه تفاعل مع المتعاطين بغرض استشعار أيّة تغيرات في اذواقهم و الطرق التي يمكن جذبهم بها بواسطة بعض أنماط التسويق الحديثة. وقد سمح لهؤلاء الذين يعملون لصالحه بأن يقوموا بأعمالهم في وقتهم الخاص طالما أنهم يُحقّقون نتائج، حيث رغب في تقليل الاحتكاك إلى أقل قدر ممكن. ولم يبق مُقيدا أبدا بمشروع واحدة أو شريك واحد أو طريقة واحدة لعمل الأشياء لفترة طويلة، بل استمر بالتحرك.

شكلت فوضى الشوارع جزءا من مرونته، وهو شيء تعلّمه من خلال استغلال العمل ضمنه. من خلال العمل بهذه الصورة استطاع تدريجيا مراكمة نوع من إمبراطورية الاحتيال التي فاقت حتى ما حاول جيرمن فعله.

في عام 2003م، وجد كرتس نفسه متجها إلى الشركات الأمريكية، عاملا ضمن اسطوانات انترسكوب ومتعاملا مع عدد متزايد من الشركات التي أرادت ضمه لها. ولكونه قادما من

الشوارع دون خلفية عمل رسمية، كان من الطبيعي أن يشعر بالرهبة في هذه البيئة الجديدة. ولكنه خلال بضعة أشهر رأى الأمور بشكل مختلف، فالمهارات الجديدة التي طورها عندما كان في الشوارع هي أكثر من كافية.

وما لاحظه بشأن رجال الأعمال الذين تعامل معهم كان أمرا صادما إلى حد ما : حيث أنهم محكومين بتلك الاتفاقيات التي بدت قليلة الحيلة إزّاء التّغيرات الهائلة التي تجري في بيئة الأعمال. وأن صناعة الأسطوانات على سبيل المثال كانت مدمرة بسبب القرصنة الرقمية، إلا أن كل ما استطاعوا التفكير فيه هو كيفية المحافظة على احتكارهم للملكية والتوزيع، لأنهم كانوا غير قادرين على التكيف مع التحولات. فقد تعاملوا مع أنفسهم فقط وليس مع قاعدة عُملائهم، لذا لم تتطور أفكارهم أبدا. كانوا يعيشون في الماضي عندما كانت كل نماذج الأعمال بسيطة وإدارتها متأتية بسهولة. لقد كانوا يتمتعون بعقلية جيرمن عن ظهر قلب، وكان فيفتي يؤمن أنهم سيعانون يوما ما مصيرا مماثلا.

وقد قام فيفتي بالإبقاء على صحة استراتيجيات الشوارع الخاصة به، حيث اختار الأوضاع المرنة و مجالا للتّحرك. وهذا يعني التفرع لمُغامرات غير تقليدية على الإطلاق بالنسبة لمغني الراب - كالمياه المُدعّمة بالفيتامين، أو كالدخول إلى مجموعة معينة من الكتب، و التعاقد مع جنرال موتورز و بونتياك. وقد بدت هذه العلاقات نوعا ما مُضطربة وعشوائية ولكنها جميعا مرتبطة بصورته الجاذبة والأخذة في التشكل. كان يعمل في خمس زوايا في نفس الوقت، فإذا فشل أحد في أحد مغامراته، فإنه يتعلم منه ثم يمضي لمغامرة أخرى. إن عالم الأعمال هو كالمُختبر الذي سيستخدمه للتّجريب الدائم والاكتشاف، حيث سيمزج ويخلط الأشياء مع معاونيه، فوق وأسفل الخط، وكذلك مع جمهوره مما يسمح لهم بتغيير أفكاره. وسيكون محور هذه الاستراتيجية المرنة هو الانترنت باعتباره مساحة فوضوية تمنح فرصا غير محدودة للمحتال مثله.

ومن دون أن يعرف بالضبط إلى أين يؤدي ذلك، بدأ أيضا بإنشاء موقعه الالكتروني الخاص. فكان الموقع في البداية مساحة لعرض الفيديوهات الجديدة والحصول على مراجعات من العامة. وسرعان ما بدأت تتحول إلى شبكة اجتماعية، تجمّع بين معجبيه من شتى أنحاء العالم. هذا ما

منحه مساحة لا نهائية لتسويق علامته الموسيقية وتتبع التغيرات في أذواق جمهوره. وقد استمر موقعه الالكتروني في التطور ككائن حي، ولم يضع قيودا على ما قد يأتي.

فبعد سنوات، بعد أن تجاوزت موسيقاه إلى أكبر عدد ممكن من العوالم المتنوعة، ألقى فيفتي نظرة خلفه إلى جميع الناس الذين مضى عنهم بعيدا – كالمسؤولين التنفذيين، وأقرانه من مغني الراب، و أصحاب الأعمال الذين ضاعوا وسط التقلبات السريعة في الوقت المبكر من القرن، والمجموعة الكاملة من أصناف جيرمن التي لم يكن لها المرونة والانسيابية. فبغضّ النظر عن التغييرات التي قد تحدث، فإنّه سيستمر بالازدهار في بيئة الغرب المتوحش الجديدة، تماما كما فعل في الشوارع.

الأسلوب الجريء

فيفتي سانت هو الشخص الذي خلقته. قريباً سيكون الوقت قد حان لتدميره ليصبح شخصاً آخر.

{فيفتي سانت}

في مرحلة الطفولة كُنّا محاطين بأشياء كثيرة غير مألوفة وغير متوقعة - أشخاص يتصرفون بطرق غير منطقية، وأحداث يصعب معرفتها. كان هذا مصدرًا لقلق عظيم، حيث أردنا أن يكون العالم المحيط بنا أكثر ألفة. إنّ الأشياء التي كانت غير متوقعة كثيرا ارتبطت في أذهاننا بالظلام والفوضى، وهو أمر مرعب. وانطلاقا من هذا الخوف، تولدت رغبة عميقة بداخلنا للحصول على قدر أكبر من السيطرة على الناس والأحداث التي تفلت من قبضتنا. والسّبيل الوحيد الذي نعرفه لفعل هذا هو القبض والحمل، الدفع والسحب، و التعبير عن إرادتنا بشكل مباشر قدر الإمكان لجعل الناس يفعلون ما نريده. على مر السنوات يمكن لذلك أن يصبح نمط سلوك لمدى الحياة - وهو أكثر دقة في البالغين، إلا أنه طفولي في جوهره.

كل فرد نواجهه في الحياة فريد من نوعه، بطاقته، ورغباته، وتاريخه. ولكن بسبب رغبتنا في المزيد من السيطرة على الناس ، فإن خطوتنا الأولى عموما هي أن نحاول دفعهم للخضوع

لأمزجتنا وأفكارنا والتصرف بطرق مألوفة ومريحة لنا. كل ظرف في الحياة مختلف، إلا أن ذلك يتسبب بإثارة الخوف القديم من الفوضى والمجهول. إذ أنه لا يمكننا عمليا جعل الأحداث متوقعة، ولكن يمكننا داخليًا أن نخلق شعورًا بتحكّم أكبر من خلال التمسك ببعض الأفكار والمعتقدات التي تعطينا شعورًا بالاتساق والنظام.

هذا التّعطش للسيطرة، شائع لدينا جميعا، وهو أساس للكثير من المشكلات في الحياة. إن التمسك بصحّة نفس الأفكار وبنفس طرق عمل الأشياء فإنه يُصعِّب علينا أكثر التكيّف مع التغييرات المحتومة. فإذا حاولنا السيطرة على حالة ما بنوع من السلوك العدواني سيبقى هذا خيارنا الوحيد ولن نستطيع الاستسلام أو التكيّف أو انتظار وقتنا، مما يعني إفلات الأمر من قبضتنا، وهو ما نخشاه. ويصعب امتلاك مثل هذه الخيارات الضيقة لحلّ المشكلات، كما أن إرغام الناس ليفعلوا ما نريده يجعلهم مستاءين، وسيقومون لا محالة بتدميرنا أو الوقوف ضد رغبتنا. ما نجده هو أن محاولة تعطيل سير العالم من حولنا يأتي بأثر عكسي، كلما حاولنا التحكم بقوة في الأشياء في بيئتنا المباشرة، من المرجح أننا سنفقد السيطرة عليها على المدى الطويل.

يميل معظم الناس إلى الاعتقاد بأن هذه الأشكال من السيطرة المباشرة هي السلطة نفسها، أو شيئا يبرز القوة، والتناسق، والشخصية، لكن في الحقيقة العكس هو الصّحيح، فما سبق هي فقط أشكال طفولية وضعيفة من السلطة، وتنبثق من الخوف المتجذر عميقا من التغيير والفوضى. وقبل أن وقبل فوات الأوان، أنت بحاجة إلى التحول إلى مفهوم أكثر تطورا وجرأة للسلطة أو السطوة، ذاك الذي يؤكد على الانسيابية والمرونة.

تتمتع الحياة بسرعة وإيقاع معين، حيث تتحرك موجة لا نهائية من التغيرات بسرعة أو ببطء. فعندما تحاول إيقاف هذا التدفق ذهنيا أو جسديا عن طريق التمسك بالأشياء أو الأشخاص فإنك تتأخر وتصبح تصرفاتك غير ملاءمة، لأنها منقطعة الصلة بالظروف الحاضرة. إنه شبيه بالتحرك ضد تيّارٍ ما بدلا من استخدامه لدفعك إلى الأمام.

إن الخطوة الأولى و الأكثر أهمية التي يجب عليك أن تفهمها هي التخلي عن هذه الحاجة للسيطرة بالطريقة المباشرة . هذا يعني أنك لن تعود إلى رؤية لحظات التغير والفوضى في الحياة كشيء يجب الخوف منه، ولكن ستراه كمصدر للبهجة والفرص. إن في الوضع الاجتماعي الذي ترغب فيه باكتساب قدرة على التأثير في الناس، فالخطوة الأولى هي أن تتقيد بطاقاتهم المختلفة. أن ترى

ما يُظهرونه وتتكيف معه، ثم تجد طريقا لتحويل طاقتهم باتجاهك. أي أن تتخلى عن الوسيلة السابقة المتمثلة في عمل الأشياء أولا ثم تُكيّف استراتيجياتك مع التدفق المستمر للحاضر.

ما يبدو لنا فوضويا هو غالبا مجرد سلسلة من الأحداث الجديدة و التي يصعب معرفتها واكتشافها. ولن تستطيع أن تجد منطقا في هذه الفوضى الواضحة إذا كنت متفاعلا وخائفا وتحاول إخضاع كل شيء لأنماط موجودة في عقلك أنت فقط. فمن خلال استيعاب المزيد من هذه اللحظات الفوضوية بروح منفتحة، ستستطيع أن تَلمح نمطا ما أو سبب يفسر لك لماذا تحدث وكيف يمكنك استغلالها.

كجزء من هذا المفهوم الجديد، فأنت تستبدل الرموز القديمة الثابتة للسلطة – كالصخرة، و شجرة البلوط، وما إلى ذلك، برمز الماء، وهو العنصر الذي يتمتع بأعظم قوة في الطبيعة بأسرها. حيث يستطيع الماء التكيف مع أي شيء في طريقه، ينساب حوله أو فوق أيّة عقبة، بل إنه ينحت الصخر بمرور الوقت. وهذا الشكل من السلطة لا يعني الاستسلام ببساطة لما تجلبه لك الحياة وتنسحب، بل يُقصد به أن توجه تدفق الأحداث في اتجاهك متخليا عن القوة المُضافة على أفعالك، مما يمنحك قوة دفع عظيمة.

في أماكن مثل الأحياء الفقيرة، يكون مفهوم المرونة أو الانسيابية أكثر تطورا من أي مكان آخر. في مثل هذه البيئة توجد العقبات في كل مكان، و هؤلاء الذين يعيشون في هذه الأماكن لا يستطيعون التحرك وكسب العيش بصورة جيدة خارج حدود المنطقة. فإذا حاولوا التحكم في الكثير جدا من الأشياء وأصبحوا عدوانيين فإنهم يميلون إلى جعل حياتهم أصعب وأقصر، فما يرتكبونه من عنف يعود إليهم بنفس القوة.

مع وجود الكثير من العوائق المادية، تعلّمَ المحتالون أن يطوّروا حريةً لِعقليتهم. فهم لا يستطيعون أن يُربكوا عقولهم بكل هذه العقبات. حيث يجب أن تستمر أفكارهم في الحركة – كخلق مغامرات جديدة، واحتيالات جديدة، و اتجاهات جديدة في الموسيقى والملابس. وهذا هو سبب تغيّر التوجهات سريعا في المنطقة، والتي تظهر غالبا كمحركٍ للأنماط الجديدة في الثقافة على نطاق واسع. وعلى المحتالين عند تعاملهم مع الناس أن يتكيفوا مع كل اختلافاتهم، مرتدين القناع الملائم لكل موقف، مع تبديد شكوك كلا منهم، {فالمحتالون ماهرون كالحرباء}. فإذا استطاعوا الاحتفاظ

بهذه المرونة الذهنية والاجتماعية فإنهم يشعرون بدرجة من الحرية خلف جميع القيود المادية لبيئتهم.

أنت أيضا تواجه عالما مليئا بالعقبات والقيود - بيئة جديدة حيث المنافسة فيها أكثر شمولية، وأكثر تعقيدا وشدة قياسا بأي وقت آخر. كمحتال، عليك أن تجد حريتك من خلال مرونة أفكارك وإبداعك المستمر. وهذا يعني أن يكون لديك استعداد كبير للتجريب، و تجربة عدة مُغامرات دون الخوف من الفشل هنا أو هناك. هذا يعني أيضا البحث الدائم من أجل تطوير أنماط جديدة، واتجاهات جديدة يمكنك اتخاذها، وتحرير نفسك من أي عجز قد يأتي مع التقدم في السن. في عالم مليء بالأشخاص ذوي التفكير التقليدي للغاية ممن يحترمون الماضي كثيرا، إن المرونة كهذه ستترجم لا محالة إلى سطوة وستعطي مجالا أوسع للحركة.

كل الشخصيات الجريئة في التاريخ أظهرت استعدادا عظيما لإدارة الفوضى واستخدامها لأهدافهم الخاصة. ولا يمكن إيجاد مثال على ذلك أعظم من ماوتسي تونغ. حيث كانت الصين في عام 1920م، دولة على حافة تغيير جذري، حيث انهار أخيرا النظام الإمبراطوري القديم الذي خنق الصين لقرون. ولكن خوفاً من الفوضى التي يمكن أن تطلق العنان في مثل هذه الدولة الشاسعة، اختار الطرفان المتنافسان على السيطرة - القوميين والشيوعيين - محاولة احتواء الوضع بأفضل ما يمكن.

عرض القوميون ذات النظام الإمبراطوري القديم الطراز بواجهة جديدة، بينما قررّ الشيوعيون أن يفرضوا نموذج لينين على الصين – أي شنّ ثورة بروليتارية – التي تمحورت حول المناطق الحضرية، والسيطرة على المدن الرئيسية في البلاد وفرض الالتزام الصارم بعقيدة الحزب بين أتباعها، وقد نجح ذلك في الاتحاد السوفييتي، حيث تم تأسيس النظام في فترة زمنيّة قصيرة، ولكن الصين لا علاقة لها بذلك. وقد أخذت هذه الاستراتيجية بحلول نهاية العقد تفشل بشكل بائس. فعندما أصبحت الأمور على حافة النهاية، لجأ الشيوعيون إلى {ماو} الذي كان لديه مفهوم مختلف كليا عما يجب عمله.

نشأ ماو في قرية صغيرة، بين سكان الفلاحين في البلاد. كجزء من نشأته، انغمر في النظام العقائدي القديم للطاوية، الذي يرى بان التغيّر هو جوهر الطبيعة والخضوع له هو مصدر السطوة كلها. ووفقا للطاوية، فإنك في النهاية تكون أقوى بسبب تمتعك بليونة تسمح لك بالانحناء

والتكيف كما تشاء. ولم يكن ماو خائفا من الحجم الشاسع للصين وسكانها، حيث أن الفوضى التي قد تظهر ستصبح ببساطة جزءا من استراتيجيته. كانت فكرته تقضي بالحصول على مساعدة من الفلاحين، وعلى ذلك يستطيع الجنود الشيوعيون الاختفاء في الريف كالسمك في الماء.

ولن يهاجم مراكز المدن أو يحاول احتلال أي موضع في الدولة. فبدلا من ذلك سيُحرّك الجيش كقوة ضبابية تهجم ثم تختفي، ولن يعرف العدو إطلاقا من أين جاءت أو ماذا كانوا يفعلون. سيُبقي قوة جيش العصابات في حركة مستمرة، مما لا يسمح للعدو مساحة للتنفس، مانحة إياه حسا بالفوضى.

أما القوميون فقد جسدوا المدرسة القتالية المعاكسة، إذ كانوا تقليديين حتى النخاع. عندما أطلق ماو العنان أخيرا لهذا النوع الجديد من الحرب عليهم لم يستطيعوا التأقلم معها. فقد تمركزوا في المواقع الرئيسية بينما حاصرهم الشيوعيون على مساحات شاسعة من الصين. كانت سيطرة القوميين مقتصرة على عدد قليل من المدن، وسرعان ما انهاروا تماما في واحدة من أبرز التحولات السريعة في التاريخ العسكري.

افهم هذا : لا يتعلق الأمر فقط بوجوب مرونة ما تفعله، ولكن أيضا بكيفية عملك للأشياء. إنها استراتيجياتك وأساليبك في مواجهة المشكلات، والتي يجب تكييفها دائما وفقا للظروف. إنّ الاستراتيجية هي جوهر سلوك الإنسان والجسر الذي يربط بين الفكرة وتحقيقها في الواقع. وكثيرا جدا ما تتجمد هذه الاستراتيجيات لتصبح عادات بسبب قيام الناس بالتقليد الأعمى لما ثبت نجاحه سابقا. فمن خلال الحفاظ على استراتيجياتك منسجمة مع اللحظة الراهنة، يمكنك أن تكون عامل تغيير فيها، فالشخص الذي يكسر تلك الطرق الميتة للسلوك، فإنه يكتسب قوة هائلة في هذه العملية. إن معظم الناس في الحياة مُتحفظين ويمكن التنبؤ بهم، مما يجعلهم أهدافا سهلة، وأن استراتيجياتك المرنة والغير متوقعة ستقودهم للجنون. فهم لا يستطيعون التنبؤ بخطوتك التالية أو معرفة حقيقتك وهذا غالبًا ما يكون كافيًا لجعلهم يفسحون الطريق لك أو سينهارون.

وبالتالي، لا يمكن للمرء تكرار انتصارات في المعارك التي تتخذ شكلا كاستجابة للظروف المتغيرة باستمرار... والتي يمكن تشبيهها بالماء، حيث يُغير الماء اتجاه جريانه وفقا لانحدار الأرض.

{صان تزو}

جميعنا اختبرنا في وقت ما في حياتنا إحساسا بالزّخم، ربما فعلنا شيئا أصاب وترا فينا و أدركنا ماهيته. حيث يملأنا هذا التركيز الإيجابي {الزّخم: القوة التحفيزية} بثقة غير اعتيادية، والتي في المقابل تجذب الناس إلينا. الآن وانطلاقا من فيض ثقتنا بالنفس، نصبح قادرين على تحقيق عمل جيد آخر، حتى لو لم يكن مثاليًا، حيث سيميل الناس إلى التغاضي عن جوانبنا السيئة، بسبب امتلاكنا هالة النجاح حولنا. وفي الكثير من الأوقات في الحياة، سيبدو أن شيئا جيدا واحدا يتّبعه شيئا آخر جيد.

سيستمر هذا إلى أن نقوم لا محالة بتعطيل هذه المرونة والانسيابيّة، ربما بمبالغتنا بتصرف معيّن مما أدى إلى كسر السحر، أو استمرارنا في تكرار نفس الأشياء إلى أن تَعِب النّاس منا فانتقلوا إلى شخص آخر، إذْ أن هذا الزّخم قد انعكس وانقلب علينا بنفس السُّرعة. فتبدأ مواطن انعدام الأمان لدينا في الظهور على السطح، والعيوب الصغيرة التي كان يتجاوزها الناس سابقا بدتِ الآن واضحة. ثم ندخل في سلسلة من سوء الحظ والشعور بالاكتئاب و الذي يجعلنا عاجزين أكثر فأكثر عن التحرك.

على طرفي الطيف، ندرك هذه الظاهرة ولكننا نتعامل معها على أنها شيء مُبهم، حيث يتجاوز السيطرة وتفسير العقل الواعي، ولكنها ليست غامضة كما نظن. ففي خضم أي دفعة من الزّخم، نشعر عمومًا بمزيد من الانفتاح؛ فنسمح لأنفسنا بأن نكون مأخوذين باللحظة، والثقة التي نكتسبها عندما تمضي الأمور بصورة جيدة تجعل النّاس إما أن يبتعدوا عن طريقنا أو ينضموا إلينا، مما يعطي أفعالنا قوة مضافة. وفي بعض الأحيان يدفعنا الشعور بالإلحاح – أي الشعور بأنه علينا

القيام بشيء ما - بأن نتصرف بنوع من النشاط، ويؤدي هذا إلى البدء بالتحرك بشكل جيد. حيث يرتبط ذلك غالبا بإحساس أنه ليس لدينا إلا القليل لنخسره عبر القيام بشيء ينطوي على تحدٍّ. ربما قد نشعر باليأس إلى حد ما، لكنّنا نُخفّف من قيودنا ونجرب.

ما يربط كل هذا معًا هو أن شيئًا ما داخلنا ينفتح فنسمح لأنفسنا مساحة أكبر للحركة. ليصبح أسلوبنا أكثر حرية و جُرأة، فنتحرك مع التيار. ومن ناحية أخرى فإنه عندما ينتهي تدفق قوة الدفع، يرجع الأمر غالبا إلى شيء فعلناه، كنوع من التدمير الذاتي اللاّواعي . حيث نتصرف ضد ذلك بارتخاء، انطلاقا من الخوف إلى أين قد يقودنا الأمر. فنغدو متحفظين، فيتوقف تدفق الطاقة إلينا، ثم يعكس التدفق ذاته ببطء إلى ركود واكتئاب. ومن نواح كثيرة، نحن من نتحكم في هذه الظاهرة، ولكنها لا تعمل على مستوى واع بما فيه الكفاية.

افهم هذا : يأتي الزّخم في الحياة من زيادة المرونة والانسيابيّة، والرغبة في تجربة المزيد، و التحرك بطريقة أقل تقييدا. وفي أكثر المستويات، تبقى بعض الأشياء التي يصعب التعبير عنها بالكلمات، ولكن من خلال فهم العملية، و زيادة الوعي بالعناصر التي تتضمنها، تستطيع أن تضع عقلك في حالة أكثر استعدادا و قدرة على استغلال أية لحظة إيجابية في حياتك بصورة أفضل. يمكنك أن تطلق عليه {الزّخم: قوة الدفع المحسوبة}. عليك لهذا الغرض أن تتمرن وتتقن الأنواع الأربعة التالية للمرونة.

المرونة الذهنية

في فترة شباب ليوناردو دافنشي {منتصف القرن الخامس عشر}، كانت المعرفة متصلبة على هيئة أجزاء قاسية. كانت هناك من ناحية، الفلسفة والمدارس المتمسكة بالتعاليم التقليدية، ومن ناحية أخرى، الفنون التي كانت تُعتبر أقرب للحرف البسيطة. كما توجد العلوم التي لم تكن قد أصبحت تجريبية بعد. أما على الهوامش فتقف جميع صور المعرفة المظلمة - فنون غامضة.

كان دافنشي ابنا غير شرعي لكاتب عدل، وبسبب هذا الوضع الاجتماعي السيء، تم حرمانه من التعليم الرسمي المعتاد، الأمر الذي تبين فيما بعد بأنه نعمة خفية كبيرة. حيث تحرّر عقله من كل التحيزات و التصنيفات الجامدة للتفكير التي سادت في ذلك الوقت. فذهب لتلقي التدريب المهني

في مَرسم الفنان العظيم فورتشينو. وعندما بدأ في تعلم حرفة الرسم والتلوين هناك، أخذت عملية معينة في التحرك والتي أدت إلى تأسيس أحد أهم الأدمغة المميزة في تاريخ البشرية.

كانت المعرفة في مجال واحد تثير ببساطة تعطّش دافنشي الشديد لتعلّم أي شيء آخر في مجال ذي صلة. حيث قادته دراسة الرسم إلى تعلّم التصميم بشكل عام، والذي أدى إلى إثارة اهتمامه بفن العمارة، ومن هناك شعر بإلهام لدراسة الهندسة، ثم إلى الاستراتيجية لصناعة آلات الحرب، وأيضا ملاحظته للحيوانات وآليات الحركة التي يمكن تطبيقها على كل ما هو تقني، ثم دراسته للطيور وديناميكا الهواء، وتشريح الإنسان والحيوان، والعلاقة بين العواطف والجسد... وهكذا. هذه الانسيابية المذهلة من الأفكار غمرته بغموض تام في عدة مناطق. ولم يعترف عقله بأية حدود أو قيود، بل سعى إلى الربط بين جميع ظواهر الطبيعة. فبهذا المعنى كان مُتقدّماً في ذلك الوقت كأول رجل عَاصرَ النّهضة الحقيقيّة. وقد تمتعت اكتشافاته في مختلف المجالات بقوة دفع الزّخم، إذ أنّ كثافة أحدها تقود إلى الآخر. ولم يتمكنّ أحد من فَهمه فاعتبروه غريب الأطوار وحتى شاردا، إلا أن الحكام العُظماء من أمثال ملك فرنسا {فرانسوا الأول} وحتى قيصر {بورجيا} ، اعترفوا بعبقريته وسعوا لاستغلالها.

في الوقت الحاضر قد تراجعنا إلى مرحلة مشابهة لما قبل عصر النهضة، إذ تصلبت المعرفة مرة أخرى في شكل تصنيفات جامدة مع انغلاق المثقفين في الأحياء المعزولة المتعددة. ويُعتبر الأشخاص الأذكياء جادّين بحُكم مدى عمق انغماسهم في أحد مجالات الدراسة، حيث تصبح نظرتهم للأمور أكثر انحسارا يوما بعد يوم. ومن يتخطى هذه الحدود الجامدة يعتبر لا محالة مجرد هاو للفنون. فبعد الجامعة، يتم تشجيعنا جميعا على التخصص، وذلك بأن نتعلم شيء واحد بصورة جيدة ونتقيّد به، و ننتهي بحشر أنفسنا في أضيق مساحة من اهتماماتنا. مع كل هذه القيود لم تعد للمعرفة مساحة للمرونة. فالحياة لا تتضمن هذه التقسيمات، فالأخيرة لا تعدو أن تكون سوى تقاليد نلتزم بها بصورة عمياء.

إن دافنشي يَبقى رمزا وإلهاما للشكل الجديد من المعرفة. وما يهم في هذا السياق هو علاقة الأشياء فيما بينها، وليس ما يفصل بينهما. كما أن العقل بحد ذاته لديه قوة دفع خاصة به، فعندما ينشط ويكتشف شيئا جديدا فإنه يميل إلى إيجاد شيء آخر لدراسته واستيضاحه. وقد جاءت أعظم الاختراعات في التاريخ من الانفتاح على الاكتشاف، حيث تؤدي فكرة إلى أخرى، وفي بعض

الأحيان تأتي من مجالات غير مرتبطة ببعضها. وعليك أن تُطوّر هذه الروح والتعطّش الشديد للمعرفة، وهذا يأتي من توسيع مجالات دراستك واستكشافك، وأن تطلق العنان لنفسك لتكون مأخوذا بما وجدته. وسترى أنك تأتي بأفكار غير متوقعة من النوع الذي يُؤدي إلى ممارسات أو فرص جديدة. فإذا كانت الأمور تجري بشكل جافّ في المسار الخاص بعملك، فإنك تكون قد طورت عقلك في اتجاهات أخرى تستطيع الآن الاستفادة منها. وستسمح لك هذه المرونة الذهنية بالتفكير باستمرار في أي عقبة وأيضا في الحفاظ على زخمك في حياتك المهنية.

المرونة العاطفية

نحن البشر كائنات عاطفيّة بالفطرة، وهذه هي الطريقة التي نتفاعل بها مع الأحداث في المقام الأول، و بعد مدة نتمكّن من إدراك أن مثل هذه الاستجابات العاطفية قد تكون مدمرة فنكون بحاجة إلى كبحِها. إلاّ أنه لا تستطيع كبتها، وهذا جزء من الطبيعة البشرية، ولا يجدر بك أن تحاول ذلك أبدا، فهو كالفيضان الذي يغمرك أكثر كلما حاولت سدّه. وما يجب أن تفعله لهذه العواطف اللامتناهيّة التي تواجهك بعنف خلال اليوم لتجرفك، هو أن لا تتمسك بعاطفة واحدة لمدة طويلة. فأنت قادر على التحرر من أي نوع من العواطف الاستحواذية. فإذا قال أحدهم شيئا أزعجك ستجد طريقة للتحرر سريعا من هذا الشعور، إما عن طريق إيجاد عذر لما قاله، أو بجعله أقل أهمية بالنسبة لك، أو نسيانه.

إن النسيان مهارة يجب عليك تطويرها لكي تحظى بمرونة عاطفية. فإذا كنت تشعر بالغضب أو الاشمئزاز ولا تستطيع فعل شيء إزّاءه في تلك اللحظة، حاول ألاّ تدع الأمر يبقى حتى اليوم التالي. إن تمسكك بالعواطف بهذا الشكل يشبه إلى حدٍّ كبير وضعك غمامات على عينيك. في هذه الفترة من الوقت، سترى وتشعر فقط بما تحكم به هذه العواطف، مُتخلّفة عن الأحداث، فيتوقف عقلك على مشاعر الفشل و الإحباط وعدم الثقة، مضيفا عليك غرابة الشخص الغير متناغم مع الزمن. فبدون إدراك ذلك، تصبح جميع استراتيجياتك متأثرة بهذه العواطف، مُبعدة إياك عن المسار الصحيح.

لكي تحارب هذا، عليك أن تتعلم فن الموازنة، فإذا كنت جبانا عليك أن ترغم نفسك على التصرف بصورة أجرأ من المعتاد، وعندما تشعر بكره جامح، ابحث عن شيء ينمّ عن الحب أو الإعجاب والتركيز عليه بشدة، حيث أن عاطفة واحدة قوية تميل إلى إلغاء البقية لتساعدك على تجاوزها.

قد يبدو أن المشاعر الشّديدة للحب أو الكره أو الغضب يمكن استخدامها لدفعك إلى الأمام بشأن موضوع ما، ولكن هذا لا يعدو أن يكون إلا وهما. إذ تمنحك هذه العواطف دفعة من الطاقة، فسرعان ما تخبو لتتركك خاملا بذات القدر الذي كنت به نشيطا. بدلا من ذلك، فأنت تبحث عن حياة عاطفية أكثر اتزانا و بأقل قدر من الارتفاعات والانخفاضات. و هذا لا يساعدك فقط على الاستمرار في التحرك وتخطي العقبات الصغيرة، بل يؤثر أيضا على تصورات الناس عنك. حيث سينظرون إليك على أنك شخص يتمتع بشيء ما إيجابي تحت الضغط، وبقبضة حديدية سوف يلجؤون إليك كقائد. إن الحفاظ على هذا الثبات سيجعلك تتمتع بالمرونة الإيجابية بشكل دائم.

المرونة الاجتماعية

يمكن أن يكون العمل مع الناس على أي مستوى أمرًا غير منظم. فهم يأتون باختلافاتهم وطاقاتهم الخاصة إلى مشروع ما، كما هو الحال بالنسبة لأجندتهم. إن الدور الطبيعي للقائد هو تقليل هذه الفروقات وجعل الجميع على نفس الموجة. وقد يبدو هذا شيئا عظيما يجب فعله، ولكنه ينبع في الحقيقة من الخوف الفطري من المجهول، ويترتب عليه في النهاية أثر عكسي، مثل هؤلاء العاملين لديك ممن يجلبون طاقة أقل فأقل إلى عملك. بعد اندفاعك الأولي للحماس في مشروعك، فإن امتعاض العاملين عندك سيخنق سريعا أية قوة دفع كنت قد طورتها.

فقد استخدم المخرج السويدي الكبير {انجمار برجمان} في بداياته المهنية أسلوبا أكثر استبدادا في التعامل مع ممثليه، لكنّه بدا غير راضي عن نتائجه، لذلك قرر تجربة شيء آخر. حيث وضع نص الفيلم تاركا الحوار في أغلبه مفتوحا ليدعو الممثلين إلى إضفاء طاقاتهم الخاصة وخبراتهم عليه، فيشكلونه بما يناسب استجاباتهم العاطفية. وسيجعل ذلك السيناريو ينبض بالحياة من داخله، وقد يتطلب الأمر في بعض الأحيان إعادة كتابة بعض أجزاء من حِبكة السناريو. فمن خلال العمل مع الممثلين على هذا المستوى، مكّن برجمان من دخول أرواحهم، وعكس طاقاتهم كوسيلة

لجعلهم يسترخون وينفتحون. مع تطوره سُمح له أكثر فأكثر في إكمال مشواره المهني، فكانت النتائج مذهلة.

أحب الممثلون هذا الأسلوب وشعروا أكثر بالمشاركة و الارتباط، حيث رغبوا في العمل معه، وكان حماسهم ينعكس على أدائهم، فكان كل واحد أفضل من الاخر. وتمتعت أفلامه بحس نابض أكثر بالحياة وجاذبية أشد من تلك المبنية على نصوص جامدة. فأصبح عمله ذو شعبية متزايدة، كلما تعمق أكثر في هذه العملية التعاونية.

يجب أن يكون هذا نموذجك في أي مشروع يضم مجموعة من الأشخاص. فانت تضع إطار العمل القائم على معرفتك وخبراتك ولكنك تمنح مساحة منه ليتم تشكيلها من قبل المشاركين فيه، الأمر الذي يجعلهم متحفزين ومبدعين ليساهموا في منح المشروع مرونة وقوة أكبر. إنك لا تذهب بعيدا في هذه العملية، حيث ستضع بنفسك الاتجاه العام والأسلوب، إلا أنك ببساطة ستتحرر من الحاجة إلى جعل الآخرين يفعلون ما تريده بالضبط، وهي حاجة نابعة من الخوف. وستجد على المدى الطويل أن قدرتك على تحويل طاقة الناس باتجاهك برفق تمنحك نطاقا أوسع في التحكم بشكل المشروع ونتائجه.

المرونة الثقافيّة

في عام 1940م، أحدث عازف الساكسفون الكبير {تشارلي باركر} بمفرده ثورة في عالم الجاز باختراعه لنمط يدعى {بيبوب}. ولكن سرعان ما رأى أنه أصبح تقليدا في الجاز، وخلال سنوات قليلة لم يعد هو النمط الثوري المفضل عند محبي موسيقى الجاز. حيث قام الفنانون الصّغار حديثي الظهور بنقل ابتكاراته إلى مستويات أخرى. وكان هذا الأمر مقلقا جدا له فانحدر مستواه، ثم فارق الحياة في سن مبكرة.

كان عازف البوق {مايلز ديفيس} عضوا في فرقة باركر وشهد شخصيا على هذا الانحدار. و قد فهم الوضع على حقيقته. أن الجاز هو نمط موسيقي مرن بشكل لا يصدق الذي خُضع لتغيرات هائلة في الشكل خلال فترات قصيرة من الزمن. و نظرا لعدم اهتمام الشعب الأمريكي بموسيقيها السود أو تقديرهم، فأن الذين وجدوا أنفسهم وقد تجاوزهم الزمن بسبب ظهور الاتجاهات الحديثة، فقد عانوا من مصير سيء مثل باركر، فتعهد ديفيس بأن يتغلب على هذه الديناميكية. والحل الذي

قام به هو عدم الاستقرار على نمط واحد إطلاقا، حيث كل أربع سنوات سيقوم جذريا بابتكار موسيقاه وعلى جمهوره أن يواكبوا هذه التطورات، و غالبيتهم فعل ذلك.

سرعان ما أصبح الأمر كنبوءة تُحقق نفسها، حيث أصبح يُنظر إليه كشخص يضع أصبعه على أحدث اتجاه، بالإضافة إلى أن موسيقاه الجديدة تتم دراستها ومحاكاتها. وكجزء من استراتيجيته ، سيوظف دائما مؤدين من أحدث جيل للعمل معه من أجل تسخير إبداعهم الذي يتأتى مع الشباب. وبهذه الطريقة، طوّر قوة دفع ثابتة تجاوزت به الانحدار المعتاد في مهنة موسيقى الجاز. ولقد حافظ على هذا الإبداع لمدة تجاوزت الثلاثين عاما، وهو شيء لم يسمع به من قبل في هذا الأسلوب.

افهم هذا : أنت موجود في لحظة ثقافية معينة، بمرونَتها وأسلوبها الخاص. ففي شبابك تكون أكثر حساسية لهذه التقلبات في الذوق، فتحافظ عموما على مواكبة الحاضر. ولكن مع تقدمك في العمر يصبح اتجاهك مقيّدا بنمط ميت، وهو أسلوب تربطه بشبابك وببهجته. فإذا مر ما يكفي من الوقت سيغدو نمطك الجامد مضحكا قليلا، وستبدو وكأنك قطعة أثرية. كما أن زخمك سيتوقف عندما يأتي الناس لتصنيفك في فترة زمنية ضيقة.

بدلا من ذلك عليك أن تجد طريقة لإعادة تأسيس ذاتك دوريا. ولا يعني الأمر أن تقلد حرفيا أحدث صيحات الموضة، والتي ستجعلك تبدو مثيرا للسخرية. بل ببساطة تعيد اكتشاف الانتباه الشبابي لما يدور حولك وإعادة دمج ما تحبه بروح أحدث، بحيث تستمتع بتشكيل شخصيتك وارتداء قناع جديد. والشيء الوحيد الذي عليك أن تخشاه حقا هو أن تصبح أثرا قديما من بقايا اجتماعية وثقافية.

مخالفة المفهوم

نميل في الثقافة الغربية إلى ربط قوة الشخصية بالثبات. فالأشخاص الذين يغيرون كثيرا من أفكارهم أو مظاهرهم قد يحكم عليهم بأنهم غير جديرين بالثقة أو حتى خبثاء. فنقدر أولئك المتمسكين بماضيهم وبقيم معينة خالدة. وفي الناحية الأخرى، فإن من يتحدون ويغيرون العادات السائدة ينظر إليهم غالبا كنوعيات مدمرة، على الأقل خلال فترة بقائهم على قيد الحياة.

فقد كان الكاتب الفلورنسي العظيم {نيكولو ميكافيللي} يرى قيم الثبات والنظام كنتائج لثقافة الخوف، وهو شيء يجب تغييره. ووفقا لوجهة نظره، أن طبيعتنا الثابتة و توجهنا للتمسك بخط واحد من السلوك أو الأفكار هو بالتحديد سبب بؤس البشرية وعجزها. ويمكن للقائد أن يتسم بالقوة من خلال التصرفات الجريئة، ولكن عندما يتغير الزمن ويتطلب شيئا أكثر حذرا فسيستمر عموما باتجاهه الجريء. إنه ليس قويا بما فيه الكفاية ليتأقلم، فهو سجين طبيعته الثابتة، وما رفعه فوق البقية سيصبح مصدرا لسقوطه.

الشخصيات القوية الحقيقية كما يراهم ميكافيللي هم الأفراد القادرين على صياغة شخصياتهم واستخراج الصفات الضرورية للحظة ويعرفون كيف يتكيفون مع الظروف . أما هؤلاء الذين يبقون مُوالين لفكرة أو قيمة معينة دون اختبارها ذاتيا، فقد ثبت بأنهم أسوأ الطغاة في الحياة. إذ أنهم يُرغمون الآخرين على الخضوع لمفاهيم منقرضة، ويُشكّلون قوة سلبية تمنع التغير الضروري لأي ثقافة لتنمو و تزدهر.

هذه هي الطريقة التي يجب عليك ان تتصرف بها: أن تعمل بجد لتخطي هذه الطبيعة الثابتة، وأن تجرب عمدا أنماط واتجاهات متنوعة قياسا بالمعتادة لديك لتكتسب حسا باحتمال مختلف. وستنظر إلى فترات الاستقرار والنظام بثقة ضئيلة، كشيء لا يتحرك في حياتك و في ذهنك. ومن ناحية أخرى فإن لحظات التغيير والفوضى الواضحة هي ما تزدهر فيه، فهي تجعل ذهنك و روحك يقفزان فرحاً إلى الحياة. إذا بلغت هذا المستوى فستتمتع بقوة هائلة، و لن تخشى من لحظات التحول بل سترحب حتى بصنعها. ووقتما تشعر بأنك متجذر وثابت في مكان ما، عندئذ يجب أن تخاف حقا.

يرغب الناس في الاستقرار؛ فقط بقدر ما هم غير مستقرين هناك أمل لهم.

{رالف والدو امرسون}



الفصل الخامس

تَعلّم متى تكون سيّئًا

{العُدوانيّة}

ستجد نفسك دائما بين أشخاص عدوانيين أو عدوانيين فاعلين الذين يسعون لإيذائك بطريقة ما. وعليك أن تتخطى أية مخاوف عامة لديك من مواجهة الناس، وإلا ستجد صعوبة بالغة في إثبات نفسك عند مواجهة أولئك الأكثر دهاءً وقسوة. قبل أن يفوت الأوان، يجب أن تتقن فن معرفة متى وكيف تكون سيئا - باستخدام الخِداع، والتّلاعب، والتدخل المباشر في اللّحظات المناسبة. إن النّاس يتصرفون بمرونة أخلاقية عندما يتعلق الأمر بمصلحتهم الشخصية، فأنت ببساطة ستفعل ذلك بشكل واعٍ وأكثر فعّالية.

كمين المحتال

لقد استغل المحتال كل ساعة يقظة عاشها بكل من المعرفة العملية و اللاّواعية. فإذا استرخى أو تباطء، فإن الثعالب، النموس، الذئاب والنسور الأخرى الجائعة والنشطة معه هناك، لن تتردد في جعله فريستها.

{مالكوم إكس}

في صيف عام 1994م، عاد {كرتس جاكسون} إلى منطقة جنوب كوينز، بعد أن قضى بعض الوقت في برنامج إعادة تأهيل مجرمي المخدرات. ولدهشته، في السّنة التي ابتعد فيها، تغيرت لعبة الاحتيال بشكل كبير، فقد أصبحت الشوارع الآن تغص بالمتعاملين الذين يحاولون كسب بعض المال من صناعة سحق الكوكايين. و نظرا لإصابتهم بالإرهاق بسبب المنافسات الحادة والعنف خلال السنوات الثمان السابقة، أقر المُحتالون نظاما يمكن بموجبه لكل واحد منهم من امتلاك زاوية أو اثنتين في الشوارع، بحيث يأتي متعاطو المخدرات إليهم لعمل صفقات سريعة. فقد كان نظاما سهلا وقابلا للتوقع لكل شخص، ولا حاجة للعراك أو دفع الآخرين بعيدا عن الطريق أو حتى التّحرك.

عندما أعلن كرتس عن رغبته في استعادة فريقه القديم وأن يبدأ مجددا من حيث توقّف قبل إعادة التأهيل، قوبل بالشك والعداء الصريح، فهو سيدمر النظام الجميل الموجود لديهم بمخططاته الاحتيالية الطموحة. وقد شعر بأنهم سيقتلونه قبل أن يتمكن من فعل أي شيء، فقط ليحافظوا على هذا النظام الجديد.

فبدا له المستقبل فجأة كئيبا متجهما. فقد قرر قبل أشهر أن يجد طريقة للخروج من دائرة تجارة المخدرات، إلا أن خطته تتوقف على مدى قدرته على كسب مقدار جيد من المال وادخاره ليتمكن من دخول عالم الموسيقى. لذلك فإن الالتزام بنظام الزاوية الواحدة يعني أنه لن يتمكن أبدا من الحصول على ما يكفي من المال، وستمر سنوات قليلة سيجد بعدها أن خروجه بات أصعب فاصعب. ولكن إذا قام بلعبة ما لاختطاف القوة وكسب بعض المال السريع سيجد القليل من

الأصدقاء والكثير من الأعداء ضمن زملاءه المحتالين، فليس في صالحهم السماح له بتوسيع أعماله.

كلما تأمل كرتس هذا الوضع أكثر ازداد غضبه. لقد بدا له أن الناس في كل مكان يذهب إليه يحاولون اعتراض طريقه وكبح طموحه أو اخباره بما عليه أن يفعل. فقد كانوا يتظاهرون بمحاولتهم المحافظة على النظام، بينما هم في الحقيقة يحصلون على السطوة لأنفسهم ليتمسكوا بها. ووفقا لتجربته، فإنه وقتما يرغب في شيء ما في الحياة، يصعب عليه أن يكون لطيفا ومطيعا، بل يجب أن يصبح نشيطا وقويا. من الطبيعي بالنسبة له أن يشعر بقليل من الاضطراب، كونه قد خرج حديثا من السجن ويحاول استعادة حياته السابقة، ولكن ما يجب أن يخشاه حقا هو أن يبقى عالقا في حياة محتال الزاوية. والآن هو الوقت المناسب تماما ليصبح عدوانيّا، وليكون سيّئا، و يدمر هذا النظام الذي صُمِّم فقط لإبقاء الناس في القاع.

فتذكر كبار المحتالين قد كان يعرفهم في الجوار. فإحدى أكثر استراتيجياتهم نجاحا هي {الكمين}، التي تعتبر واحدة من تنويعات لعبة الخداع القديمة للإلهاء والتبديل. حيث تقوم بتشتيت الناس بشيء درامي وعاطفي، وبينما لا يهتمون بك، فإنك تحصل على ما تريد. لقد رأى ذلك عشرات المرات، كما أنه يدرك امتلاكه مادة للإلهاء المثالي وفقا لما كان يعتقد.

كان قد صادق في فترة التأهيل رجل من عصابة {فناني بروكلين المخلصين} الذين اشتهروا بسوء السمعة بسبب تأثيرهم وحضورهم المخيف. من أجل الكَمين، سيبقى كرتس خاضعا لعدة أسابيع ويعمل في الزاوية كالجميع وسيظهر أنه متماشٍ مع النظام الجديد. ثم سيُكلّف هؤلاء {الفنانين المخلصين} بنهب جميع محتالي الجوار بما فيهم هو نفسه من مجوهراتهم وأموالهم ومخدراتهم، حيث سيقومون بالعديد من المداهمات في المنطقة على مدار بضعة أسابيع. وكجزء من الصفقة سيحتفظون بالنقود والجواهر المُتحصلة من السرقات، أما كرتس فسيستولي على المخدرات ولن يشك في تورطه أحد.

في الأسابيع القادمة، شاهد بفرح، الظهور المفاجئ للفنّانين المخلصين في الجوار وما أثاره من فزع بين المحتالين، وكان البعض منهم أصدقاءه. تظاهر بأنه يشاركهم محنتهم، {فرجال عصابة بروكلين} ليسوا ممن يمكن العبث معهم. فدمّر أسلوب حياة المتعاملين بأكمله بين ليلة وضحاها، حيث أصبحوا مرغمين الآن على حمل المسدسات للحماية، إلاّ أن ذلك خلق مجموعة جديدة من

المشاكل، الشرطة في كل مكان ويقومون بحملات عشوائية، كما أن القبض على شخص يتسكع بمسدس يعني قضاء فترة محكومية قاسية في السجن. فلم يعد المحتالين قادرين على الوقوف ببساطة في زاوية الشارع وانتظار متعاطو المخدرات ليأتوا إليهم، بل عليهم أن يبقوا في حركة دائمة ليتجنبوا الشرطة. كانت الوسيلة الوحيدة لعقد صفقة بالنسبة للبعض منهم هو استدعائهم من خلال أجهزة النداء الآلي{بيجر: جهاز اتصال يستقبل رسائل قصيرة}. أصبح كل شيء أكثر تعقيدا، حيث ركدت التجارة.

لقد انهار النمط القديم، الذي كان ضيّقا و ثابتا، والآن انتقل كرتس إلى وضعية الهجوم، حيث ابتدأ بتعبئة كبسولات جديدة ملونة ليقوم ببيعها للمتعاطين. فكان يضيف إلى المبيعات في بعض الأحيان عددا من الكبسولات المجانية المكونة من المخدرات التي جمعها من السرقة. بدا الزبائن يتقاطرون عليه بينما كان المحتالون الآخرون مُضْطربِين جدا ليلاحظوا الخدعة التي تم لعبها. بمرور الوقت اكتشفوا ذلك ، إلا أن الأوان كان قد فات جدا، إذ وسّع كرتس تجارته وأصبح في طريقه لشراء حريته.

بعد عدة سنوات لاحقة، شق كرتس طريقه المهني كمغني راب. حيث تعاقد مع شركة كولومبيا للتسجيلات فبدا مستقبله مشرقا بشكل معقول. إلا أن فيفتي لم يكن شخصا يُخدع بالأحلام المُعتادة، إذ رأى سريعا بأن هناك فرص كبيرة فقط لأفضل المؤدّين الذين يقفون على أساس مهني قوي في هذا المجال. كان يقاتل جنبا إلى جنب، مع الجميع، من أجل الحصول على فتات من الانتباه، قد يستطيع الفنانون أن يحققوا نجاحا مؤقتا بضربة هنا أو هناك، ولكنهم لا يستمرون و ليست لديهم القدرة على تغيير الديناميكية. والأسوأ من ذلك هو أنه قد صنع أعداءًا له في المهنة، فقد كان محتالا موهوبا، و ذو طموح، وهناك أشخاص يخشونه ولا يثقون به. وقد عملوا خلف الكواليس ليتأكدوا من أنه لن يمضي أكثر في هذه الصناعة.

وفقا لما تعلمه فيفتي، فالموهبة والنوايا الجيدة ليست كافية إطلاقا في هذه البيئة، فأنت بحاجة لأن تكون جريئا واستراتيجيا. فعندما تواجه اختلافات الناس أو عِداءًا صريحا منهم، عليك أن تكون عدوانيّا وتدفعهم بعيدا عن طريقك بأية وسيلة ضرورية. ولا تقلق بشأن عدم حب بعض النّاس لك، ففي هذه الحالة سيبحث هو عن أي فرصة للقيام بخطوة جريئة كهذه، ويوما ما ستظهر تلك الفرصة التي تتيح له الأمر.

في نادي بمنهاتن، كان فيفتي يتحدث مع صديق له من الحيّ عندما رأى مغني الراب {جارول} يحدق باتجاهه. صديق فيفتي هذا كان قد سلب {جارول} من بعض المجوهرات في وضح النهار قبل عدة أسابيع. فتوقع فيفتي أن يأتي جارول ويسبب بعض المشاكل، إلاّ أنه بدلا من ذلك أشاح بنظره بعيدا و الأمر الذي يعد صادما نوعا ما. فجارول هو واحد من أفضل مغني الراب في المجال وقد بنى سمعته استنادا لكونه رجل عصابات من منطقة جنوب كوينز، و كلماته تعكس صورته كرجل قوي . فتحالف هو وعلامته الموسيقية {شركة القتل} مع - الرئيس كينيث - أم جي غريف، الرئيس السابق لـ{الفريق الأعلى} وهي عصابة تحكمت في تجارة المخدرات في نيويورك في فترة الثمانينيات بأساليبها القاسية. منحهم الفريق الأعلى مصداقية الشارع، أما شركة القتل فقد فتحت للفريق بوابة في عالم الموسيقى، كشيء مشروع لإبعاد نفسه عن ماضيه المظلم.

لا يوجد محتال أو رجل عصابة حقيقي يتجاهل الرجل الذي سرقه بوقاحة أبدا. وما يعنيه ذلك لفيفتي هو أن جارول كان مزيفاً، كل كلماته وصورته ليست إلا استعراضا لكسب المال، فهو مغرور وغير واثق. على أثر ذلك تشكلت في ذهنه فكرة الخُذعة المتقنة، تلك التي تجذب له الانتباه و تساعده على إبعاد جميع هؤلاء الذين يقفون في طريقه.

في الأسابيع القادمة، بدأ فيفتي بإصدار أغنية مُهينة استهدفت جارول، وقد وضعه في صورة على أنه من {عصابة استوديو} الذين استعانوا بأشياء لم يسبق لهم تجربتها. وقد انزعج جارول من هذا لكنه لم يرد على استهزاء فيفتي. ومن الواضح قد اعتبر نفسه أكبر من أن يشغل ذاته بهذه السمكة الصغيرة. فكانت الخطوة التالية لفيفتي، التي لن يتجاهلها. إصداره أغنية تُفصِّل أنشطة قادة العصابات الأكثر شهرة، بما في ذلك {الفريق الأعلى} بمنطقة جنوب كوينز في الثمانينيات. وعندما أصبحت الأغنية شائعة في الشوارع، جلبت لـ{الفريق الأعلى} نوع من الانتباه الذي كان يحاول تجنبه، والآن بعد أن أصبح شيئا منطقيا. جعله هذا غاضبًا ومريبًا - فماذا سيفعل فيفتي بعد ذلك؟ وقد ضغط على جارول لملاحقته وتدمير هذا المغرور قبل أن يذهب بعيدًا جدًا.

فأصبح جارول مرغما الآن على مطاردة فيفتي، وقد حاول كل ما في وسعه لإخراسه، فنشر شائعات مقززة حول ماضي فيفتي، وحاول منع أي صفقة موسيقية قد يحاول إبرامها. في مرحلة معينة كان فيفتي موجود في نفس استوديو التسجيل الذي يكون فيه جارول، فيدفع الأخير و طاقمه إلى المشاجرة. أراد بهذا أن يخيف فيفتي بما لديه من قوة عضلية وسمعة، ولكن هذا لم يؤدي إلا

لجعل فيفتي يرفع وتيرة الأغاني المسيئة التي أطلقها. حيث رغب في أن يضغط على جميع أوتار جارول، لجعله غاضبا وفاقدا للثقة ومُتحرّقا للانتقام. وسيبقى هو هادئا واستراتيجيا بينما يفقد خصمه السيطرة على نفسه. لهذا الغرض أطلق على جارول لقب {وانتاسكا} ويقصد به زعيم العصابة المتظاهر أو المستعرض، وسخر من طريقة غنائه وكلماته وكل ما يتعلق بصورته المفترضة كرجل قوي. كانت الأغنية ملهمة، و موجعة وساخرة.

أصبح جارول تدريجيا أشد غضبا، حيث وصلت هذه الأغاني إلى الراديو، والصحافيين أزعجوه بأسئلة عن فيفتي. وقد اضطر أن يثبت خشونته وأنه ليس {وانتاسكا}، لذا أطلق أغانيه المسيئة هو الآخر. ولم تكن أغانيه متقنة على أي حال، فهي تدور فقط حول العنف والوحشية. ومن دون أن يعي ذلك صار دفاعيا و غير ممتع كثيرا.

وقد تم إصدار ألبوم فيفتي الأول في نفس الوقت الذي صُدر فيه ألبوم جارول، و تخطت مبيعات الأول جميع منافسيه بفارق كبير. أصبح هو النجم الساطع، بينما بدأ جارول يتلاشى من المشهد. ومن أجل التوافق مع دوره الجديد، اوقف فيفتي الاعتداءات، غالبا بسبب الشفقة على خصمه السابق. حيث قد أدّى جارول الغرض المطلوب ومن الأفضل أن يتركه للنسيان.

الأسلوب الجريء

الطريقة التي تعلمتها هي أن الطّفل الذي لا يرغب في العراك في ساحة المدرسة يغادر دائما بعين سوداء. إذا تبيّن بأنك ستفعل أي شيء لتجنب المشكلات، فهذا هو الوقت الذي ستقع به فيهم.

{فيفتي سانت}

تتضمن الحياة معارك ومواجهات مستمرة، وهذا يأتي على مستويين، في المستوى الأول نحن لدينا رغبات وحاجات، وهي مصالحنا الشخصية التي نرغب في انْمائِها. هذا يعني في عالم متنافس بشدة، يجب علينا إثبات ذواتنا و حتى دفع الناس من أماكنهم من حين لآخر لأجل إيجاد

طريقنا. وعلى المستوى الآخر هناك دائما أشخاص أكثر عدوانية منا وهم يعترضون طريقنا في مرحلة ما من حياتنا، محاولين منعنا أو إيذاءنا. فعلى كلا المستويين، نلعب في اتجاهي الهجوم والدفاع، حيث علينا أن ندير مقاومة الناس وعدوانيتهم. تلك هي الدراما البشرية منذ فجر التاريخ، ولا يمكن لأي مقدار من التطور أن يغير هذه الديناميكية. فالشّيء الوحيد الذي تغير هو كيفية إدارتنا لتلك اللحظات من الصراع التي لا محالة من وقوعها في حياتنا.

كان النّاس في الماضي، يتمتّعون برغبة كبيرة للمعارك. ونستطيع قراءة هذا في كل أنواع السّلوك الاجتماعي. على سبيل المثال، في المسرح كانت ممارسات شائعة في القرن التاسع عشر لدى الجماهير في أوروبا وامريكا ، حيث كانوا يُعبرون عن احتجاجهم على الممثلين أو على العرض بالصراخ والصياح أو قذف الأشياء على المنصة. غالبا ما تنشب الشجارات على المسرح بسبب اختلاف الآراء، ولم يكن ذلك بسبب القلق بل جزءا من الفتنة. وفي الحملات السياسية كان مقبولا كتصرف عادي أن يقوم أنصار الأحزاب بمواجهة بعضهم في الشوارع بسبب مصالحهم المُتباينة. كانت الديمقراطية تعد نابضة بالحياة بسبب السماح بمثل هذه الخلافات العلنية كنوع من صمام الأمان لتفريغ عدوانية الإنسان.

في الوقت الحاضر نميل إلى وضع مناقض، حيث نكون عموما أشد اضطرابا عندما يتعلق الموضوع بالمواجهة. إذ غالبًا ما نأخذ الأمر بشكل شخصي إذا اختلف معنا شخص ما بشكل صريح أو عبر عن رأي مخالف لرأينا. كما نخاف من قول شيء قد يسئ ببساطة إلى من حولنا، كما لو أن نفوسهم هشة جدا. إن الثقافة تميل إلى تشجيع قيمة روح التعاون، أن تكون ديمقراطيا وعادلا، يعني أن تقف جنبا إلى جنب مع الآخرين، وأن تتأقلم معهم، وعدم نفش ريشك عليهم. يكاد يكن الصراع والاحتكاك أمرين شّريرين، نحن مدعوون لأن نكون محترمين ومقبولين. ومع ذلك فإن الجانب الحيواني في الإنسان يبقى محتفظا بطاقته العدوانية وكل ما يحدث هو أن الكثير من النّاس يوجهون هذه الطاقة إلى سلوك عدواني سلبي و الذي يجعل كل شيء أكثر تعقيدا.

في مثل هذا الجو، ندفع جميعًا ثمنًا. عندما يتعلق الأمر بالجانب الهجومي للسطوة، والذي يتطلب منا اتخاذ أفعال قوية وضرورية لتعزيز مصالحنا، نصبح مترددين وغير واثقين. وعند التعامل مع العدوانيين والعدوانيين الفاعلين من حولنا قد نكون سذج قليلا، فنرغب بتصديق بأنّ هؤلاء الناس هم مسالمون في حقيقتهم ويرغبون في ذات الأشياء التي نرغبها. غالبا ما نتعلم في وقت

متأخر جدا بأن القضية لا تتعلق بذلك. إن عدم القدرة على التعامل مع لحظات لا محالة من وقوعها في الحياة هو سبب العديد من المشاكل. حيث نعمل على تأجيل أو تجنب الاشتباكات، وعندما تصل الأخيرة إلى مرحلة لا نستطيع بعدها أن نلعب تلك اللعبة السلبية، نجد أننا نفتقر إلى الخبرة والعادة في مواجهتها.

إن الخطوة الأولى في تجاوز ما سبق ذكره، أنّ إدراك القدرة على التعامل مع النّزاع هي وظيفة للقوة الداخلية في مواجهة الخوف، ولا علاقة لها بالصلاح أو الفساد. فعندما تشعر بالضعف والخوف سينتابك إحساس بعدم القدرة على إمساك زمام أي نوع من المواجهات، فقد تنهار أو تفقد السيطرة أو تتأذّى. ومن الأفضل إذن إبقاء كل شيء سلسا، وإذا كان هدفك الرئيسي عندئذ أن تكون محبوبا، اعلم أنه سيصبح نوع من الدرع الدفاعي. {فأغلب ما يتم تمريره على أنه سلوك جيد ولطيف هو في حقيقته انعكاس لمخاوف عميقة}.

ما تريده بدلا من ذلك هو أن تشعر بالثقة والقوة من الداخل. فأنت لديك استعداد لتثير استياء الناس من وقت لآخر لتجد الراحة في مهاجمة هؤلاء الذين يقفون ضد مصالحك. انطلاقا من وضعية القوة هذه، فأنت قادر على إدارة النزاع بطريقة فعالة وذلك بأن تصبح سيئا عندما يكون هذا ملائما.

لا تأتي هذه القوة الداخلية على أية حال بشكل فطري، المطلوب هو بعض الخبرة. هذا يعني بأنه يجب عليك أن تثبت ذاتك في حياتك اليومية أكثر من المعتاد، حيث عليك مواجهة المعتدي بدلا من تجنبه، وأن تخطط و تقاتل للحصول على شيء تريده بدلا من انتظار أحد ما ليعطيك إياه. وستلاحظ عموما أن مخاوفك قد ضخمت لك تبعات هذا النوع من السلوك. فأنت ترسل اشارات إلى الآخرين بأن لديك حدودا لا يمكن تخطيها ومصالحا لديك الاستعداد للدفاع عنها أو تعزيزها. وستجد نفسك قد تخلصت من هذا القلق الدائم من مواجهة الناس، ولم تعد مقيّدا بذلك اللطف المزيف المغروس في أعصابك. إن المعركة القادمة ستصبح أسهل، إذ ستزداد ثقتك في إدارة لحظات النزاع مع كل مواجهة.

في الحي الفقير، لا يملك الناس رفاهية القلق حول ما إذا كان الآخرون يحبونهم. إن الموارد محدودة، والجميع يتصيد السّطوة لِيُحاولوا الحصول على ما يستطيعونه، إنها لعبة قاسية وليس هناك مجال لأن تكون ساذَجًا أو تنتظر حدوث أشياء جيدة. حيث يجب أن تتعلّم أن تأخذ ما

تحتاجه دون الإحساس بالذنب بشأنه. فإذا كانت لديك أحلام وطموحات فأنت تعلم بأنه لأجل تحقيقها يجب عليك أن تكون نشيطا، وإحداث بعض الفوضى و إيذاء القليل من الأشخاص في طريقك. كما يجب أن تتوقّع أن يفعل الآخرون لك نفس الشّيء، إنها طبيعة الإنسان، فبدلا من التّذمر، عليك ببساطة أن تصبح أفضل في حماية ذاتك.

نواجه جميعنا نفس هذه الديناميكية التنافسية. فالناس من حولنا يتصارعون للارتقاء بمصالحهم. ولكن لأن معاركنا أكثر رقة وخِفيةً، نغفل فيها عن رؤية الجوانب القاسية من اللعبة. وغالبا ما نكون واثقين جدا في الآخرين، على أن ذلك سيجلب لنا أشياءً جيدة في المستقبل. لذا يُمكننا استخدام بعض القسوة والواقعية التي يتمتع بها الأشخاص الناشئين في بيئات مضغوطة. ممّا يمكّننا من رسم خط فاصل بسيط، فجميعنا لدينا طموحات و أهداف كبيرة لأنفسنا، إمّا أن ننتظر اللحظة المناسبة لتحقيقها، أو نتّخذ تصرّفا في الوقت الحاضر. و هذه الأفعال تتطلب بعض الطاقة العدوانية الموجهة بطريقة ذكية، والاستعداد لإثارة استياء شخص أو اثنين ممن يعترضون طريقنا. فإذا كنا ننتظر مكتفين بما لدينا فهذا ليس بسبب كوننا لطفاء وصالحون و إنما لأننا جبناء. وعلينا أن نتخلص من الخوف والذنب الذي قد نشعر به عند إثبات ذواتنا، فهو لا يخدم أي غرض عدا إبقائنا في القاع.

غالبا ما اضطرت الأنواع الجريئة في التاريخ أن تواجه الكثير من العداوات في حياتها، وأثناء فعل هذا اكتشفوا بقوة الدور الهام الذي يلعبه اتجاه الفرد في إحباط عدوانية الآخرين. أُنظر إلى {ريتشارد رايت}، أول كاتب {أفريقي – أمريكي} يحقق أعلى مبيعات في تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية. حيث والده قد هجر والدته بعد مولده بفترة قصيرة في عام 1908م، ولم يعرف في طفولته سوى الفقر والجوع. أما عمُّه، الذي عاشوا معه، فقد أُعدِم من قبل حشد من البيض، ثم أُجبرت عائلته {رايت وأمه وأخوه} على المغادرة جوا من اركنساس والعبور إلى الجنوب. وعندما مرضت أمه وأصبحت عاجزة، تم تنقيله من عائلة إلى أخرى لدرجة أنه كان يمضي بعض الوقت في دار للأيتام. كما أن أفراد الأسرة التي احتضنته كانوا هم أنفسهم فقراء ومحبطون ويضربونه باستمرار. فاستشعر زملائه في المدرسة اختلافه عنهم {كان خجولا ويحب قراءة الكتب}، لذا فقد سخروا منه ونبذوه. وفي العمل ، أخضعه رؤسائه البيض لإهانات لا نهاية لها كالضرب والفصل من العمل دون سبب واضح.

خلقت هذه التجارب فيه طبقات معقدة من الخوف. ولكن بقراءته للمزيد من الكتب عن العالم الأكبر وبتفكير أعمق، برزت روح مختلفة بداخله – وهي، الحاجة للتمرد وعدم قبول الوضع الحالي . فحينما هدّده عم له بالضرب لسبب تافه، قرر بأنه اكتفى و طفح به الكيل. وعلى الرغم من كونه مجرد طفل إلا أنه حمل شفرتي حلاقة في يديه وأخبر العمّ بأنه مستعد لخوض القتال، ولم يعد يتعرض للإزعاج من هذا العمّ مرة أخرى أبدا. عند رؤيته القوة الناتجة من هذا الاتجاه، قام بتحويله الآن إلى شيء أكثر تنظيما وتحت السيطرة، ففي الوقت الذي تصبح فيه شروط العمل مستحيلة سيترك الوظيفة - وهي إشارة وقحة لرؤسائه البيض - الذين أذاعوا الأمر في أنحاء المدينة. ولم يكترث باعتقاد الناس بأنه مختلف بل كان فخورا بهذا. ومن خلال شعوره بأنه مُحاصر في مدينة جاكسون، و مسيسيبي، لما بقي من حياته، استمرّ تَوْقُه للهروب إلى الشمال، فأصبح مجرما للمرة الأولى والأخيرة في حياته، حيث سرق ما يكفي من المال ليدفع ثمن رحلة خروجه من المدينة، وقد شعر بالإنصاف بل وأكثر عند فعله ذلك.

تغللت هذه الروح فيه طوال ما تبقى من حياته. وباعتباره كاتبا ناجحا يعيش في شيكاغو، شَعر بأن رواياته يُساء فهمها من قبل الجمهور الأبيض، الذي يجد بعناد طريقة ما للتّقليل من شأن رسالته حول التّحيُّزات العرقية، وذلك من أجل رؤية ما يريدون رؤيته فقط في أعماله. ثم أدرك بأنه كان يتراجع، عندما حاول ترتيب كلماته لتلائمهم. فهذه المرة اضطر مجددا أن يقضي على هذا الخوف المرتبط بإرضاء الآخرين ليُؤلف كتابا لا يمكن إساءة فهمه، وسيكون كئيبا كالحياة التي عرفها من قبل . وهذا الكتاب هو {الابن الأصلي} ، و روايته الأكثر نجاحا وشهرة .

ما اكتشفه {رايت} كان بسيطا: عندما تتقدم بطيبة إلى أفراد عدوانيين أو وضعية غير عادلة أو مستحيلة فإنك لا تشتري لنفسك أي سلام حقيقي، بل تشجع الناس على المضي أبعد من ذلك - ليأخذوا منك أكثر و يستغلوك لأهدافهم الخاصة. فهم يشعرون بقلة احترامك لذاتك ويرون العدل في إساءة معاملتك. إذا كنت متواضعا فستحصد نتائجا من الإهانة. وعليك أن تنمي العكس - موقف قتالي نابع من العمق ولا يمكن هزه، وذلك بأن تفرض بعض الاحترام لنفسك.

هكذا هي الحياة مع الجميع: سيأخذ منك الناس ما يستطيعون أخذه. إذا شعروا بأنك من نوع الشخص الذي يقبل ويخضع، فسيستمرون في ذلك أكثر فأكثر إلى أن يُقيموا معك علاقة استنزافية مبنية على أخذ منك ما في صالحهم. فالبعض يفعل ذلك علنا، بينما يكون البعض الآخر أكثر خِفية

وعدوانية بشكل فاعل. لذلك عليك أن تُظهر لهم بأن هناك خطوطا لا يمكن تجاوزها، حيث سيدفعون ثمنا عند محاولتهم دفعك جانبا. وينتج هذا من أسلوبك الجريء والمستعد للقتال دائما، وهو شيء سيشع خارجا منك ومن الممكن استقراءه في سلوكك دون حاجة لأن تنطق بكلمة. بحسب قانون متناقض للطبيعة البشرية، إنّ التّقليل من محاولة إرضاء الناس ستؤدي بهم تقريبا على المدى الطويل إلى احترامك ومعاملتك بشكل أفضل.

مفاتيح الجرأة

إن الطريقة التي نعيش بها هي بعيدة كل البعد عن الطريقة التي يجب أن نعيش بها، فالشخص الذي يتخلى عما تم عمله لأجل ما يجب أن يكون قد تم عمله، سيتعلم بدلا من ذلك أن يحقق فساده الخاص فوق تحفظاته. فالرجل الذي يتمنى أن يخلق صلاحا مثاليا في كل شيء، يجب عليه بالضرورة أن يشعر بالأسى بين الكثير من الأشياء غير الجيدة. لهذا فمن الضروري بالنسبة للأمير الذي يرغب في المحافظة على نفسه أن يتعلم متى يكون سيئا، وأن يستخدم هذه المعرفة أو لا يستخدمها حسب ضرورة الحال.

{نيقولو ميكافيللي}

عندما يتعلق الأمر بالأخلاق، كلنا تقريبا نعاني من ازدواجية في وعينا. فمن ناحية، ندرك الحاجة لاتباع بعض قواعد السلوك الأساسية المعمول بها منذ قرون، حيث نحاول التقيد بها في حياتنا بأفضل صورة مُمكنة. ومن ناحية أخرى، فإننا نستَشعر أن العالم أصبح أكثر قدرة على المُنافسة بشكل غير محدود، وأكثر من أي شيء عرفه آبائنا أو أجدادنا من قبل. ومن أجل المضي قدما في هذا العالم يجب أن نكون على استعداد لتعطيل هذه القواعد الأخلاقية من وقت لآخر؛ كاللعب بالمظاهر، وإخفاء الحقيقة وإظهار أنفسنا بصورة أفضل، والتلاعب بشخص أو اثنين للمحافظة على مركزنا. إنّ الثقافة تعكسُ على المدى الواسع هذه الازدواجية، فهي تعزز قيم التعاون

والأدب، بينما تثيرنا دائما في وسائل الإعلام بقصص لا حصر لها عن أولئك الذين صعدوا إلى القمة لكونهم سيئون وقساة. ويتم شد انتباهنا وصده في الوقت نفسه من خلال هذه القصص.

وقد أدت هذه الازدواجية إلى خلق تناقض وغرابة في تصرفاتنا. فنحن لا نتقن كثيرا أن نكون جيدين أو سيئين على حد سواء . فعند قيامنا بفعل متلاعب بشكل ضروري، فإننا نمارسه بنصف قلب وبعض الإحساس بالذنب، إذ نكون غير متأكدين حول كيفية التصرف بهذه الطريقة ومتى نلعب الدور الأكثر عدوانية وإلى أي مدى نمضي فيه.

لاحظ الكاتب الفلورنسي العظيم في القرن السادس عشر {نيكولو ميكافيللي} ظاهرة مشابهة في عصره. فعلى مستوى مختلف انقسمت إيطاليا إلى عدة دُويلات تتجاذب السلطة باستمرار، و كانت تلك بيئة معقدة خطرة على القائد. وعند مواجهة دويلة منافسة كان على الأمير أن يلتزم أقصى الحذر. فهو يعلم أن هؤلاء المنافسين سيفعلون أي شيء لتعزيز مصالحهم، بما في ذلك، عقد اتفاقيات مع آخرين لعزله أو تدميره، وعليه أن يكون مستعدا للقيام بأي نوع من المناورات لحماية دولته. في الوقت ذاته كان متشربا لقيم المسيحية، إذ يجب عليه هنا أن يرمي بعيدا نوعين من القواعد الأخلاقية؛ الأولى متعلقة بالحياة الخاصة والثانية بلعبة السلطة. وهذا ما كان سببا للغرابة، إذ لم يحدد أحد في الحقيقة ثمة معايير أخلاقية لكيفية الدفاع عن دولته وتقويتها. فإذا أصبح عدوانيًّا جدا سيبدو سيئا على نطاق واسع وسيعاني بسبب هذا، أما إذا كان طيبا جدا ولطيفا ستقع دولته بيد أحد الخصوم جالبا البؤس لمواطنيه.

لم تكن المشكلة بالنسبة لميكافيللي هي تعديل القائد لأخلاقياته بما يناسب الظروف، فالكل يفعل هذا، بل في أنه لا يقوم بذلك جيدا. وكثيرا ما يكون عدوانيًّا في الوقت الذي يحتاج فيه أن يصبح ماكرا أو العكس. فهو لا يستوعب مثلا أن الدولة التي كانت صديقة تخطط الآن ضده، وأن استجابته ستكون يائسة جدا. فعندما ينجح هدف ما، يتجاوز الناس عادة بعض التكتيكات القذرة التي كانوا مجبرين على استعمالها، أما إذا فشلوا فإن هذه التكتيكات نفسِها توضع تحت المجهر وتدان.

وعلى الأمير أو القائد أولا أن يكون مؤثرا في أفعاله، وَليتمكّن من ذلك يجب أن يتقن فن معرفة متى وكيف يصبح سيئا. ويتطلب الأمر بعض الجرأة والمرونة. فعندما يستدعي الوضع، يجب أن يكون أسدا عدوانيّا ومباشرا في الدفاع عن دولته أو انتزاع شيء ما لحماية مصالحه. وفي أوقات

أخرى عليه أن يشق طريقه كالثعلب بواسطة مناورات ماكرة تغطي عدوانيّته. ويجب أن يلعب معظم الوقت دور الحمل الوديع المراعي لغيره، والمَخلوق الطّيب المُعظّم في الثقافة، هو سيء بطريقة جيدة وبمعيار ملائم للوضع، ويلتزم الحذر في تبرير أفعاله للعامة، وعاكسا أقذر تكتيكاته من وراء الكواليس. فإذا أتقن فن كونه سيّئا، فإنه يستخدمه بصورة مقننة، محققا المزيد من السلام والقوة لمواطنيه أكثر من ذلك الأمير المتردد الذي يحاول أن يكون طيبا جدا.

يجب أن يكون هذا النموذج هو ما نحتذي به جميعا، فكلنا الآن أُمراء نتصارع مع آلاف الدول المنافسة، لدينا طاقتنا العدوانية الخاصة و رغباتنا في السلطة. فإذا تصرفنا طبقا لها دون وعي أو بطريقة غير ملائمة، فقد نصنع لأنفسنا مشاكل لا نهاية لها. وعلينا أن نتعلم إدراك ماهية الحالات التي تستدعي أفعال حازمة {ولكن تحت السيطرة}، وأي نوع من الهجوم يكون مناسبا {الذئب أو الأسد}.

وما يلي هو أشهر السيناريوهات والخصومات الشائعة التي ستواجهُها والتي تتطلب صورة ما من الشر من أجل الدفاع عن مصالحك أو تعزيزها:

العدوانيون

في عام 1935م، كان بعض المحسوبين على اليسار في الولايات المتحدة الأمريكية ساخطين على الإصلاحات التي قام بها الرئيس فرانكلين ديلانو روزفلت، وقد عُرفوا باسم {الصفقة الجديدة}. رأوا بأن تلك الإصلاحات لا تتم بالسرعة الكافية فقرروا أن يتحدوا معا فيما عرف لاحقا بـ{حزب الاتحاد}، بهدف إذكاء روح السخط. كما أنهم سيقفون ضده في عام 1936م، وكان التهديد حقيقيا جدا لأنهم سيحصلون على دعمٍ يكفي لتحويل الانتخابات لصالح الجمهوريين. وضمن هذه المجموعة كان {هيوي لونج} السيناتور الجمهوري الكبير من لويزيانا، و الأب الروحي {تشارلز كافلين} وهو كاهن كاثوليكي لديه برنامج إذاعي مشهور. قد كانت أفكارهم اشتراكية بشكل غامض، و جذبت الكثيرين ممن شعروا بالحرمان في فترة الكساد الكبير. بدأت اعتداءاتهم على الرئيس روزفلت تُحدث أثرًا؛ حيث هبط عدد الناخبين المؤيدين له، و بالإضافة إلى جُرأَتِهم فقد أصبحوا أيضا أشدّ عدوانية و عنادا في حملتهم.

بقي روزفلت صامتا أغلب الوقت وسط كل هذا، تاركا لهم حرية ملئ المكان بطاقاتهم وتهديداتهم. فأحسّ مستشاروه بالذعر، حيث رأوا بأنه أصبح سلبيا جدا، ولكن بالنسبة لروزفلت كان ذلك جزءا من خطة - فقد شعر يقينا أن العامة سيُتعبون حتما من اعتداءاتهم الشديدة بمرور الأشهر، كما رأى أن الفصائل ضمن حزب الاتحاد ستبدأ في الصراع مع بعضها البعض مع اقتراب الانتخابات. و بناءًا عليه نصح ممثليه بعدم إيذاء هؤلاء الرجال.

في الوقت ذاته كان يذهب إلى عمله من وراء الكواليس في لويزيانا، ففصل أكبر عدد ممكن من العاملين الموالين {للونج} واستبدلهم بأشخاص يناصرونه. كما أطلق تحقيقات مفصلة عن شئون السيناتور المالية المشكوك فيها. أما بالنسبة لكافلين فَقدْ عَمِل على تدميره بواسطة كاهن مسيحي آخر معروف، جاعلا إيّاه يبدو كسطحي متطرف. كما أصدر قوانينا أجبرت كافلين للحصول على تصريح بث الإذاعة لعروضه، وعندئذ وجدت الحكومة أسبابا لرفض طلباته وإسكاته مؤقتا. كل ما سبق ساهم في تشتيت وإخافة أعداء روزفلت، وقد حدث ما توقعه، حيث بدأ الحزب بالانشقاق وفَقَدَ الجمهور اهتمامه. ثم فاز روزفلت في انتخابات 1936م، في انعطاف غير مسبوق للأحداث.

أدرك روزفلت مبدأً أساسيا للاستعداد في مواجهة العدوانيين المباشرين و المتصلبين، فإذا قابلتهم وجها لوجه ستكون مرغما على القتال بشروطهم، مالم تكن أنت ذاتك من النوعية العدوانية فستخسر عموما في مواجهة هؤلاء ممن يمتلكون أفكارا بسيطة وطاقة عنف. من الأفضل قتالهم عبر مناورات غير مباشرة، مخفيا نواياك، لتفعل ما تستطيع خلف الكواليس - بخفاء عن العامة - لخلق العقبات وزرع الارتباك. بدلا من الرّد، عليك أن تمنح العدوانيين بعض المساحة ليمضوا أبعد في اعتداءاتهم، لتدفعهم لإظهار أنفسهم في هذه العملية، الأمر الذي يمنحك عددا كبيرا من الأهداف المثيرة لإصابتها. إذا كنت منفعلا كثيرا وقويا في استجابتك، ستبدو دفاعيا جدا. فأنت تلعب كذئب مقابل أسدهم، وذلك ببقائك هادئا وحاسبا خطواتك، وفاعلا ما يمكنك وراء الكواليس لجعلهم عاطفيين أكثر، ونصب الأفخاخ لهم لينهاروا من خلال طاقة تهورهم.

العدوانيون الفاعِلون

هذه النوعيات معلمون في الخداع، إذ يُظهرون أنفسهم كضعفاء ومعدومي الحيلة، أو ذوو أخلاق عالية، أو صالحون أو لطفاء و متزلفين، الأمر الذي يجعل من الصعب اكتشافهم من النظرة الأولى. بالإضافة إلى ذلك فهم يُرسلون جميع أنواع الإشارات المختلطة متقلبين ما بين اللطف، الهدوء، العداء، ويخلقون هالة من التشويش والعواطف المتناقضة. فعندما تحاول التعامل معهم بنفس سلوكياتهم، فإنهم سيستخدمون هذا التضليل لجعلك تشعر بالذنب وكأنك أنت مصدر المشكلة. أما لو انجرفت بعواطفك في الدراما الخاصة بهم، سيتعسر عليك كثيرا فصل نفسك عنهم. إن المفتاح السري هنا هو إدراك حقيقتهم في الوقت المناسب من أجل اتخاذ إجراءات ملائمة.

فعندما التقت الدوقة الكبرى {كاثرين المستقبلية - إمبراطورة روسيا ، كاثرين العظمى} بخطيبها {بيتر}، أحست بأنه لا زال طفلا بريئا في أعماقه. حيث استمر في اللعب بدمى على هيئة جنود وكان يتمتع بمزاج مشاكس ومتقلب. وبعد زواجهما في 1745م، بفترة قصيرة بدأت تكتشف جانبا مختلفا من شخصيته. حيث كانت الأمور في حياتهما الخاصة تجري على ما يرام، لكنها بعدئذٍ سمعت من مصادر أخرى جميع أنواع القصص المقرفة حول ندمه على زواجهما وأنه يفضل خادمتها عليها. فما الذي يفترض بها أن تصدقه – هل هذه القصص أم لطفه حينما يكونا معا؟ في الوقت الذي أصبح فيه {القيصر بيتر الثالث} دعا كاثرين بلطف إلى زيارته في الصباح ولكنه تجاهلها بعد ذلك. و حينما توقف بستاني القصر عن جلب فاكهتها المفضلة اكتشفت أن الأمر كان بناءً على طلبه. كان بيتر يفعل كل ما بوسعه لجعل حياتها بائسة وإذلالها بطرق خفية.

اكتشفت كاثرين مبكرا لحسن الحظ أنه متلاعب محترف، ومن الواضح أن غلافه الطفولي لم يكن موجودا إلا لإبعاد الانتباه عن جوهره الانتقامي التافه. بحسب اعتقادها فإن هدفه هو استدراجها للقيام بشيء طائش يمنحه سببا لتدميرها أو التخلص منها. فقررت أن تنتظر حلول الوقت المناسب لها لتكون لطيفة بقدر الإمكان، وتكسب بعض الحلفاء الرئيسين في القَضاء والجيش وكان الكثيرون منهم يحتقرون القيصر.

وأخيرا وبفضل دعم بعض حلفائها، حرّضت انقلابا سيؤدي إلى التخلص منه دفعة واحدة وإلى الأبد. وحينما أصبح واضحا أن الجيش يساند كاثرين وسيتم اعتقاله قريبا، بدأ بيتر في التوسل إليها ومناشدتها، حيث سيغير أساليبه ويحكمان معا ولكنها لم تُجب. فأرسل رسالة أخرى يقول فيها بأنه سيتنازل عن الحكم، فقط لأجل أن يعود بسلام إلى مملكته الخاصة برفقة امبراطورته، إلا أنها رفضت العرض. ثم اعتُقِل، وبعد ذلك بفترة قصيرة قُتل على يد أحد مؤيدي الانقلاب، ربما بموافقة الإمبراطورة.

كانت كاثرين من نوعية الشخصيات الجريئة الكلاسيكية. حيث قد أدركت أنه مع العدوانيين الفاعلين يجب ألا تصبح عاطفيًا وألاّ تندرج في مؤامراتهم التي لا تنتهي. فإذا استجبتَ بطريقة غير مباشرة و بنوع من العدوانية السلبية فإنك تلعب بين أيديهم، فهم أفضل منك في هذه اللعبة. فإذا كنت مخادعا ومتلاعبا فلن يؤدي الأمر إلا لوخز مواطن انعدام الأمان لديهم فيضاعف طبيعتهم الانتقامية. إن الطريقة الوحيدة لمعاملة هذه النوعيات هي اتخاذ إجراءات جريئة لا رجعة فيها يترتب عليها إما ردعهم عن أي إزعاج مستقبلي أو دفعهم للهروب، إذ يستجيبون فقط للقوة والحزم. كما أن امتلاك حلفاء فوق التسلسل الهرمي قد يساعد بوصفه وسيلة لإيقافهم. فأنت تلعب كأسد في مقابل ذئبهم، جاعلا إياهم خائفين منك. وسيرون أنه ستكون هناك عواقب حقيقية لو استمروا في سلوكهم بأي شكل من الأشكال.

للتعرف على هذه الشخصيات، انتبه الى السلوك المبالغ فيه بشكل غير طبيعي، كاللطف الشديد، التملق الزائد، أو الأخلاقيات العالية جدا، فغالبا ما يكون تمويهًا يتم ارتداؤه لصرف الانتباه عن طبيعتهم الحقيقية. و الأفضل أن تكون سبّاقا لتتّخذ إجراءات وقائية في اللحظة التي تشعر فيها بأنهم يحاولون دخول حياتك.

أوضاع غير عادلة

في وقت مبكر من بداية عام 1850م، توصل {أبراهام لنكولن} إلى قناعة بأن مؤسسة العبودية هي أعظم وصمة في ديمقراطيتنا ويجب إزالتها. ولكن عند استطلاعه للمشهد السياسي أصيب بالقلق، حيث كان السياسيون في اليسار صاخبين جدا ومتحمسين بشدة لأجل تشجيع الإلغاء. حيث ستنقسم البلاد على إثر ذلك، ويستغل مالكوا العبيد بسهولة هذه الانقسامات السياسية للمحافظة

على وسيلة عيشهم لعقود. كان لينكولن واقعيا ماهرا، فإذا أردت أن تنهي ظلما معينا فعليك أن تستهدف النتائج، الأمر الذي يتطلب أن تكون استراتيجيا وحتى مخادعا.

فأصبح على استعداد لفعل أي شيء بغرض إنهاء العبودية. قرر أنه هو نفسه السياسي الأنسب لهذه القضية. فكانت خطوته الأولى أن يتقدم بواجهة معتدلة للعامة في حملته الانتخابية لعام 1860م، وكذلك بعد الانتخابات وصولا إلى الرئاسة، حيث أعطى انطباعا بأن هدفه الرئيسي هو المحافظة على وحدة البلاد وإلغاء العبودية تدريجيا من خلال سياسة احتوائية. وعندما أصبحت الحرب لا مفر منها في عام 1861م، قرر أن يضع فخا ذكيا للجنوب من خلال استدراجهم للقيام بهجوم على حصن {سومترا}، مما سيجبره على إعلان الحرب. وقد جعل ذلك الشمال يبدو وكأنه ضحية عدوان. فجميع هذه المناورات كانت موجهة لإبقاء أنصاره في الشمال متحدين نسبيا، حيث أن معارضته تعني معارضة جهوده لهزيمة الجنوب والمحافظة على الوحدة، أما قضية العبودية فقد كانت تتسلل من وراء الكواليس. حيث أنّ الواجهة الموحدة لمناصريه جعلت من المستحيل للعدو أن يمارس ألعابا سياسية .

مع تحول اتجاه الحرب لصالح الشمال، انتقل لينكولن بالتدريج إلى أوضاع مصيرية أكثر {منصوص عليها في إعلان الاستقلال وخطاب جتسبرغ}، عالما بأن لديه مجالا من الوقت للكشف عن أهدافه الحقيقية والعمل على تنفيذها. وبقيادته الشمال نحو النصر أصبحت لديه مساحة أكبر للاستمرار بحملته. باختصار، من أجل القضاء على العبودية، استعدّ لينكولن للتلاعب بالرأي العام عن طريق إخفاء نواياه الحقيقية وممارسة الخداع الصريح من خلال المناورات السياسية، وهذا يتطلب الجرأة والصبر من جانبه. وقد أخطأ الجميع تقريبا في قراءة نواياه وانتقدوه لكونه انتهازيا {ولا زال البعض يصر على ذلك}.

عند مواجهة وضع غير عادل، أمامك خيارين، إما أن تعلن على نحو صارخ عن نواياك لهزيمة الأشخاص الذين يقفون خلفك، مما يجعلك تبدو بمظهر نبيل وطيب أثناء سير الأمور. إلا أن ذلك سيؤدي في النهاية إلى استقطاب عامة الناس {حيث ستصنع عدوا واحدا عنيدا مقابل كل متعاطف مع مبررك}، كما أن نواياك ستكون واضحة. بالإضافة الى أنه إذا كان العدو مخادعا فستستحيل هزيمته. أما لو تحقق ما تسعى خلفه فعليك أن تتعلم بدلا منه أن تلعب كذئب وتتخلى عن نقائك الأخلاقي. يجب أن تقاوم عملية جذبك لتكون عاطفيا، وانسج مناورات استراتيجية مصممة لكسب

دعم العامة. غيّر وضعك ليكون مناسبا مع الظروف، مستدرجا العدو للقيام بأفعال تكسبك التعاطف، مُخفيًّا نواياك. فكر في الأمر كحرب – قدر يسير من العنف الغير الضروري، فأنت مدعو للقيام بكل ما يتطلّبه الوضع لهزيمة العدو، ليس هناك شرف في الخسارة إذا كان مسموحا للظلم أن يسود.

أوضاع ثابتة

يضع الناس سريعا في أي مشروع قواعد وتقاليد التي يجب اتباعها. وغالبا ما يكون ذلك ضروريا لإرساء بعض التهذيب والانضباط، إلا أن معظم تلك القواعد والتقاليد اعتباطية بسبب استنادها لشيء معين كان ناجحا في الماضي ولكن صلتها بالحاضر قد تكون ضئيلة. وأكثرها مجرد أدوات لهؤلاء الذين هم في السلطة من أجل إبقاء قبضتهم والمحافظة على وحدة الفريق. فإذا استمر الأمر لفترة كافية، فإنها تصبح سخيفة لتغلق الطريق أمام أيّة وسائل جديدة لعمل الأشياء. وفي هذه الحالة ، المطلوب هو التدمير الكامل لهذه القواعد الميتة، مفسحا بذلك مجالا لشيء جديد . بمعنى آخر، عليك أن تكون أسدا كاملا ، بأسوأ ما يمكن.

هذه هي الكيفية التي استجاب بها العديد من كبار موسيقيي الجاز السود مثل، تشارلي باركر، ثيلونيوس مونك و ديزي غيليسبي للأعراف الموسيقية الثابتة في بداية الأربعينيات من القرن الماضي. حيث كانت موسيقى الجاز منذ أيام انطلاقتها المبكرة محتكرة من قبل المغنين البيض وجماهيرهم. فالأصوات التي كانت معروفة هي؛ النطاق العريض {big band} و المتأرجح {Swing} المعروفة بصرامتها و إمكانية التحكم بها، و يجب التقيد بهذه القواعد وعزف الأصوات المشهورة من أجل كسب المال من المهنة. إلا أنه حتى أولئك الموسيقيين السود المتمسكين بالأعراف المذكورة لا زال يدفع لهم أجر أقل بكثير من نظرائهم البيض. والطريقة الوحيدة للتعامل مع هذا الوضع الظالم هو تدميره بواسطة صوت مختلف كليا، وفي هذه الحالة بشيء عرف لاحقا ب {البيبوب}، الذي جاء مخالفا لكل الأعراف السائدة. كانت هذه الموسيقى نقية و ارتجالية بقدر ما أصبحت معروفة . حيث منحت الموسيقيين مساحة للأداء وفقا لشروطهم ومنحتهم أيضا بعض التحكم في شئونهم المهنية. وبهذا تحطم الوضع الثابت لفتح المجال أمام إبداعات الجاز العظيمة في فترة الخمسينيات والستينيات .

يجب أن تكون عموما أقل مراعاة للقواعد التي أنشأها أشخاص آخرين، فهي ليست بالضرورة ملائمة للزمن أو لطباعك الخاصة. يمكنك امتلاك قوة عظيمة من خلال كونك الشخص الذي ينشأ نظاما جديدا.

الديناميكيات المستحيلة

أحيانا قد تجد نفسك في الحياة ضمن أوضاع سلبية لا يمكن تغييرها مهما فعلت. ربما قد تعمل مع أشخاص غير عقلانيين، حيث تبدو أفعالهم وكأنها لا تخدم أي غرض سوى فرض سلطتهم، جاعلينك بائسا بسبب ذلك، وكل ما تفعله في نظرهم يكون خاطئا. أو قد تجد نفسك في علاقة تكون فيها مجبرا باستمرار على إنقاذ شخص ما. وعادة ما يتضمن شخصيات تبرز نفسها على أنها ضحايا ضعيفة بحاجة للاهتمام والمساعدة، وهؤلاء يثيرون الكثير من الدراما حولهم. وبغض النظر عما تفعله معهم، يحتاجون من ينقذهم بشكل متكرر.

تستطيع التّعرف على هذه الديناميكية من خلال استخدام عاطفتك لحل المشكلة بطريقة أو بأخرى ممزوجة بإحباطك الكامل في العثور على أية إجابة منطقية. في الحقيقة، الحل الوحيد الممكن هو إنهاء العلاقة دون نقاش ودون مساومة، و ذلك بأن تترك العمل {دائما هناك غيره}، أو أن تترك الشخص الذي يوجعك بشكل نهائي قدر الإمكان. وقاوم أية محاولة لإشعارك بالذنب، وعليك أن تخلق ابتعادا بقدر ما تستطيع بحيث لا يمكنهم إغواؤك بالعواطف. عليهم أن يكونوا موتى بالنسبة لك لتستطيع المضي في حياتك.

مخالفة المفهوم

إن المشكلة في لحظات المواجهة، وسبب تجنبها، وهي أنها تثير العديد من العواطف السلبية، إذ نشعر أننا مُضطهدون شخصيا من قبل من يحاول إساءتنا أو إيذاءنا. مما يجعلنا نتساءل حول أنفسنا فنشعر بعدم الثقة. هل نستحق هذا بطريقة ما؟ - إذا مررنا بشكلٍ يسير عبر هذه اللّحظات البئيسة، فإننا نصبح غير مستقرين بشكل متزايد. ولكن في الحقيقة، المشكلة مشكلة معرفة. وذلك أنه بسبب اضطرابنا الداخلي نميل إلى تضخيم النوايا السلبية لخصومنا، فنحمل عموما الخلافات بشكل شخصي جدا. لدى الناس مشاكل وصدمات يحملونها معهم منذ طفولتهم، و غالبا عندما

يفعلون شيئا لإيذائنا أو منعنا، فهو لا يكون موجها لنا بصورة شخصية، بل ينبثق من أمور لم تكتمل في الماضي أو مواضع عميقة لانعدام الأمان، فيصادف أننا نعترض طريقهم في اللحظة الخاطئة.

اعمل ببساطة على حماية نفسك وتقويتها في هذه اللعبة التنافسية، فيهذه الحلبة الدموية. و ركز انتباهك على مناوراتهم وكيف تشتتها. و حينما يتوجب عليك الرجوع إلى شيء غير متعارف عليه أخلاقيا، فهو مجرد مناورة أخرى تنفذها في اللعبة وليس هناك ما تشعر بالذنب بشأنه. فأنت تتقبل طبيعة الإنسان وفكرة أن الناس سيلجؤون للعنف. هذا الانطباع الهادي المستقل سيسهل تصميم الاستراتيجيات المثالية لصد عدوانهم. و انطلاقا من استقرارك العاطفي في خضم هذه المعارك، ستصبح معتادا عليها، بل ستجد بعض المتعة في قتالهم جيدا.

في الحلبة، قد يخدشنا خصومنا بأظافرهم أو يضربوننا برؤوسهم ويتركوا كدمات، ولكننا لا ندد بهم لهذا أو نشعر بالضيق منهم أو نعتبرهم منذ ذلك الحين شخصيات عنيفة. بل فقط نفتح أعيننا عليهم، ليس انطلاقا من كراهية أو شك، بل فقط من أجل المحافظة على مسافة ودودة بعيدا عنهم. وعلينا أن نفعل هذا في جوانب أخرى أيضا، ويجب أن نلتمس العذر لما يفعله شركاؤنا في السجال لنحافظ على ابتعادنا دون شك أو كراهية.

{ماركوس أورّيليوس}



الفصل السّادس

قُد من المُقدّمة

{السُّلطة}

في أي مجموعة، يحدد الشّخص الموجود في القمة بصورة واعية أو لا واعية نمط اتجاهها. إذا كان القادة خائفين، متردّدين في تحمل أيّة مخاطر، أو يبالغون بالقلق حول كبريائهم أو سمعتهم، فهذا يجعلهم منغمسين بشدة داخل الجماعة ومن ثم يكون القيام بالعمل الفعال أمرا مستحيلا. فيتسبّب الأشخاص كثيري الشكوى والمتذمرين من العمل الجاد بأثر عكسي. لذا عليك أن تعتمد النمط المقابل، اربط قوتك بالروح المعنوية الملائمة من خلال أفعالك وليس من خلال أقوالك. وذلك من خلال رُؤيتهم لك وأنت تعمل بجدية أكثر من أي شخص آخر، حاملا نفسك على أعلى المعايير، فتتحمل المخاطر بثقة و تتخذ قرارات صارمة. ففي هذه الأزمنة الديمقراطية، عليك أن تمارس ما تصبوا إليه.

ملك المحتالين

لا يمكن للرّجل أن يُصدِر أمراً لجيش ما، بشكل جيد وهو في الخلف، حيث يجب عليه أن يكون في المُقدمة، بل على رأس الجيش. ويجب أن يراه هناك وأن يشعرَ به كل ضابط وشخص حاضر معه بأثر عقليته وطاقته الخاصة.

{الجنرال ويليام تي شيرمان}

في ربيع عام 1991م، أثبت الشاب كرتس جاكسون نفسه كأحد أمهر المحتالين في المنطقة، حيث ازدادت مجموعة عملائه الدائمين إلى مرحلة اضطر فيها لتعيين طاقمه الخاص من أجل مواكبة طلباتهم. ولكن كما هو معروف لا يوجد شيء جيد يستمر لفترة طويلة في المنطقة، إذ أنّه بمجرد قيام كرتس بوضع خطط لتوسيع تجارته، بدأ محتال قديم يدعى {واين} بإرسال إشارات تهديد له، كان واين قد عاد إلى الشّوارع مؤخراً بعد خروجه من السجن، فقرر أن يكسب مالا بأقصى سرعة ممكنة، ثم يتحكم في تجارة المخدرات المحلية. من الواضح أن كرتس سيكون هو خصمه الرئيسي، فقد حاول إخافة المحتال الشاب عن طريق تحذيره بأنه سيقطع عملياته إن لم يدفع له مبلغا معينا، إلا أنّ كرتس تجاهله. وبعد أن طال به الانتظار قرر واين أن يعلن في الشارع بأن كرتس سيتم قتله.

لاحظ كرتس هذا يحدث من قبل ويعرف ما سيحدث بعد ذلك. ولن يجازف واين بالقيام بالعمل بنفسه، حيث لن يخاطر بالعودة إلى السّجن، بل سيعتمد على حقيقة أن الأطفال الصّغار سيسمعون عن رغبته بقتل كرتس ونتيجة لحرصهم على اكتساب بعض المصداقية في الشارع، سيأخذون على عاتقهم مهمة القيام بهذا العمل القذر. ومن المؤكد، بعد عدة أيّام من سماع نوايا واين، لاحظ كرتس طفلا يدعى {نيتي} أخذ يُزاحمه في الشارع. فشعر بأن نيتي هو بالتأكيد من يخطط لعمل الضربة وسيُحدث ذلك قريبا.

كانت هذه هي الديناميكية المأساوية للاحتيال في المنطقة. حيث كلما نجح المحتال أكثر، فإنه يجذب النوع الخاطئ من الانتباه. ما لم يبث بعض الخوف والرهبة في صفوف المحتالين الآخرين، وسيستمر خصومه في التعرض له، محاولين أخذ ما عنده وتهديد وضعه في الشوارع باستمرار. فعندما يبدأ ذلك في الحدوث، يجد المحتال الناجح نفسه ساقطا في حلقة من العنف والانتقام و مضغوطا بضيق الوقت.

ومع ذلك فهناك القليل من المحتالين مِمن تمكنوا بطريقة ما من تجاوز هذه الديناميكية. فهؤلاء كانوا كالملوك في المنطقة – إن مجرد سماع أسمائهم أو رؤيتهم في الشارع يثير القشعريرة ومزيج من الرهبة والإعجاب. وما رفعهم فوق البقية هو سلسلة من التصرفات قاموا بها في الماضي أظهرت بأنهم جريؤون وأذكياء ، كما أن مناوراتهم غير متوقعة مما يزيدها رعبا. فإذا فكر الناس في تحديهم، سيتذكرون سريعا ما فعلته هذه النوعيات في ظروف أخرى فيتراجعون عن فكرنهم. كل هذا أضفى عليهم هالة من القوة والغموض. فبدلا من ظهور المتحدّين من كل النواحي، أصبح لديهم مريدين جاهزين لاتباعهم إلى أي مدى يريدونه. فإذا كان كرتس يرى نفسه من النوعية الملوكية، فقد حان الآن وقت إظهار ذلك للآخرين بأكبر قدر ممكن من الدراماتيكية.

وعلى الرغم من تحديق الموت في وجهه، إلاّ أن كرتس عمل على التحكم بعواطفه والتفكير مطوّلا وبعمق حول المعضلة التي طرحها واين. فإذا قام بمهاجمة واين لقتله أولا، سيكون الأخير مستعدا وسيجد العذر المثالي لقتل كرتس كدفاع عن النفس. و لو قام بدلا من ذلك بملاحقة نيتي وقتله، ستقبض عليه الشرطة وينتهي به الأمر في السجن لفترة طويلة، والأمر ذاته بالنسبة لواين أيضا. و في حالة أنه لم يفعل أيّ شيء، سيجهز نيتي عليه. إلاّ أن استراتيجية واين تضمنت عيبا قاتلا - خوفه من القيام بالعمل بيديه. ولم يكن ملكا بنفسه بل مجرد محتال آخر جبان يتظاهر بالقوة. وسيأتي كرتس من زاوية غير متوقعة ويقلب على واين كل شيء.

ومن دون إضاعة المزيد من الوقت، طلب من أحد معاونيه ويدعى {توني} أن يقابله ظهر ذلك اليوم. معا فاجأوا نيتي في الشارع، وبينما حمله توني قام كرتس بجرح الطفل في وجهه بشفرة حلاقة. وفعل هذا بعمق كاف لإرساله وهو يصرخ إلى المستشفى، مع ترك ندبة جميلة عليه لفترة وثم بعد ساعات قليلة، وجد هو و توني سيارة واين فارغة واطلقوا عليها الرصاص كرسالة غامضة تعني إما انهم كانوا يتمنون لو أنه بداخلها أو دفعه إلى الخروج ومهاجمتهم في العلن.

في اليوم التالي، تساقطت قطع الدومينو كما توقّع كرتس. حيث شوهد نيتي بصحبة واين بعد ذلك، وتوقع أن يقوم الاثنان معا بانتقام مماثل من كرتس. وبعد هذا كله تعرض واين للهجوم أيضا، وقد أصرّ على أن يقوم الطفل بالعمل بمفرده. ورأى نيتي الآن من خلال اللعبة أنه مجرد ضحية يؤدي العمل القذر وأن واين ليس قويا كما يدعي. فلم يعد لدى نيتي شيء أكثر ليفعله معه ولكنه أيضا كان خائفا جدا من مهاجمة كرتس بنفسه، فقرر أنه بإمكانه العيش بندبته. أما واين فقد أصبح في وضع حرج الآن، فإذا طلب من أحد آخر القيام بالعمل، فسيبدؤون في النّظر إليه بأنه رجل خائف جدا من فعل ذلك بنفسه، ومن الأفضل له أن يترك الشيء برمته يمضي.

في الأيام اللاحقة، كانت المنطقة تضج بقصة ما حدث. لقد هزم كرتس الشّاب منافسه الأقدم وتفوّق عليه، وخلافا للأخير لم يخف كرتس من القيام بالعنف بنفسه. فما فعله كان جريئا و دراماتيكيا ويبدو و كأنه خارج من العدم. فكل مرة يرى فيها النّاس ندبة نيتي الطويلة على وجهه في الشوارع، يُذكرهم ذلك بالحادثة. كما سيفكر الخصوم الآن مرتين قبل تحدي مركز كرتس، حيث أظهر بأنه قاس وماكر. وقد اعجب طاقمه كثيرا ببرودة دمه وكيف قلب الوضع رأسا على عقب، وأصبحوا يرونه الآن بشكل مختلف، كشخص يستطيع الاستمرار في هذه الغابة ويستحق الاتباع.

اتبع كرتس ذلك بتصرفات أخرى مماثلة، و رفع نفسَه تدريجيا فوق بقية المحتالين. وهناك الآن من هم أصغر سنّا ممن يتطلعون إليه، وسيشكّلون قريبا نواة لفريق مخلص من الأتباع الذين سيساعدونه في تحوله إلى عالم الموسيقى.

بعد نجاح ألبومه الأول في عام 2003م، بدأ كرتس بتحقيق حلمه في تأسيس إمبراطورية خاصة بأعماله. ولكن بما أن بناءها يستغرق شهورا وسنوات من المتابعة، بدأ يشعر بأن شيئا ما كان خاطئا. ومن الطبيعي أن يصدق بأنه مع وضعه الحالي و شهرته اللّذان يعملان لصالحه، سيتّبع قيادته ببساطة ويفعل ما يريد. إلا أن حياته بأكملها كانت درسا في الاتجاه المعاكس – حيث الناس سيأخذون منك دائما، فهم يشكّون في قدراتك ويتحدونك.

في هذه البيئة لم يكن المسؤولين التنفيذين ومدراءه يحاولون سلب ماله أو حياته، ولكن بدلا من ذلك ساوره الإحساس بأنهم يضعفون قوته، ويحاولون التقليل من شأنه لجعله أكثر تعاونا وتوقعا. إذا ترك الأمر يستمر هكذا، فسيفقد الميزة الوحيدة التي جعلته مختلفا – أي ميله للمخاطرة وفعل

غير المتوقع. وقد يصبح مستثمرا آمنا ولكنه لن يكون قائدا ذو قوة إبداعية بعد الآن. لا يمكنك في هذا العالم أن تسترخي وتركن إلى سمعتك أو انجازاتك الماضية أو لقبك، بل عليك أن تصارع لتبرز اختلافك وتقنع الناس باتباع قيادتك.

وقد اتضحت له كل هذه الأفكار بشكل مؤلم في صيف عام 2007م، حيث من المفترض أن يتم إطلاق ألبومه الثالث، فقد كان {كرتس} سيصدره في سبتمبر من ذلك العام، و لكن الجميع بدوا نائمين. فقد كانت الشركة صاحبة العلامة الموسيقية {انترسكوب} تتصرف وكان الألبوم سيبيع نفسه بنفسه، أما فريق إدارته فقد دشن حملة تسويق شعر بأنها مقيّدة جدا، سلبية، ومؤسّسية، إذ كانوا يحاولون فرض سيطرتهم بشدة. ثم وفي ظهيرة أحد أيام شهر أغسطس، أخبره أحد العاملين في تسجيلات {جي يونيت} - كان فيفتي يمتلك علامته الخاصة ضمن انترسكوب - بأن أحد الفيديوهات من الألبوم القادم قد تسرب بطريقة ما إلى الإنترنت، وأنه اذا انتشر فسيؤدي إلى إلحاق الفوضى بتنظيم طرح الأغاني المخطط لها في ذلك الشهر. كان فيفتي أول من سمع بالأمر، وبعد التفكير بما سيفعله لاحقا قرر أنه قد حان الوقت لهز الديناميكية، والقيام بما لا يمكن التنبؤ به، ولعب دور الملك المحتال.

استدعى فريقه الخاص بالراديو والانترنت في {جي يونيت} إلى مكتبه، وبدلا من العمل على احتواء الانتشار الجائح للفيديو - وهي ردة الفعل المعتادة لهذه المشكلة والتي تنصح بها الإدارة، طلب منهم أن يسربوه خِلسة إلى مواقع أخرى وتركه ينتشر كحريق هائل.

على رأس هذه الخطوة، اخترعوا القصة التالية لإبلاغ الصحفيين بها من أجل التناقل العام، فحينما يسمع فيفتي بالتسريب سيتظاهر بغضب شديد، حيث سيرمي هاتفه على النافذة وكسره على إثر تلك القوة ثم يكسر تلفاز البلازما المثبت على الحائط وسحقه إلى قطع. بعدها سيغادر المبني وهو في نوبة انفعال فيكون بذلك آخر شيء سيسمعوه هو صراخه بأنه سينهي كل هذا ويذهب في إجازة. وعند قيامه بتلك الخطة، في ذلك المساء وبناء على طلب فيفتي قاموا باستدعاء عامل الصيانة الخاص بالمبنى لالتقاط صور للأضرار {حيث كلها كانت مزيفة لهذا الغرض}، ثم سرّبوا الصور للإنترنت. واحتفظوا بكل هذا الكسر. حتى فريق الإدارة لم يعرف بأن هذه الدراما مصطنعة بالكامل.

في الأيام التالية، راقب فيفتي بسرور هذه القصة وهي تنتشر في كل مكان. كما استيقظت شركة انترسكوب من نعاسها. إذ أن فريق الإدارة أرسل رسالة بأن فيفتي أصبح الآن في القيادة - فإذا رفض القيام بأي مزيد من الدعاية الإعلامية، كما هدد بذلك، فستصبح حملتهم بكاملها محكومة بالفشل. وعليهم أن يتبعوا قيادته هنا والسماح له بتحديد نسق الانتشار الاعلامي، الأمر الذي قد يعني شيئا أكثر عدوانية وسلاسة. وقد انتشر الحديث بين المنفذين التابعين لفيفتي و موظفيه حول ما كان يفترض أن يحدث، وسمعته بأنه غير قابل للتوقع وهو جالب للعنف في الحياة. فعندما يشاهدونه الآن في المكاتب يشعرون بقرصة خوف، ومن الأفضل إذن أن ينتبهوا إلى ما يريد بدلا من المخاطرة برؤية غضبه. وبالنسبة للجمهور، لم يكن ذلك إلا من نوعية القصص التي توقعوها من مغني راب مجرم، حيث جذب انتباههم بقوة وضحكوا على سلوكه الخارج عن السيطرة دون أن يدركوا بأن فيفتي هو من قام بإخراج هذه الدراما، وهو أيضا صاحب الضحكة الأخيرة.

الأسلوب الجريء

عندما وصلت إلى القمة في مجال الأعمال، قمت بتعديل وضعي الجديد - فأصبحت أكثر جرأة وجنونًا من ذي قبل. وكنتُ أستمعُ أقل للأشخاص الذين حاولوا إبطائي.

{فيفتي سانت}

شهدنا عبر التاريخ الأنماط التالية، بعض الأشخاص يبرزون من بين الحشود بسبب تمتعهم بمهارة أو بموهبة خاصة، ربما هم أسياد في اللعبة السياسية، ويمكنهم اجتذاب وكسب الحلفاء المناسبين، أو ربما لديهم معرفة تقنية فائقة في مجالهم، أو قد يكونوا ممن أَنشَئوا مشروعات جريئة لاقت نجاحا. على أيّ حال، تجد هذه الأنواع نفسها فجأة في وضعية القيادة، وهو شيء لم تُهيّئهم له خبرتهم وتعليمهم في الماضي.

حيث يكونون وحدهم على القمة، وجميع قراراتهم وتصرفاتهم تُصبح تحت المجهر من قبل جماعتهم وكذلك العامة. إلا أن الضغط يمكن أن يكون أشد أحيانا، وما يحدث لا محالة هو خضوع الكثير منهم لكل أنواع المخاوف بشكل لا واع. وبينما قبل أن يكونوا جريئين ومبدعين، فإنهم يغدون حذرين ومتحفظين و مدركين للمخاطر العالية. خائفين سرّا من تحميلهم مسؤولية نجاح الجماعة، يُفرطون في التفويض، يستطلعون آراء الجميع، أو يمتنعون عن اتخاذ القرارات الصعبة. أو يصبحوا مفرطين في التسلط ، محاولين السيطرة على كل شيء - وهي علامة أخرى على الضعف وانعدام الثقة بالنفس. إنها قصة أعضاء مجلس الشيوخ الذين يصنعون رؤساء منحطين ، والملازمين الجريئين الذين الذين يتحولون إلى جنرالات متواضعين، او مديرين رفيعي المستوى يصبحون مسؤولين تنفيذين غير أكفاء.

ولا بد أن يكون هناك في المجموعة قلة ممن يتبنون اتجاها معاكسا، فيصلون إلى منصب معيّن، مظهرين مهارات قيادية غير عادية لا يمكن أن يشك بها أحد. نجد ضمن هذه النوعية أشخاصا مثل، نابليون بونابرت، المهاتما غاندي، و وينستون تشرشل. وما يربط هؤلاء معا ليست مهارة متقنة أو القليل من المعرفة، بل صفة شخصية و طبع يكشف عن جوهر الفن. إنّهم جريؤون، لا يخافون من اتخاذ القرارات الصعبة بأنفسهم، فبدلا من ذلك يبدو أنهم مستمتعين بهذه المسؤولية. كما أنهم لا يصبحون متحفظين فجأة، بل في الحقيقة يظهرون ميلا للسّلوك الجريء، وكأنهم يكشفون عن حكمة هائلة تحت النار.

أدرك هؤلاء بطرق مختلفة أن القائد يتمتع بقوة فريدة وغير مستغلة عموما. حيث تميل كل جماعة إلى افتراض الروح والطاقة في الشخص المتربع على القمة، فإذا كان هذا الشخص ضعيفا وسلبيا فستؤول المجموعة إلى الانشقاق إلى فصائل، أما لو كانوا يفتقرون إلى الثقة بالنفس، فستعترض مواطن انعدام الأمان لديهم طريقهم، جاعلة إياهم ينحدرون إلى القاع. إن مزاجهم العصبي الكئيب يُزعج الجميع. ولكن هناك دائما الاحتمال المعاكس، وهو أنّ القائد الجريء الذي يكون في المُقدّمة باستمرار، واضعا النسق وجدولة الأعمال للمجموعة يثير مستوى عال من الطاقة والثقة. إن مثل هذا الشخص على القمة لا يحتاج إلى الصراخ أو دفع الناس جانبا، بل أن الأدنى منه سيرغبون باتباع قيادته لأنه قوي وملهم.

في الحرب، عندما تكون مهارات القيادة أكثر وضوحا وضرورة لكون حياة الناس على المحك، يمكن التمييز بين نوعين من القيادة، قيادة من الخلف أو من الأمام. ويُفضل النوع الأول من الجنرالات البقاء في خيمته أو مقره لإصدار الأوامر من هناك، مع الإحساس بأن وجود هذه المسافة يسهل عملية اتخاذ القرارات. وقد يتضمن هذا النمط أيضا الملازمين والجنرالات الآخرين في مواقع صنع القرارات الهامة، الذين يختارون القيادة بواسطة لجنة. حيث يحاول القائد هنا إخفاء نفسه عن التدقيق والمساءلة والخطر. إلا أن أعظم الجنرالات في التاريخ لا محالة هم الذين يقودون من الأمام وبأنفسهم. حيث يمكن لجنودهم رؤيتهم وهم على رأس مقدمة الجيش، معرضين أنفسهم لذات المصير الذي قد يتعرض له أصغر جندي. فقد قال دوق {ولينغتون} أن مجرد ظهور نابليون بونابرت على رأس مُقدّمة جيشه يعادل قوة إضافية مقدارها أربعين ألف رجل، كنوع من الطاقة الكهربائية التي تسري في الجنود – فهو يشاركهم تضحياتهم ويقودهم كقدوة. وهو أمر ذُو دلالات دينية تقريبا.

نلاحظ كذلك وجود النمطين ذاتهما في التجارة والسياسة. حيث يحاول التنفيذيون الذين يقودون من الخلف، في تمويه الأمر لسبب أخلاقي، كالحاجة للسرية أو رغبتهم في أن يكونوا أكثر عدلا و ديمقراطية. ولكنه ينبع في الحقيقة من الخوف، ويقود لا محالة إلى عدم احترامه من قِبل من هم أدناه. بينما النمط المقابل، القيادة من المُقدّمة، تتمتع بذات القوة في العمل كما هي في ساحة المعركة. فالقادة الذين يعملون أكثر من أي شخص آخر، و يطبقون ما ينصحون به، وغير خائفين من المساءلة عن اتخاذ القرارات الصعبة أو تحمل المخاطر، سيجدون أنهم خلقوا قدر كبير من الاحترام الذي يعود عليهم بالنفع بين العامة. حيث يستطيعون طلب تضحيات ومعاقبة مثيري المشاكل وارتكاب أخطاء من وقت لآخر دون مواجهة الاستياء والشك المعتادين، فهم ليسوا بحاجة إلى الصياح أو الشكوى أو دفع الرجال والنساء لاتباعهم، فالناس يفعلون ذلك عن طيب خاطر.

يعتبر الاحترام في البيئات الحضرية مثل منطقة جنوب كوينز قضية بالغة الأهمية، بينما في أماكن أخرى قد تمنحك خلفيتك، أو تعليمك، أو سيرتك الذاتية بعض السلطة والزخم ولكن ليس في منطقة الجوار. فهناك يبدأ الجميع من الصفر، ولكسب احترام أقرانك عليك أن تثبت نفسك مرارا وتكرارا. إن الناس يحاولون بصفة مستمرة التشكيك في قدراتك وقوتك، وعليك أن تريهم مرة بعد أخرى بأنك تمتلك ما هو مطلوب للنماء والاستمرار. بالإضافة إلى ذلك فإن الكلمات

والوعود الكبيرة لا تعني شيئا، فالأفعال هي من تحمل ثقلا. وإذا كنت صادقا وصارما كما يبدو عليك، فستجني الاحترام الذي سيجعل الآخرين يتراجعون مما يُسهّل حياتك أكثر.

يجب أن يكون هذا هو وجهة نظرك أيضا. فأنت تبدأ بدون شيء في هذا العالم، و أية ألقاب أو مال أو ميزة ترثها هي في حقيقتها عائق، إذ توهمك بالاعتقاد أنك تستحق الاحترام. وإذا استمريت في فرض إرادتك بسبب هذه الامتيازات، سيزدريك النّاس ويحتقرونك. وبدلا من ذلك، يمكن لأفعالك فقط أن تثبت كفاءتك، إذ أنها كافية لتخبر الناس من أنت. ويجب أن تتخيل أنك تواجه تحديًا مستمرًا لإظهار أنك تستحق المنصب الذي تشغله. ففي ثقافة مليئة بالتزييف والضجيج، ستبرز نفسك كشخص صارم جدير بالاحترام.

تعلم القادة العظماء في التاريخ عن طريق التجربة الدرس التالي، أن تكون مهابا ومحترما أفضل بكثير من أن تكون محبوبا. كمثال أولي، أنظر إلى مخرج الأفلام {جون فورد}، الرجل الذي يقف وراء عدد من أعظم الأفلام في تاريخ هوليود. فمهمة المخرجين قد تكون بشكل خاص صعبة للغاية، فعليهم أن يتعاملوا مع أطقم كثيرة، حيث لدى الممثلين كبرياء ، والمنتجين المتسلطين، راغبين في التدخل في كل خطوة على الطريق، بالإضافة إلى الوقوع دائما تحت ضغط قُصوي للوقت، مع مبالغ كبيرة من المال بالكاد تكفي. فيذهب اتجاه المخرجين في هذا الشأن إلى إعطاء مساحة لكل تلك المعارك المختلفة، عن طريق تملق واسترضاء الممثلين، وترك المنتجين يتدخلون هنا وهناك، للحصول على بعض التعاون عن طريق كونهم مرحين ومحبوبين.

كان فورد بطبيعته إنسانا حساسا ومتعاطفا، ولكنه تعلم أن كشفه لهذا الجانب من شخصيته سيفقده سريعا السيطرة على المنتج النهائي، حيث سيبدأ الممثلين والمنتجين في إثبات أنفسهم مما يفقد الفيلم أي حس بالتماسك. كما لاحظ أن المخرجين اللطفاء لا يستمرون في الحقيقة طويلا أبدا، إذ يتم دفعهم جانبا فتكون أفلامهم سيئة. لذلك قرر في بداية مهنته أن يُشكّل نوعا من القناع لنفسه كرجل عنيد بل و مرعب قليلا.

جعل الأمر واضحا لهم في وقت العمل، أنه ليس من نوعية المخرجين اللطفاء المعتادين. فقد كان يعمل لساعات أطول من أي أحد آخر، وإذا كانوا يصورون في مكان ما في ظروف قاسية، فإنه سينام في خيمة مثل أي شخص آخر ويشارك طعامهم الرديء. وفي بعض الأحيان كان يدخل في معارك عنيفة في المجموعة، وفي معظم الأحيان مع ممثليه الرائدين، مثل جون واين، فإن هذه

المعارك ليست للعرض فقط، بل يتبادلون اللكمات بالفعل ويدخل هو معهم بكامل قوته جاعلا الممثلين يدافعون بقوة مماثلة. الأمر الذي يشكل نسقا مميزا وذلك بسبب ميل الممثل عادة إلى الشعور بالإحراج عند الانغماس في سلوكه المعتاد المكبوت ومزاجه الغاضب. وكان يعامل الجميع بذات الطريقة، حتى {أرشيدوق النمسا} نفسه عند محاولته تأسيس مهنته كمخرج في هوليود، تم الصراخ عليه و دفعه إلى حفرة من قبل فورد بنفسه.

كانت لديه طريقة مميزة في إدارة الممثلين، والتي تقتصر على أن يقول لهم كلمات قليلة منتقاة بعناية حول ما يريده منهم، و من ثم إذا ارتكبوا الشيء الخاطئ في التصوير فإنه يهينهم بقسوة أمام الجميع. لذلك فقد تعلموا سريعا أنه يجب عليهم الانتباه للكلمات القليلة التي يتفوه بها ولغة جسده في التصوير والتي غالبا تخبرهم بما هو أكثر من الكلام. و يُفترض بهم أن يرفعوا مستويات تركيزهم وإظهار من أنفسهم في العمل. فحينما زار المنتج المشهور {صموئيل جولدن وأي} موقع التصوير، أخبر فورد أنه يريد فقط مشاهدته وهو يعمل {وسيلة المنتج المعتادة للتجسس والضغط} . لم ينطق فورد بكلمة، وفي اليوم التالي زار جولدن وأي في مكتبه وجلس صامتا في المقعد المقابل لطاولة واي محدقا فيه. فاستاء جولدن واي بعد فترة وسأله عما يفعله، أجابه بأنه أراد فقط أن يشاهده وهو يعمل. ولم يزره جولدن واي مرة أخرى إطلاقا في موقع العمل وتعلم سريعا أن يمنحه مساحته.

كان لكل ما سبق أثر غريب ومتناقض على طاقم العمل والممثلين. حيث أحبّوا العمل مع جون فورد ويُستقتلون للحصول على مكان ضمن طاقمه الحصري من موظفيه المعتادين. إذ أن معاييره العالية جدا اجبرتهم على العمل بجد أكبر، وقد صنع منهم ممثلين مبدعين ومحترفين. إن لمحة إطراء عرضية من جانبه تحمل ثقلا مضاعفا فتبقى في الذاكرة مدى الحياة. وكانت النتيجة النهائية لطريقته القاسية والغير متسامحة، أنه تمكن من الحفاظ على مستوى أعلى من السيطرة على المنتج النهائي أكثر من غالبية المخرجين الآخرين، فكانت أفلامه دائما على أعلى درجة من الجودة. ولم يجازف أحد بتحدي سلطته، واستمر في هوليود كملك لأفلام الأكشن الغربية بما يتجاوز الأربعين عام، وهو إنجاز غير مسبوق في هذا المجال.

افهم هذا : لتكون قائدا، يتطلب الأمر اتخاذ خيارات قاسية ودفع الناس لعمل أشياء مخالفة لرغباتهم. إذا اخترت نمط القيادة اللّين والمسترضي والمتوافق مع الآخرين انطلاقا من الخوف

من أن تكون غير محبوب، ستجد أن قدرتك على دفع الناس للعمل بجدية أكبر أو تقديم تضحيات تتناقص أقل فأقل. وإذا حاولت أن تكون قاسيا فجأة، سيشعرون غالبا بالجرح والاستياء الشخصي. إذ من الممكن أن يتحولوا من الحب إلى الكراهية، فالاتجاه المعاكس يولد نتيجة معاكسة. فعند بنائك سمعة من القسوة و إرادة الحصول على نتائج جيدة، قد يستاء منك الناس ولكنك ستضع اللبنة الأساسية للاحترام. فأنت تظهر الصفات الحقيقية للقيادة والتي تخاطب الجميع. بعد ذلك، و بوجود الوقت الكافي لك فسترسخ سلطتك، ليكون لديك مجال الان لتتراجع وتكافئ الناس، حتى من أجل أن يصبحوا لطفاء. فحينما تفعل ذلك سيبدو الأمر كلفتة حقيقية وليس محاولة لدفعهم لمحبتك، وسيأتي هذا بأثر مضاعف.

مفاتيح الجرأة

إنها قاعدة لطبيعة الإنسان، أن يحتقر الناس من يعاملهم جيدا ويبحثون عن هؤلاء الذين لا يمنحون أيّة تنازلات.

{ثيوسيديدز}

انتظم معظم أسلافنا البدائيين قبل آلاف السنين في مجموعات بغرض الحماية والقوة. ولكن باتساع حجم هذه المجموعات، واجهوا مشكلة مع الطبيعة البشرية لا تزال تتخللنا حتى اليوم، وهي أن الأفراد يمتلكون مستويات مختلفة من الموهبة، الطموح، والحزم، وليس بالضرورة أن تتلاقى مصالحهم في جميع النواحي. وعندما يتعلق الأمر بالقرارات الهامة التي يتوقف عليها مصير الجماعة، يفكر الأفراد غالبا بأجندتهم الضيقة الخاصة. دائما ما تكون الجماعة البشرية على حافة التمزق إلى فوضى من المصالح المتشعبة.

لهذا الغرض، اختار الزّعماء القيام بمهمة اتخاذ القرارات الصعبة وإنهاء الخلاف برمته. إلا أن أفراد الجماعة يشعرون لا محالة بالتناقض إزّاء هؤلاء الزّعماء، فهم يرون ضرورة مدى أهميتهم والاحترام الذي يجب أن يُمنح لسلطتهم، ولكنهم يخشون

من أن يجمع مشايخهم وملوكهم الكثير من القوة ويظلموهم. كما يتساءلون أغلب الوقت حول السبب الذي يجعل فردا أو عائلة معينة تستحق مركزا ساميا كهذا. ففي الكثير من الحضارات الساحقة القدم، كان الملك يقتل بشكل طقوسي بعد عدة سنوات للتأكد من أنه لن ينقلب إلى ظالم. أما في الحضارات القديمة الأكثر تطورا، فهناك ثورات مستمرة ضد سلطة هؤلاء - وهي أكثر عددا وأشد عُنفا من أي شيء عرفناه في العصر الحديث.

من بين كل القادة في الأزمنة القديمة الذين كان عليهم التعامل مع هذه الصعوبات، ولم يبرز أحد أكثر من النبي موسى. إذ اختاره الله {سبحانه وتعالى} ليحرر العبرانيين في مصر من العبودية و يقودهم إلى الأرض الموعودة. و على الرغم من معاناة العبرانيين في مصر، إلا أنهم كانوا يتمتعون بأمان نسبي . وقد انتزعهم موسى من هذه الحياة المعتادة وجهزهم للتجوال في الصحراء لمدة أربعين عاما، حيث قاسوا من شحّ الغذاء والملبس و وسائل الراحة الأساسية. مما أدى بهم إلى الشك الدائم في موسى بل و كراهيته، فخطط البعض منهم لقتله - كالملك الذي يحتاجون للتضحية به. و رأوهُ أيضا كظالم ومجنون. ولأجل تأييد قضيته، أرسل له الله {تعالى} عددا من المعجزات ليرى موسى بأنه مختار ومبارك. إلا أنه سرعان ما تنسى هذه المعجزات ويعود العبرانيين إلى شكاويهم الدائمة وتمردهم.

من أجل تخطي العقبات في طريقه و التي بدت مستحيلة، لجأ موسى إلى حل فريد، وحّد القبائل الاثني عشر دائمة التفرق استنادا لسبب واحد بسيط، عبادة رب واحد، والهدف الذي يمكن تحقيقه هو الوصول للأرض الموعودة. لم يسعى للسلطة أو المجد، بل لقيادتهم إلى هذا الهدف المنشود فقط. كما لم يغب موسى حتى ليوم أو اثنين أو يرخي قبضته. وقد كانت القبائل تميل باستمرار إلى التشكيك به ونسيان الصورة الكبرى، وهو سبب معاناتهم. إن المصطلح العبري للقيادة يعني {أن تكون في المقدمة}، أي أن تقود. وعليه أن يكون دائما هناك في المقدمة، موحدا إياهم حول تصوره للأرض الموعودة. ويعني ذلك أن يكون قاسيا مع المنشقّين في الداخل وإعدام كامل العائلات التي تقف في طريق القضية الكبرى.

في الحقيقة، لقد تعلم موسى أن يلعب دورا معينا بالنسبة للعبرانيين - الرجل الذي يمتلك رؤية من الله، و روح لا تقهر، ويسعى للخير الأعظم. قد يسأل فرد القبيلة العادي نفسه أو نفسها حول ما إذا كانت الأرض الموعودة غير موجودة إلا في عقل موسى فقط، ولكن قوة إقناعه وعزمه على قيادة الناس نحو تلك الأرض جعل من الصعب التشكيك به. ويجب أن يلعب هذا الدور ليقنعهم بأن مركزه الأعلى شرعي وتم إقراره من الله تعالى. و تعتبر قدرته على قيادة مجموعة عنيدة كهذه لمدة أربعين عاما، أعظم تحفة في تاريخ القيادة.

نعتقد نحن العصريون أننا ابتعدنا كثيرا عن جذورنا القبلية البدائية، حيث نعيش في عالم علماني عقلاني، يحتاج فيه القائد إلى امتلاك مهارات تقنية وإدارية معينة. ومع هذا، فإن ثلاثة آلاف سنة من الحضارة لم تغيّر طبيعة الإنسان، وفي الواقع أصبحت الصعوبات التي لا تنتهي التي ابتُلي بها قادة مثل موسى أكثر حدة. في حين أنه قبل أن نفكر نحن البشر أولاً في القبيلة، صرنا في الوقت الحالي نفكر مبدئيا بأنفسنا، وظائفنا، ومصالحنا الضيقة. وتعتبر سياسات المكتب أقصى نقطة نهاية لهذا الاتجاه.

أصبحنا أكثر تشتتا في الوقت الحاضر من أي وقت مضى، بسبب الآلاف من المعلومات التي تتنافس لجذب انتباهنا على مدار اليوم، مما جعلنا أقل صبرا وأقل قدرة على رؤية الصورة الكبرى. إذا تمت قيادتنا خارج العبودية فلن نستطيع التركيز على الأرض الموعودة لأكثر من بضع دقائق. كما أننا أشد ارتيابا فيما يتعلق بهؤلاء الذين في السلطة، حيث لا زلنا نشعر بذات التناقض القديم تجاه الحكام، ولكن بدلا من التضحية بهم، فإننا نغذّيهم إلى حد التخمة ثم نفرح سرّا بسقوطهم. ولكي تصبح قائدا الآن عليك أن تتخطى هذه الجوانب من الطبيعة البشرية بينما تحافظ على كونك عادلا ولبقا، وهي مهمة أقرب إلى المستحيلة.

ومع ذلك، يعتبر الناس في الوقت ذاته هذا الانقسام والأنانية كظاهرة محبطة، فهم يرغبون بشدة أن يؤمنوا بقضية ما، كالعمل من أجل الخير الأعظم، واتباع قائد يكسبهم حسا بوجود هدف. لذا فهم أكثر استجابة لنوعية القيادة شبه الدينية التي كان موسى ضمنها. كشخص على القمة، عليك أن تحرر نفسك من تحيزاتك العصرية وشهوتك للوسائل المادية. إن كونك قائدا لا يزال يعني بأنك تلعب دورا ما، أي أن تتقدم إلى الأمام، وأن تقود جماعتك قدما بجرأة. فإذا فشلت في توحيد الجماعة حول قضية مجيدة معينة، كشيء مشابه للأرض الموعودة، فستجد نفسك مضطرا لشد

وجذب اتباعك الذين سينقسمون دائما إلى فرق. وبدلا من ذلك عليك أن تفرض جوا دينيا، كما لو اخترت مجرد قيادتهم إلى هدف أعلى. فأنت تقنعهم باتباعك طواعية، من خلال استعراض أقل لقوتهم الشخصية مقابل إظهار أكبر للقضية الموحدة لهم. وهذا ما يمنحك سلطة ملائمة للقيادة وهالة من القوة.

لكي تتقن فن القيادة، يجب أن تمارس أدوارا معينة تثير إعجاب تابعيك و تجعلهم راغبين أكثر في اتباعك بالحماس المطلوب. ويجب أن تتعلم تأدية هذه الأدوار الأربعة الرئيسية.

المُستبصر

في بداية القرن العشرين، اعتُبر {توماس ألفا أديسون} مخترع وعالم أمريكا البارز، و كانت مختبراته مصدرا لعدد من أهم السوابق التكنولوجية للعصر. ولكن الحقيقة أن إديسون نفسه لم يتلق من التعليم الرسمي إلا أشهر قليلة ولم يكن عالما على الإطلاق. بدلا من ذلك فقد كان مزيجا من المُستبصر، والاستراتيجي و رجل الأعمال الداهية.

منهجه كان بسيطا: لقد استهدف العالم بأسره متطلعا إلى أحدث التطورات في العلوم والتكنولوجيا. ومع فهمه للتجارة وأحدث الاتجاهات الاجتماعية، فكر طويلا وبعمق حول كيف يمكن تحويل بعض هذه التطورات إلى منتجات ذات جاذبية تجارية كبيرة تستطيع تغيير طريقة حياة الناس، من مدن مضاءة كهربائيا، وهواتف مطورة تغير مسار التجارة، وصور متحركة تسلّي الجماهير. وعليه، سيوظف أفضل العقول في هذه المجالات للإخراج أفكاره إلى الحياة. وكل منتج خرج من مختبراته كان لا محالة مختوما برؤية إديسون المحددة وحس التسويق.

افهم هذا : أي مجموعة مهما كان حجمها لا بد لها من أهداف طويلة الأمد لتعمل بشكل صحيح. إلا أن طبيعة الإنسان تعد عائقا عظيما لهذا، فنحن بالفطرة مستنزفون بالمعارك والمشكلات المباشرة، نجد أنه من الصعب للغاية، إن لم يكن من غير الطبيعي، التركيز بأي عمق على المستقبل. إذ يتطلب التفكير في المُستقبل عملية معينة قاسية تأتي مع الممارسة، أي أن نركز على شيء عملي وقابل للتحقيق على مدى عدة سنوات لاحقة و رسم كيف يمكن تحقيق هذا الهدف. وكذلك التفكير في التفرعات، والإتيان بمسارات مختلفة للوصول إليه وفقا للظروف. بالإضافة

إلى ما سبق، يجب أن ترتبط عاطفيا بالفكرة، بحيث عندما تواجهك آلاف العقبات والملهيات التي يبدو أنها ستبعدك بالتأكيد، ستكون لديك القوة والهدف للمحافظة عليه.

في حالة عدم وجود شخص على القمة يرسم الطريق لهذا الهدف الأكبر، ستتردد المجموعة هنا وهناك، متمسكين بمخططات لكسب المال السريع أو ينقادون للتطلعات السياسية الضيقة لفرد أو لآخر منهم. ولن يتحقق أي شيء عظيم أبدا. فأنت كقائد تعد الحصن الوحيد ضد هذا التردد اللانهائي. ويجب أن تتمتع بالقوة لتدمغ المجموعة بشخصيتك و رؤيتك الخاصة، مانحا إياها نواة وهوية. إذا فقدت رؤية الصورة الكبرى، فعندئذ ستنتج فقط الأشياء السيئة.

عليك أن تلعب هذا الدور المُسبصر ببعض الميل الدرامي، مثل إديسون الذي كان مؤدّيا و مروجا ماهرا. حيث قام بعروض مبهرة لأفكاره، وأحداث مسرحية من أجل أن يتصدر الصفحات الأولى للصحف. و كما هو الحال عندما كان موسى يصف الأرض الموعودة، إذ استطاع رسم صورة جذابة للمستقبل والتي أمكنه صنعها من خلال اختراعاته. وانعكس ذلك على كسب المال من المستثمرين وإلهام الباحثين لديه للعمل بجد أكبر. إن مستواك الخاص من الاستمتاع والثقة بالنفس سيقنع الناس بأنك تعرف إلى أين أنت ذاهب وجدير بالاتباع.

المُوَحّد

عندما استلم {لويس الرابع عشر} سدة الحكم في فرنسا عام 1661م، كان قد ورِث وضعا مستحيلا تقريبا. إذ احتفظ دوقات الاقطاعيات و لوردات فرنسا بالحكم بشدة على ممالكهم المتعددة. كما يقوم الوزراء في ذلك الوقت مثل الدوق دي ريتشيلو والكاردينال مازارين باتخاذ معظم القرارات المهمة التي تقع خارج سلطة اللوردات. وقد كان الملك في معظم الحالات مجرد رئيس صوري يحكم دولة ممزقة بشدة، والتي ضعفت قوتها في أوروبا لبعض الوقت. فقرر لويس أن يعكس كل هذا، بطريقة قوية و دراماتيكية. ففي البداية احتفظ بنواياه لنفسه ثم أعلن فجأة لمرة واحدة وللجميع بأنه لن يعين وزيرا لإدارة الدولة، حيث ستكون هذه مهمته هو منذ الآن فصاعدا. وبعد ذلك طلب من الأرستقراطيين الإقامة في قصر فرساي الذي كان قد بناه مؤخرا. فكلما عاشوا بالقرب منه في القصر، كلّما ازداد التأثير الذي سيحوزون عليه، إذ أنهم إذا بقوا في

إقطاعياتهم من أجل التآمر ضده، وسيجدون أنفسهم معزولين عن مركز السلطة الجديد الذي أنشأه.

كانت مناوراته هذه هي الأكثر براعة، والأكثر دهاءً على الإطلاق في الوقت ذاته. لقد خلق قضية للفرنسيين ليؤمنوا بعظمة ومجد فرنسا نفسها، والتي كانت مهمتها أن تكون مركز الحضارة والتطور، كنموذج لأوروبا بكاملها.

ولهذا الغرض، قاد البلاد إلى حروب عديدة لتوسيع القوة السياسية لفرنسا، حتى أصبح النموذج البارز لهذا الفن، جاعلا فرنسا قوة حضارية يحسد عليها في أوروبا. وبذلك فقد صنع مشاهدا لافتة للانتباه لإبهاج العامة وإبعادهم عن تحركاته في السلطة. كما أن النبلاء لم يقاتلوا من أجل لويس بل لأجل عظمة الأمة. حوّل لويس بهذه الطريقة دولة منقسمة بعمق وشبه فوضوية إلى القوة العظمى لأوروبا.

افهم هذا : الديناميكية الطبيعية لأية مجموعة وهي الانقسام إلى فصائل. حيث يرغب الناس في حماية وتعزيز مصالحهم الضيقة، وعليه فهم يشكلون تحالفات سياسية من الداخل. فإذا ارغمتهم على الاتحاد تحت قيادتك، متخلين عن تفرقهم، قد تتمكن من القيادة ولكن الأمر سيترافق مع استياء كبير - حيث سينتابهم الشك فطريا بأنك تقوّي سلطتك على حسابهم. و إذا لم تفعل شيء ستجد نفسك محاطا بالدوقات واللوردات الذين سيجعلون مهمتك مستحيلة.

تحتاج الجماعة إلى قوة محورية لاعطائها الوحدة والتماسك، ولا يكفي وجودك أو قوة شخصيتك لتحقق ذلك. إذ يجب أن تجسد قضية معينة بجرأة - قد تكون سياسية، أو أخلاقية أو متعلقة بالتطور - كأن تعمل لتطوير حياة الناس في مجتمعك على سبيل المثال. من شأن هذه القضية أن ترفع مجموعتك فوق البقية، حيث تمنحها هالة شبه دينية، نوع من الشعور التّعبدي. وعندئذ فإن محاربتك أو الشك فيك من الداخل هو في حقيقته وقوف ضد هذه القضية ويجعل من يقوم به يبدو أنانيّا. وستميل المجموعة مع هذا النظام الاعتقادي المغروس فيها إلى ضبط نفسها واقتلاع مثيري المشكلات. ولتلعب هذا الدور بشكل فعال عليك أن تكون مثالا حيا لهذه القضية، كما مثّل لويس القوة الحضارية لفرنسا في سلوكه المدروس بعناية.

القدوة

أنت لا تستطيع قيادة مجموعة كبيرة بمفردك، حيث ستنقلب عندئذ إلى مُدمّر أو ديكتاتور، جاعلا نفسك مُنهَكاً و مكروها. لذلك تحتاج إلى تطوير فريق من الملازمين الذين تشربوا بأفكارك و روحك وقيمك. و عندما تمتلك مثل هذا الفريق، يمكنك إعطاؤهم العنوان العريض فقط تاركا إياهم يعملون بمفردهم، ليتعلّموا بأنفسهم و يجلبوا إبداعهم الخاص إلى القضية.

هذا هو النظام الذي أنشأه نابليون بونابرت وتم تقليده من قبل أعظم الجنرالات في العصر الحديث. وذلك بأن يعطي قادة الميدان حسا واضحا بأهداف حملة أو معركة معينة، مما يعرف بـ{بيان المهمة} ليتم تخويل هؤلاء بلوغ تلك الأهداف بأنفسهم وبطريقتهم الخاصة، فكل ما يهم هو النتائج. الفكرة وراء الأمر هو أن أولئك الذين يقاتلون على الأرض يتمتعون غالبا بحس أفضل بما تتطلب الحاجة الآن لفعله هنا وهناك، فلديهم معلومات بين أيديهم أكثر من القادة. وبدرجة من الثقة في قراراتهم، ليستطيعوا التصرف بسرعة والشعور بالمشاركة أكثر في تنفيذ الحرب. وقد أتاح هذا النظام الثوري لجيش نابليون التحرك بسرعة أكبر وتأسيس فريق من قادة ميدان بارزين ذوي خبرة عالية. وقد تطلب هذا جُرأة عظيمة من جانبه ليثق بهم وعدم محاولة التحكم في كل شيء في ساحة المعركة.

العمل بـ{بيان المهمة} هو طريقة فعالة لتلطيف صورتك وإخفاء مدى سلطتك. حيث سيرونك أكثر من مجرد قائد، فأنت قدوتهم، وتعطي الأوامر، وتحفز وتلهم ضباطك. فعند تشكيل هذا الفريق، ابحث عن الأشخاص المنفتحين للتعلم و الذين سيشاركونك قيمك ولا تنجذب للسير الذاتية البراقة التي يُقدّمونها، فأنت تريدهم قربك، ليتشربوا روحك و أساليبك في عمل الأشياء. وحينما تشعر بأنهم تلقوا التدريب الملائم، لا تخف من ترك الزّمام لهم لمنحهم المزيد من الاستقلالية، فهذا سيوفر عليك في النهاية الكثير من الطاقة ويسمح لك بالتركيز على الصورة الاستراتيجية الكبرى.

الفارس الجريء

كل مجموعة تمتلك نوعا من الطاقة الجمعية التي إذا تركت وشأنها ستميل نحو الركود، فبسبب رغبة الناس القوية في إبقاء الأشياء مريحة، سهلة ومألوفة لهم. فعلى مر الزمن وفي أية

مجموعة، تمثل الأعراف والبروتوكولات أهمية كبيرة في التحكم بسلوك الناس. فكلما كانت المجموعة أكبر، مالت لأن تصبح أشد تحفظا وبالتالي تتضخم الطاقة المعطلة أكثر. إن المفارقة هنا أن هذا الوضع الدفاعي السلبي له أثر محبط على الروح المعنوية، يشبه كثيرا جلوسك في مكان واحد لوقت طويل جدا، مما يتسبب في انخفاض معنوياتك. إن الاحتمال الراجح أنك ستصعد إلى القمة بفضل جرأتك و رغبتك الشديدة في المضي قدما. فأنت تتحمل المخاطر التي تجعلك ترتفع إلى مستوى الحدث بكل طاقتك وإبداعك، وهذه الروح الجريئة تجذب الانتباه الإيجابي. إلا أن طاقة المجموعة المعطلة ستقوم بشكل طبيعي بإخماد كل ذلك وتحييد مصدر قوتك.

في الوقت الذي تصبح فيه أنت القائد، ستكون الوحيد القادر على تغيير الوضع وضبط وتيرة أكثر حيوية ونشاطا، و بذلك ستبقى الفارس الجريء والمغامر. وعليك أن ترغم نفسك على إنشاء مشروعات جديدة ومجالات لتغزوها، واتخذ إجراءات استباقية ضد الأخطار المحتملة في محيطك، كاحتفاظك بالمبادرات ضد خصومك، مما يجعلك تحافظ على استمرار مسيرة جماعتك وعلى الجانب الهجومي للقوة، الأمر الذي سيبهجهم ويمنحهم الإحساس بالحركة. في هذه الحالة أنت لا تتحمل مخاطر غير ضرورية ولكن ببساطة تضيف دفعة من العدوانية إلى حياة جماعتك الطبيعية. وسيعتادون على رؤيتك في المقدمة وسيدمنون على البهجة التي تجلبها مع كل حملة جديدة.

مخالفة المفهوم

نحن نعيش في زمن يتسم بعدم الثقة بشكل كبير في أي شكل من أشكال السلطة. حيث ينبع بعض هذا في حسد أولئك الذين حازوا سلطة وأنجزوا شيئا، بينما يأتي البعض الآخر من التجارب مع الأشخاص الذين يسيئون استخدام مراكز قوتهم لشق طريقهم. على أي حال، إن فقدان الثقة هذا يجعل الأمر أصعب فأصعب بالنسبة لك لتكون قائدا قويا و مؤثرا. تحت تأثير ضغط المساواة هذا، فأنت نفسك قد تميل إلى التصرف بسلطة أقل، أو أن تكون مثل أي شخص آخر أو تحاول جعل نفسك محبوبا. وهذا فقط ما سيجعل مهمتك بتلك الصعوبة. من الأفضل بدلا من هذا أن ترى مفهوم السلطة بأكمله على ضوء مختلف.

يعود أصل كلمة {السلطة – Authority} إلى جذور لاتينية {autore}، و التي تعني *المُؤَلّف* وهو الشخص الذي يُنشئ شيئا جديدا. قد يكون ذلك عملا فنيّا، طريقة جديدة للتعامل في العالم أو قيم جديدة. تتوقف صحة أي مجتمع على هؤلاء الذين يغذوننا بتلك الابتكارات، فهذه الأعمال أو التصرفات التي يقوم بها هؤلاء الأفراد تمنحهم المصداقية والسلطة لعمل المزيد. إن اخترع الجنرال الروماني العظيم {سكيبيو أفريكانوس الأكبر} نمطا جديدا كاملا للحرب في حملته ضد هانيبال، كان ناجحا للغاية. هذا ما أعطاه السلطة لقيادة الحملة بنفسه، ثم إطلاق الحياة السياسية لاحقا. بالنسبة للرومان، إذا تصرفت ببساطة كما لو أن منصبك يُخوّلك صلاحيات محددة فإنك تخسر سلطتك. حيث لم تعد مؤلّفا أو مشاركا وإنما مجرد مستهلك سلبي للقوة.

كقائد، عليك أن ترى نفسك بهذه الطريقة. فأنت مؤلّف. حيث تنشأ نظاما جديدا لتتصرف بأسلوب جديد مع بعض الدراما. لا تطمئن أبدا لمجدك أو إنجازاتك السابقة، بل عليك أن تقوم باستمرار بأفعال من شأنها أن تدفع جماعتك للأمام لتحقق نتائج إيجابية، فسمعتك بحد ذاتها تحكي الكثير. وعلى الرغم من اختلاف طبيعة الأزمنة، يكمن لدى الناس توق سري ليكونوا مُنقادِين بواسطة يد حازمة، شخص يعرف إلى أين هم ذاهبون. ذلك أنه من المؤلم الشعور دائما بالتشتت والضياع. وسيمنحك أفراد مجموعتك الاحترام والسلطة التي تطلبها اذا استحققتها كمؤلف ومبدع. ففي النهاية، إذا فقد الناس الثقة في سلطتك و رفضوها، فليس لديك حقا من تلومه إلا نفسك.

قائد مميز دون جرأة هو أمر غير وارد، ولا يمكن لشخص أن يكون رجلا وهو في حقيقته ليس كذلك. الجريء هو من يستطيع لعب هذا الدور، ولهذا السبب نأخذ في الاعتبار هذه الصفة كأول متطلب مسبق للقائد العسكري العظيم. وكم يتبقى من هذه الصفة بحلول الوقت الذي يصل فيه المرتبة عليا بعد أن يكون التدريب والخبرة قد أثر فيها وعدلها، هو سؤال آخر. كلما عظم امتداد بقائه، كلما ازداد نطاق عبقريته.

{كارل فون كلاوسفيتز}



الفصل السابع

تعرّف على بيئتكَ من الدّاخل والخارج

{الارتِبَاط}

يفكر معظم الناس أولاً بما يريدون قَوله أو فعله، ثم يعثُرون على جمهور لفكرتهم. لِذا عليك أن تعمل من الزاوية المعاكسة، أي أن تُفكر في العامة أولاً. حيثُ يجب أن تركز انتباهك على حاجاتهم المُتغيرة، والاتجاهات التي تتخلّلُهم، حيث إن البدء بمتطلباتهم يجعلك تصنع اللوازم المناسبة. ولا تخش انتقادات الناس، فبدون مثل هذه التعليقات الانتقادية، سيكون عملك شخصيّا و وهميًّا جدا. ويجب أن تحافظ على علاقة وثيقة ببيئتك قدر الإمكان، لِتكتسب {إحساسًا} داخليّا بما يحدث حولك، لكي لا تفقد الارتباط بقاعدتك.

اقْتصَاديّات الحَي

كنتُ أعرِف أنّ أهالي الحي يعلمون بأن روحي لم تغادر المكان أبدا، ولن أغادره جسديا أبدا بعد اليوم أكثر مما كان علي تركه. كما أتمتع بغريزة الحي، حيث أستطيع على سبيل المثال معرفة التوتر الكامن وراء الوضع الطبيعي للناس، ويمكنني التحدث بلغة الحي وفهمها.

{مالكوم اكس}

من خلال بدايته كتاجر مخدرات في عمر الثانية عشر، واجه كرتس جاكسون عالما متوحّشا يحتوي كل أنواع المخاطر. كان الجانب التجاري للاحتيال سهل المعرفة نسبيا، من حيث الاشخاص، الممثلين المتعددين في اللعبة، المحتالين المنافسين، والتجار الكبار، و رجال الشرطة الذين قد يكونوا مخادعين. ولكن الأغرب والأقسى من هذا كله هو عالم مدمني المخدرات أنفسهم، وهم الزبائن الذين تتوقف عليهم تجارته. وأن سلوكهم كان غريبا و مخيفا بعض الشيء.

مع وجود المحتالين المنافسين و الشرطة، تمكّن كرتس من إدراك طريقتهم في التفكير، لأنهم كانوا جميعا يتصرفون بدرجة من العقلانية، ما عدا مدمني المخدرات المحكومين باحتياجاتهم، وقد يتحوّلون إلى مُعادِين أو عنيفين في أيّة لحظة. فقد طوّر العديد من التّجار نوعا من الخوف من المدمنين، إذ يرون فيهم الضعف والتبعية التّي تصيب أي شخص يستسلم للإدمان. يعتمد المحتال على ذهنه كشّفرة حادّة، لدرجة أن مجرد الرغبة في استخدام المخدرات تدمر هذه القوة وتقوده للأسفل، لمنحدر زلق نحو التبعية. لذلك فإن بقاءه كثيرا بجوار المدمنين قد يجعله متعاطيا هو الآخر. لكن كرتس فَهِمَ هذا وحافظ على ابتعاده عنهم، إلا أن هذا الجانب من الاحتيال أزعجه.

ففي إحدى المناسبات، أخذ المدمنون يتجنبون كرتس فجأة ولم يستطع معرفة السبب. كل ما عرفه هو أنه لا يستطيع بيع دفعة من مجموعة مُخدراته التي في شحنته. وفي ظل هذا الوضع، فإن مصدرا أو علاقة أعلى ستمنحه المخدرات مجانا. فحينما يبيع الكمية بأكملها سيرجع مبلغا محددا

من الحصيلة إلى المصدر ليحتفظ بالباقي كربح. ولكن يبدو هنا أنه لن يكسب ما يكفي للدّفع إلى المصدر، مما قد يُسبب أضرارا لسمعته وسيقوده إلى كافة أنواع المشكلات، و ربما سيضطر للسرقة من أجل الحصول على المال.

فقد كان يشعر باليأس إلى حدّ ما، فدخل في وضعية الاحتيال الكامل، حيث أخذ يعمل ليلا ونهارا، عارضا جميع أنواع التخفيضات وكل ما يتطلّبه الأمر لتفريغ شُحنته من المخدرات. فقرر أن يكسب ما يكفي فقط لإرجاع المبلغ، ولكن تبين له بعدئذ أن الصفقة خاسرة. ربما كانت الدفعة التي يبيعها ذات جودة سيئة، ولكن كيف سيخبر الشخص الأعلى منه في عملية البيع هذه؟ وكيف يمكنه منع حدوث ذلك مرة بعد أخرى؟.

في أحد الأيام، طلب نصيحة من رجل يدعى {دري} وهو محتال قديم استمر في تجارة المخدرات في الشوارع لمدة طويلة غير اعتيادية. يعتبر الأخير أيضا رجل أعمال بارع {درس الاقتصاد في السجن بنفسه}، وبدا أنه يتمتع بعلاقة جيدة بشكل خاص مع المدمنين. وقد فسّر دري لِكرتس ذلك وفقا لخبرته بأنه يوجد نوعين من المحتالين في هذا العالم، هؤلاء الذين يبقون في الخارج وآخرون يتحركون نحو الداخل. حيث لا يزعج النوع الخارجي نفسه بتعلم أي شيء حول زبائنهم فكل ما يهمهم هو المال والأرقام، وليست لديهم أية معرفة نفسية الفروق الدقيقة المتعلقة باحتياجات الناس ومتطلباتهم. فهم يخشون الاقتراب كثيرا من الزبائن، الأمر الذي قد يرغمهم على إعادة النظر في أفكارهم و وسائلهم. أما المحتال المتفوق فيتحرك نحو الداخل ولا يخشى المدمنين، إذ يرغب في اكتشاف ما يدور في رؤوسهم. ولا يختلف متعاطي المخدرات عن أي أحد آخر، حيث لديهم مخاوف وتصيبهم نوبات الملل و يمتلكون حياة خاصة كاملة. لأنك تبقى في الخارج ، قال لكرتس، إذا لم تلاحظ كل هذا فإن احتيالك سيكون آليا بحتا و ميّتا.

ووضّح له، أنه من أجل رفع مستوى لعبتك، عليك أولاً تطبيق إحدى أقدم الحيل الصاخبة في كتاب {المُختبر}، ما يعنيه هذا هو ما يلي: عندما تحصل على مجموعة من المخدرات، فإنك تأخذ جزءا منها لتعطيها مجانا لمدمنين معينين، وعليهم أن يخبروك على الفور ما إذا كانت البضاعة جيدة أم رديئة. فإذا كان رد فعلهم إيجابيا فسينشروا الأمر من خلال شبكاتهم، و ستكون هذه التقارير أشد مصداقية بكثير فهي آتية من متعاطٍ معروف، أكثر من تلك الصادرة من محتال يروّج لبضاعته. أما في حالة وجود رد فعل سلبي، فعليك أن تقوم بالتعديل وإيجاد طريقة لقطع

الصفقة وعرض ما يسمى بـ{الأوهام} وهي (عبارة عن مظهر لصفقتان هما في حقيقتهما صفقة واحدة، حيث تكون الكبسولات ببساطة محشوة بالتراب)، وأي شيء آخر من شأنه تفريغ البضاعة. ولكن يجب أن يكون عملك دائما على ضوء ردود الفعل على منتجك، وإلا فلن تستطيع العيش في هذه الشوارع.

بمجرد أن تؤسس هذا النظام، استخدمه لترسيخ علاقاتك مع أشد المدمنين ثقةً. حيث سيزودونك بمعلومات ثمينة حول أي نوع من التغيير يحدث في الأذواق، و ستحصل من خلال الحديث معهم على كافة أنواع الأفكار وأنماط التسويق والجوانب الجديدة للاحتيال، حيث ستكتسب إحساسا بكيفية تفكيرهم. وانطلاقا من هذا المركز الداخلي، ستنفجر اللعبة بأكملها إلى شيء مبتكر وحيوي وستفتح عليك عدة احتمالات.

وقد اعتمد كرتس سريعا على هذا النظام، واكتشف بعد فترة قصيرة بأن مدمني المخدرات لم يكونوا كما تخيلهم أبدا. فهم يكونون غائبين عن الوعي فقط عندما لا يكون منتظما في التعامل معهم. اذ يُقدّرون السّهولة والصّفقات السّريعة، ويرغبون بشيء جديد بين الحين والآخر، وقد أحبوا فكرة أي نوع من الصفقات. وبهذا الكم المتنامي من المعرفة، استطاع أن يلعب على أوتار حاجاتهم ليتلاعب بمتطلباتهم. كما اكتشف شيئا آخر، وهو أن قضائهم الكثير من الوقت في الشوارع جعلهم مصدرا عظيما للمعلومات حول ما يجري مع الشرطة، أو مصدرا لمواطن الضعف لدى المحتالين المنافسين. إن معرفة الكثير عن الحيّ منحه شعورا بقوة عظيمة. وقد طبق لاحقا الاستراتيجية ذاتها على الموسيقى والحملة الخاصة بألبومه المنوع في شوارع نيويورك. ومن خلال الاحتفاظ بعلاقة قريبة من أذواق معجبيه، مكّنه من تكييف موسيقاه بما يناسب استجابتهم لتكوين صوت ذو جاذبية عميقة، وهو الشيء الذي لم يسبق لهم أبدا أن سمعوه.

بعد النجاح المميز لأول ألبومين تجاريين له، وقف كرتس {فيفتي سانت} على قمة عالم الموسيقى، لكن إحساسه بالإرتباط الذي كان حيويًا في الشوارع أخذ يتلاشى في هذه البيئة الجديدة التي استوطنها. فقد كان محاطا بالمتملقين اللذين أرادوا أن يكونوا ضمن حاشيته، كالمُدراء، و رجال الصناعة الذين لم يروا فيه إلا علامات {الدولار}. حيث اقتصرت تفاعلاته الرئيسيّة مع الأشخاص في عالم الشركات أو النجوم الآخرين، ولم يعد بمقدوره بعد الآن التسكع في الشوارع أو الاطلاع فورا على الاتجاهات التي تبدأ في الظهور. كل هذا يعني أنه يتحرك على غير هدى

بموسيقاه، غير متأكد فعلا من أنها ستتصل بجمهوره، الذين هم في الحقيقة مصدر طاقته و روحه، إلا أن المسافة التي تفصلهم عنه كانت في ازدياد. بدا له أن النجوم الآخرين لا يكترثون بهذا، بل إنهم مستمتعين بالحياة داخل هذا النوع من الشهرة، وخائفين من الهبوط مجددا على الأرض. أما فيفتي فقد أحس بعكس ذلك، بدا له عدم وجود مخرج من هذا الأمر.

ثم في مطلع عام 2007م، قرر أن يُنشأ موقعه الالكتروني الخاص. حيث اعتبره وسيلة لترويج موسيقاه وتسويقها مباشرة للعامة، و من دون واجهة علامته الموسيقية، التي أثبتت عدم كفايتها تمامًا في التكيف مع عصر الإنترنت و.سرعان ما حوّل هذا الموقع الإلكتروني نفسه إلى موقع تواصل اجتماعي، كالفيس بوك بالنسبة لمعجبيه، وكلما انغمس فيه أكثر، زاد إحساسه بأن هذا يمثل أكثر من مجرد حيلة تسويقية، فهو قد يكون الأداة القصوى لإعادة الاتصال بجمهوره .

فقرر أن يبدأ بالتجربة أولا. بينما كان يستعد لإطلاق ألبوم لـ{جي يونيت} في صيف عام 2008م، سرّب إحدى الأغاني على الموقع في ليلة جمعة، وفي اليوم التالي بتحديث صفحة التعليقات كل بضع دقائق متتبعا ردود الأعضاء عليها. بعد عدة مئات من التعليقات أصبح واضحا أن التقييم سلبي، حكموا على الأغنية بأنها ناعمة جدا، وأنهم أرادوا وتوقعوا شيئا أكثر قوة من تسجيلات جي يونيت. وانطلاقاً من الأخذ بانتقاداتهم، استبعد تلك الأغنية وأطلق أخرى، صانعا فيها الصوت القوي الذي طلبوه. وكانت ردود الأفعال هذه المرة إيجابية للغاية.

استتبعت التجربة السابقة المزيد من التجارب، حيث قام بوضع أحدث أغنية لخصمه الرئيسي في المجال، متمنيا قراءة التعليقات السلبية من معجبيه. ولكنه فوجئ بأن الكثير منهم أعجبتهم الأغنية. فدخل في نقاش إلكتروني معهم، فاتحا عينيه على التغيرات في أذواق الناس ولماذا أصبحوا مبتعدين عن موسيقاه، الأمر الذي أجبره على إعادة النظر في اتجاهه.

لجذب المزيد من الناس إلى موقعه، قرر أن يكسر المسافة في كلا الاتجاهين. قام بنشر مدونة شخصية عنه ثم أجاب على تعليقات معجبيه، فاحسّوا بوجود جسر كامل يربطهم به. و باستخدام أحدث التطورات في تكنولوجيا الهاتف، فأخذ الأمر إلى أبعد من ذلك. حيث قام فريقه بتصويره بالهاتف المحمول أينما ذهب، ثم يتم بث هذه الصور مباشرةً على الموقع، مما أدى إلى ازدحام شديد عليه في مواقع الدردشة على الإنترنت، إذ لم يكن المعجبون يعرفون متى تحدث هذه اللحظات، لذلك كانوا مجبرين على التأكد خلال فترات منتظمة، محاولين إلتقاط تلك اللحظات

العفوية. وهم يتمسكون بتفاهاتهم أحيانا ويفتعلون دراما في أوقات أخرى بسبب ميل فيفتي للمواجهة. أي أن العضوية في الموقع تطورت على قدم وساق.

بتطور موقعه على الإنترنت، أصبح مشابها بشكل غريب لعالم الاحتيال الذي صنعه لنفسه في شوارع منطقة جنوب كوينز. فأصبح بامكانه إنتاج عينات اختبارية {أغاني للتجربة} لمعجبيه الذين كانوا كمدمني المخدرات، متلهفين دوما لكل إصدار جديد لفيفتي، مع حصوله باستمرار على تعليقات بشأن جودة أغانيه. استطاع تطوير الإحساس بما كانوا يريدونه وتمكّن بالتلاعب بمتطلباتهم. حيث قد تحرك من الخارج إلى الداخل وصارت لعبة الاحتيال ذات حيوية أكبر، وعلى نطاق واسع هذه المرة.

الأسلوب الجريء

الجمهور لا يُخطيء أبدا. عندما لا يستجيب الناس لما تفعله، فإنهم يخبرونك شيء ما بصوت عال و واضح، فأنت فقط لا تستمع.

{فيفتي سانت}

تعتمد جميع الكائنات الحية في بقائها على علاقتها ببيئتها. فإذا كانت هذه الكائنات حساسة بشكل خاص تجاه أي نوع من التغيير - خطر أو فرصة - فإنها ستمتع بقوة أكبر للسيطرة على محيطها. إن الصقر ببساطة ليس فقط أنه يرى أبعد من أي مخلوق، بل يستطيع رؤية التفاصيل الدقيقة و رصد أقل تغيير في الطبيعة. حيث تزوده عيناه بحساسية هائلة و مهارة عالية في الصيد.

نحن نعيش ضمن بيئة بشرية في أغلبها، تتألف من أشخاص نتفاعل معهم يوميّا. وينحدر هؤلاء الناس من خلفيات وثقافات متنوعة، فهم متفردين بخبراتهم الخاصة المميزة. إن معرفة الناس جيدا، باختلافاتهم، وفوارقهم الفردية وحياتهم العاطفية، يمنحنا حسّا عظيما بالارتباط والقوة. حيث سنتمكن من معرفة كيفية الوصول إليهم، والتواصل معهم بفاعلية أكبر، والتأثير في أفعالهم، ولكننا غالبا ما نبقى في الخارج فنفقد القوة. أن الارتباط بالبيئة بهذه الطريقة يعني الخروج من

ذواتنا وتدريب أعيننا على ملاحظة الناس. ولكننا غالبا ما نفضل الحياة داخل رؤوسنا، وفي ظل أفكارنا وأحلامنا. إذ نسعى لجعل كل شيء في العالم مألوفا وبسيطا، فنغدو غير حسّاسين لاختلافات الناس وللتفاصيل التي تجعل منهم أفرادا.

يكمن في عمق هذا الانكفاء نحو الداخل و انعدام الاتصال خوف عظيم - وهو أحد أكثر المخاوف البدائية المعروفة للإنسان و ربما أصعبها فهما. فقد انتظم أسلافنا البدائيين في القدم في مجموعات من أجل حماية أنفسهم. ولخلق نوع من حس التماسك أنشأوا جميع أنواع قواعد السلوك، و المحرمات، والطقوس المشتركة. كما اخترعوا أساطير تتضمن تفضيل الآلهة لقبيلتهم وأنها مختارة لهدف عظيم. أولئك المنتمين إلى مجموعات أخرى لديهم طقوس وأنظمة عقائدية غير مألوفة، بالإضافة إلى ألهتهم الخاصة وأساطيرهم الأصلية. أي أنهم غير نظيفون، فهم يمثلون {الآخر} كشيء مظلم ومخيف ويتحدى إحساس القبيلة بالأفضلية.

كان ذلك جزءا من درعنا النفسي لآلاف السنين، وقد تحول الآن إلى خوف عظيم من الثقافات وطرق التفكير الأخرى. بالنسبة للمسيحيين، يتجسد ذلك المفهوم في كل الوثنيين. وعلى الرغم من تطور الحضارة على مدى آلاف السّنين، لازال الأمر موجودا بداخلنا في الحاضر بصورة عملية ذهنية نقسم بموجبها العالم بين ما هو مألوف و غير مألوف، نظيف و غير نظيف. كما طورنا أفكارا وقيما معينة نتآلف بموجبها مع هؤلاء الذين يتشاركون معنا نفس القيم، مُشكّلين جزءا من دائرتنا الداخلية و زمرتنا. لقد شكلنا مجموعات من المعتقدات الجامدة، يمين أو يسار، هذا أو ذاك. وعليه أصبحنا نعيش بداخل رؤوسنا، مع الأفكار ذاتها مرارا وتكرارا، مَحميين عن العالم الخارجي.

و حينما نواجه الناس أو الأفراد ممن يحملون قيما ومعتقدات مختلفة، نشعر بالتهديد، فتكون خطوتنا الأولى ليست فهمهم بل معاداتهم - ذلك الآخر الغامض. حيث نختار بدلا من هذا أن نفهمهم من خلال واجهة مكونة من قيمنا الخاصة ونفترض أنهم يشاركوننا إياها، إذ نقوم ذهنيا بتحويل الشخص الآخر إلى شيء مألوف. ومع أنهم قد يأتون من ثقافات مختلفة كليا، إلا أنه بعد هذا كله يجب أن يرغبوا بذات الأشياء التي نرغبها، الأمر الذي يعد فشلا من عقولنا في التحرك وفهم ما هو خارج عنها، عجزها في أن تكون حساسة للاختلافات الدقيقة. لكي يكون كل شيء إما أبيض أو أسود، نظيف أو غير نظيف.

افهم هذا : إن النّهج المعاكس هو الطريق الصّحيح إلى السطوة في هذا العالم. وهو يبدأ بجرأة أساسية - حيث لا تشعر بالخوف أو الإهانة من الناس الذين لديهم طرق مختلفة في التفكير أو التصرف، وكذلك لا تحس بأنك أفضل من أولئك الموجودين في الخارج، بل يجب في الواقع أن تستمتع بهذا التنوع. لذا فخطوتك الأولى هي أن تفتح روحك لهذه الاختلافات، وأن تتفهم ما يجعل الآخر مميزا، وأن تكتسب إحساسا بحياة الناس الخاصة وكيف يرون العالم. وفقا لهذا الطريق، عليك أن تعرض نفسك لدوائر أوسع فأوسع من الأشخاص وبناء علاقات مع تلك الشبكات المتعددة . إذ أن مصدر قوتك هو الحساسية والقرب من هذه البيئة الاجتماعية، و ذلك عن طريق رصدك الجيد للاتجاهات والتغيرات في أذواق الناس قبل أي أحد آخر.

تزدحم مختلف الظروف في منطقة الحي أكثر من أي مكان آخر، حيث يواجهك باستمرار أشخاص بكل أنواع النفسيات المختلفة. وأي سلطة تحوزها تعتمد على قدرتك على معرفة كل ما يدور حولك. أي أن تكون حساسا للتغيرات، و واعيا لتنظيمات القوة التي تفرض من الخارج والداخل. ولا يوجد وقت أو مجال للهروب إلى جزيرة أحلام داخلية، وعليك أن تتمتع بحس طارئ للبقاء متصلا بالبيئة والناس المحيطين بك، فحياتك تعتمد على ذلك.

نعيش في الحاضر في ظروف مماثلة، حيث جميع أنواع الناس على اختلاف ثقافاتهم وأمزجتهم متقاربة معا. ولكن لكوننا نحيا في مجتمع يتميز بالرخاء الواضح والسهولة، فإننا نفتقر إلى الشعور بالإلحاح عند الاتصال بالآخرين، الأمر الذي يعد خطرا. ففي بوتقة الانصهار هذه في العالم الحديث ومع تغير أذواق الناس بسرعة أكبر من أي وقت آخر، يتوقف نجاحنا على قدرتنا على التحرك خارج ذواتنا والتواصل مع الشبكات الاجتماعية الاخرى. وعليك دائما أن تدفع نفسك نحو الخارج بأي ثمن، وأن تصل إلى نقطة يكون عندها أي إحساس بفقدان هذه الصلة ببيئتك يترجم إلى شعور بالضعف والخطر.

يتحول هذا الخوف البدائي بداخلنا في النهاية إلى مرض ذهني - انغلاق العقل عن أية أفكار جديدة وغير مألوفة. وقد تعلمت الأنواع الجريئة عبر التاريخ على تنمية الأسلوب المعاكس، روح منفتحة، وعقل يتعلم باستمرار من التجربة. كمثال على ذلك، أُنظر الى العالمة البريطانية العظيمة المتخصصة في أنواع القردة العليا {جين جودال}، والتي أدت أبحاثها الميدانية إلى إحداث ثورة في أفكارنا حول الشمبانزي والقرود الأخرى .

أسّس العلماء قبل عمل جودال أفكارا معينة متعارف عليها حول كيفية عمل الأبحاث على الحيوانات من أمثال الشمبانزي. حيث تتم دراستها غالبا في أقفاص تحت ظروف متحكم فيها بشدة، وفي حالات عرضية يقوم علماء القرود بإجراء الأبحاث عليهم في الطبيعة، إذ يأتوا بحيل كثيرة لأغراء الشمبانزي للاقتراب منها بينما يبقوا مختبئين خلف نوع من الشاشات الواقية. مما يعني أنهم يجْرون التجارب بواسطة خداع الحيوانات وتدوين رد فعلها. و كان الهدف هو الإتيان بحقائق عامة حول سلوك الشمبانزي. أي أن العلماء لا يمكنهم دراسة الحيوانات إلا من خلال البقاء على مسافة منهم.

لم تكن جودال قد تلقت تدريبا رسميا في العلوم، فعندما وصلت إلى ما يعرف الآن بـ{تنزانيا} من أجل دراسة الشمبانزي في الطبيعة. انطلاقا من العمل بنفسها، ابتكرت طرقا مختلفة للبحث. إذ تعيش الشمبانزي في أبعد مناطق البلاد وهي خجولة بشكل ملحوظ. وقد تتبعتهم من مسافة معينة، وعملت بصبر لاكتساب ثقتهم. كما لبست بما يجعلها غير ظاهرة لهم مع حذرها من النظر في أعينهم. و حينما تلاحظ عدم ارتياحهم من تواجدها في المكان، تتحرك بعيدا أو تتصرف كأنها قردة موجودة هناك لمجرد البحث عن حشرات.

تدريجيا وعلى مدى عدة أشهر، استطاعت الاقتراب أكثر فأكثر. فأصبح بإمكانها الآن تمييز أفراد الشمبانزي التي كانت تراقبهم، فقد أعطتهم أسماء، وهو أمر لم يحدث علميا من قبل، حيث يتم تعريفهم دائما بالأرقام. بهذه الأسماء، بدأت في اكتشاف فروقات دقيقة في سلوكهم الفردي، فهم يتمتعون بشخصيات مختلفة كالبشر. بعد ما يقارب السنة من هذا الإغراء البطيء، بدأت القرود ترتاح لوجودها فسمحت لها بالتفاعل معهم، وهو أمر لم يحققه أحد من قبل في تاريخ دراسة القرود في الطبيعة.

يتطلب ما سبق درجة عالية من الشجاعة، وذلك بسبب كون الشمبانزي هو النوع الأشد مزاجية من بين أنواع القردة العليا، وأكثر خطورة وعنفا من الغوريلا. فبتفاعلها معهم أكثر فأكثر، لاحظت تغيرا في شخصيتها هي الأخرى، حيث كتبت إلى صديقة لها : أظن أن عقلي أصبح يعمل كالشمبانزي بشكل لا واعٍ. وقد شعرت بهذا لأنها طورت قدرة خارقة على البحث عنهم و إيجادهم في الغابة.

الآن وبعد حصولها على مدخل إليهم، أخذت في ملاحظة العديد من الظواهر الكامنة خلف المعلومات المتعارف عليها في سلوك الشمبانزي . كان العلماء قد صنفوه كنباتي، ولكنها لاحظت قيامهم بصيد وأكل القرود. وعلى الرغم من اعتبار الإنسان الكائن الوحيد القادر على صناعة واستخدام الأدوات، إلا أنها رأتهم ينحتون أدوات مسننة لالتقاط الحشرات لأكلها. كما شاهدتهم يُؤدون طقوس رقص غريبة أثناء عاصفة مطرية. و رأت بعد ذلك حربا مروعة استمرت أربع سنوات بين مجموعات متنافسة. بالإضافة إلى ما سبق، وثّقت جودال سلوكا ميكافيليّا غريبا وقاسيا بين الذكور المتصارعين على السيادة. وعلى كل، فقد كشفت عن درجة من التنوع في حياتهم العاطفية والذهنية والتي غيرت المفهوم ليس فقط بالنسبة للشمبانزي ولكن لجميع القردة والثدييات.

كان لذلك تطبيقات هامة فيما وراء مجالات العلم. عندما تدرس موضوعا معينا، فإنك وبشكل طبيعي تبدأ بمفاهيم مسبقة عنه {حيث اعتقد العلماء أن الشمبانزي لديه نطاق محدود من السلوك، لأن كل ما رأوه يفتقد للكثير جدا من الحقيقة المعقدة}. و بالتالي يبدأ عقلك في العمل ضمن منطقة مغلقة - غير حساسة فعلا للاختلافات والفوارق ، مع خوفك من تحدي افتراضاتك المسبقة. بدلا من ذلك عليك أن تكون مثل جودال، أي أن تتحرر من هذه الحاجة إلى التحكم وتضييق مجال رؤيتك. فعند دراستك لفرد أو مجموعة ما يجب أن يكون هدفك هو الدخول في عقولهم، وخبراتهم ، وطريقتهم في النظر إلى الأشياء . لتفعل هذا، يجب أن تتفاعل معهم على قدم المساواة. وبهذه الروح المنفتحة الجريئة ستكتشف أشياء لم تشك حتى بوجودها من قبل، كما ستشعر بتقدير أعمق للأهداف من وراء تصرفاتك أنت أو الجمهور الذي تحاول الوصول إليه. و سيكون هذا الفهم هو القوة المحركة لهم.

مفاتيح الجرأة

قلة من الناس لديهم الحكمة في تفضيل النقد الذي سيفيدهم على المديح الذي يخدعهم.

{فرانسوا دي لا روشيفوولد}

في العمل الذي نقوم بإنتاجه للتجارة أو للثقافة، هناك دائما لحظة مؤثرة - عندما يفارق هذا التأثير أيدينا ويصل إلى العلن لأجل الغرض الذي أُعدّ له. ففي تلك اللحظة يتوقف العمل عن كونه مجرد شيء في رؤوسنا، حيث يصبح موضوعا محكوما عليه من قبل الآخرين. فيتصل هذا الموضوع في بعض الأوقات بالناس بشكل عميق، إذ يضرب وترا حسّاسا ليثير صدى معيّنا يتّسم بالدفء، أي أنه يلبي حاجة . وفي أوقات أخرى، لا يخلف من هذا الصدى سوى البرود الشديد لدى الناس - حيث يتم تصويره في عقولنا بأثر مختلف تماما.

قد تبدو هذه العملية غامضة نوعا ما، إذ يتمتع بعض النّاس بموهبة خلق أشياء لها صدى لدى الجمهور.مثل، الفنانين الكبار، السياسيين ذوي اللمسة الشعبية، و رجال الأعمال المبدعين بلا حدود. وأحيانا ذواتنا قد تنتج شيئا يعمل بشكل رائع ولكننا نعجز عن معرفة السبب وراء ذلك. ونتيجة لنقص هذه المعرفة، لا نتمكن من تكرار نجاحنا.

ومع هذا، فهناك جانب من هذه الظاهرة قابل للتفسير. فأي شيء ننتجه أو نقدمه للجمهور صغيرا كان أم كبيرا، يعتمد على الطريقة التي نعمل بها. إذا كنا من النوع الذي يعيش غالبا في داخل ذهنه، متخيلين ما سيُحبّه وما سيرفضه الجمهور المقصود ، فستظهر هذه الروح في العمل نفسه، فيتم فصله عن البيئة الاجتماعية، ولا يتجاوز كونه ناتجا عن شخص ملتف حول نفسه أو نفسها. ومن الناحية الأخرى، إذا كنا متصلين بالجمهور بعمق ولدينا حسّ قوي باحتياجاته و رغباته، فإن ما نعمله سيميل إلى إحداث أثر كبير، حيث سنستوعب طريقة تفكير وإحساس جمهورنا وسيظهر هذا في العمل.

الكاتب الروسي العظيم {فيودور ديستوفسكي} كان لديه جزءان منفصلان تقريبا في عمله، الأول، أنه كان اشتراكيا ويتعامل غالبا مع المثقفين الآخرين، ورواياته وقصصه كانت ناجحة نوعا ما.

إلا أنه حكم عليه في عام 1849م، بالسجن لعدة سنوات في الأشغال الشاقة في سيبيريا بتهمة ملفقة تتعلق بالتآمر ضد الحكومة. وهناك اكتشف فجأة أنه لم يكن يعرف الروس إطلاقا. حيث تم إلقاؤه في السجن وسط حثالة المجتمع، و خلال فترة أدائه للأعمال الشاقة في قرية صغيرة، خالط أخيرا الفلاحين الروس الذين سيطروا على البلاد. وعندما أُطلِق سراحه، أصبحت جميع هذه الخبرات متضمنة بعمق في أعماله، كما عكست رواياته فجأة صدى لما هو أبعد من دوائر المثقفين من الداخل، حيث قد فَهِم جمهوره، أي كتلة الشعب الروسي، من الداخل، فأصبحت أعماله ذات شعبية.

افهم هذا : لا يمكنك إخفاء موقفك تُجاه الجمهور. إذا كنت تشعر بالأفضلية على الجميع كما لو كنت عضوا من نخبة مختارة، فسيتسرب هذا من خلال عملك. فهو محمول بواسطة النبرة والمزاج، لينقل الإحساس بالمجاملة. إذا كان لديك منفذ ضئيل تجاه الجمهور الذي تحاول الوصول إليه ولكنك تشعر بأن الأفكار التي في ذهنك لا تعجز أن تكون مثيرة للاهتمام، فغالبا ما تظهر كشيء شخصي جدا، كمنتج لشخص غريب منفر. في كلتا الحالتين، فإن ما يحكم روح عملك في الواقع هو الخوف. وذلك أن التفاعل على مقربة من الناس والحصول على آرائهم قد يعني الاضطرار لتعديل أفكارك {الرائعة} وتصوراتك المسبقة، مما قد يقف في وجه رؤيتك الضيقة للعالم. فربما قد تحاول إخفاء ذلك بمظهر متباه، ولكنه في الواقع ينبع من خوف قديم من الاخر.

نحن مخلوقات اجتماعية، نقوم بالأشياء من أجل التواصل والارتباط مع أولئك المحيطين بنا. ويجب أن يكون هدفك هو كسر هذه المسافة بينك وبين جمهورك، الذين هم قاعدة دعمك في هذه الحياة. إن هذه المسافة الذهنية - تتأتّى من نفسك وحاجتك للشّعور بالتفوق، والبعض الآخر مادي - حيث تبعدك طبيعة عملك عن الناس مع كثافة الروتين فيه. على أي حال، فإن ما تبحث عنه هو التفاعل الأقصى الذي يتيح لك الشعور بالناس من داخلهم، حيث سيُمكّنك من أن تتطور من خلال آرائهم وانتقاداتهم. إن العمل بهذه الطريقة يجعل ما تنتجه غير عاجز عن إحداث أثر لأنه سينبثق من الداخل، وهذا المستوى العميق من التفاعل هو مصدر معظم الأعمال القوية و ذات الشعبية العالية في الثقافة والتجارة، والنمط السياسي المتصل فعلا بالواقع.

فيما يلي أربع استراتيجيات يمكنك استخدامها لتقريب نفسك من هذا بشكل مثالي.

اسحق جميع المسافات

ينحدر الفنان الفرنسي {هنري دي تولوز لوتريك} من أحد أقدم الأعراق الأرستقراطية في فرنسا، ولكنه شعر في وقت مبكر بالغربة عن عائلته. يرجع ذلك إلى إعاقته الجسدية، حيث توقفت ساقيه عن النمو في عمر الرابعة عشر مضفية عليه مظهرا قزما، وينبع البعض الآخر من طبيعته الحساسة. لذا فقد انكب على الرسم كهوايته الوحيدة في الحياة. في عام 1882م عند بلوغه عمر الثامنة عشر، انتقل الى باريس بصحبة فنان مشهور يقع معرضه في {مونتمارت}، من أجل دراسة البوهيمية وبعض الأجزاء الطبيعية من المدينة. اكتشف دي تولوز هناك عالما جديدا كاملا؛ المقاهي وقاعات الرقص التي تديرها العاهرات، الفنانين المزيفين، الراقصات، ومؤدوا الشوارع، وكل الشخصيات المشبوهة التي وجدت نفسها منحدرة لهذه الزاوية. ربما بسبب غربته الخاصة عن عائلته، تآلف مع هؤلاء المنبوذين. و بدأ ينغمس تدريجيا أكثر فأكثر في الحياة الاجتماعية لمونتمارت.

صادق العاهرات و وظفهن كعارضات، ساعيا لتجسيد جوهر حياتهن على اللوحات القماشية. وكان يعود إلى صالات الرقص غالبا ويقوم بالرسم أثناء مشاهدته العروض، كما شرب الخمر مع المجرمين والمشاغبين الفوضويين الذين مروا بالمنطقة. وقد تشرّب كل جانب في هذا العالم، ومن ضمنه عادات الأغنياء الذين يأتون للمنطقة لأجل الترفيه و رؤية أحياء الفقراء. والرسامين الآخرين مثل {ديجاس} و {رينوار} اللذين عاش كلاهما في مونتمارت، رسما الكثير من مشاهد الحياة هناك ولكنها كانت دائما مصحوبة بحس الابتعاد، وكأنهم غرباء يحدقون فيها. أما دي تولوز لوتريك فقد كان مساهما نشطا أكثر منهما، وبدأت رسوماته ولوحاته تعكس هذا الانغماس. و جذب عمله انتباها أكبر من الجمهور.

ثم توّج كل ذلك في الملصقات التي صنعها لصالة رقص {مولان روج}، التي افتتحت في عام 1889م. كان أول وأشهر ملصق من بينهم جميعا، عبارة عن صورة فاضحة لراقصة تركل على ارتفاع عال جدا بحيث يمكنك رؤية لباسها الداخلي. كانت الألوان قوية ومتوهجة، ولكن الأغرب من هذا كله هي المساحة المسطحة التي صنعها، حيث منحت الناظرين الإحساس وكأنهم

موجودين على المسرح مع الفنانين، ضمن كل هذه الحركة والأضواء البراقة. ولم يصنع أحد شيئا مماثلا له من قبل . وعندما نُشر الملصق في المدينة، فُتن الناس به، إذ بدا نابضا بالحياة من تلقاء نفسه. فاتبع ذلك بالمزيد والمزيد من الملصقات بمختلف الأشكال في مولان روج التي توصل معها إلى شروط تعاقدية جيدة، مع صورة جمالية جديدة كليا تم تشكيلها بواسطة مزجه الكامل والمتوازن بين الأشياء. وأصبحت أعماله رائجة بشدة.

افهم هذا : في هذا اليوم وهذا العصر ، لتصل إلى الناس يجب أن يكون لديك اتصال بحياتهم الخاصة، وما الذي يُحبطهم، وماهي تطلعاتهم، و ما يثير استياءهم. لتفعل ذلك يجب أن تسحق أكبر قدر ممكن من المساحة التي تفصلك عن جمهورك. حيث يجب أن تدخل أرواحهم وتستوعبها من الداخل، وتتبنى طريقتهم في النظر إلى الأمور. وحينما تعيد إنتاج هذا في صورة ما من صور العمل ستنبثق منه الحياة. إن الأثر الذي سيصدمك ويسعدك فيما بعد سيكون ذاته بالنسبة لهم. ويتطلب الأمر درجة من الجرأة و روح منفتحة، فأنت لا تخشى من إعادة تشكيل شخصيتك بالكامل بواسطة ذلك التفاعل الكثيف، بل مفترضا مساواتك الكاملة بالجمهور، و مانحا صوتا لأفكار الناس و رغباتهم . وبالتالي فإن ما تنتجه سيتصل بهم عميقا بشكل طبيعي.

فتح قنوات غير رسمية للنقد والنّتائج

عندما دخلت {إليانور روزفلت} البيت الأبيض كسيدة أولى في عام 1933م، كان الأمر مصحوبا بالكثير من الخوف. إذ كان لديها ازدراء للسياسات التقليدية ونوعية المواقف المنغلقة القوية في ذلك الوقت، وفي اعتقادها أن سلطة زوجها ستعتمد على علاقته بالناس الذين انتخبوه. وللخروج من هذا الاحباط ، على الجمهور أن يشارك في الصراع و عدم الاقتصار على جذبه بالخطابات والبرامج، وحينما يشعرون بالمشاركة، سيُحضروا أفكارهم الخاصة وطاقاتهم إلى القضية. كما خشيت أن تبتلع الطبيعة البيروقراطية للحكومة زوجها، إذ سيستمع إلى أعضاء الخزانة والخبراء وستهبط درجة اتصاله بالعامة إلى القنوات الرسمية فقط كالتقارير، واستطلاعات الرأي، والدراسات. هذه العزلة ستمهد لنهايتها، قاطعة إياه عن قاعدة دعمه. ومن دون أي منصب رسمي في الإدارة ، قررت إليانور أن تعمل بنفسها على إنشاء قنوات غير رسمية للجمهور.

سافرت إلى جميع أنحاء البلاد، حتى المدن الداخلية والمناطق الريفية النائية مستمعة إلى شكاوى الناس واحتياجاتهم، واحضرت العديد منهم معها لمقابلة الرئيس وإعطائه انطباعات مباشرة عن {الصفقة الجديدة}. فبدأت في كتابة عمود في {رفيقة المنزل للمرأة }، التي نشرت فيها فوق عنوان {أريدك أن تكتبني}، وقد استخدمت عمودها كنوع من منتدى النقاش للجمهور الأمريكي، لتشجيع الناس على المشاركة بانتقاداتهم. استلمت خلال ستة أشهر ما يزيد على 300 ألف رسالة، و عملت مع موظفيها على إجابة كل رسالة منها. كما فتحت قنوات أخرى للتواصل، مثل زرع أفكارها في مختلف برامج الصفقة الجديدة، التي ستؤدي لاحقا إلى ارتفاع نسبة التصويت لصالحها من قبل الجماهير المستفيدة من هذه البرامج.

مع إحلال هذا النظام، بدأت برؤية نمط متصاعد تدريجيا من الاستياء من {الصفقة الجديدة}، فكانت تترك كل يوم ملاحظة في حقيبة زوجها لتذكيره بهذه الانتقادات والحاجة لأن يكون أكثر استجابة. فبدأت ببطء تؤثر على سياسته أيضا عن طريق دفعه إلى العمل على الجوانب الأخرى، مثل قيامه بإنشاء الإدارة الوطنية للشباب التي ستضم اليافعين بشكل فاعل في الصفقة الجديدة. وبمرور الوقت أصبحت إليانور القناة غير الرسمية لمجموعات النساء والأمريكيين الأفارقة، وعملت على تعزيز دعم الرئيس لهاتين الفئتين الرئيسيتين من الناخبين. كل ذلك العمل تطلب قدرا كبيرا من الشجاعة، حيث تعرضت للسخرية باستمرار على اتجاهها الناشط وكان قد مضى وقت طويل قبل أن تفكر أية سيدة أولى في القيام بهذا الدور. وقد لعب عملها دورا هاما في قدرة فرانكلين ديلانو روزفلت على المحافظة على صورته كرجل الشعب.

وفقا لما أدركته إليانور، تميل كل جماعة إلى الانغلاق على ذاتها عن العالم الخارجي، وذلك أنه من السّهل التصرف بهذه الطريقة. ومن داخل هذا الوهم، يخدع الناس أنفسهم بالاعتقاد أن لديهم نظرة صحيحة حول ما تشعر به جماهيرهم أو العامة - إذ يقرأون الصحف، والتقارير المتنوعة، والاحصائيات وما إلى ذلك. إلا أن جميع هذه المعلومات أقرب إلى السطحية ويتم انتقاؤها بدقة. يختلف الأمر كثيرا عندما تتعامل مع الناس مباشرة وتستمع بنفسك لانتقاداتهم وأرائهم، حيث تكتشف السبب الكامن خلف استيائهم والفروقات الدقيقة في كيفية تأثير عملك عليهم. كما ستطفوا مشاكلهم على السطح، الأمر الذي يجعل من أية حلول تأتي بها أكثر صلة بالواقع. فأنت تصنع ديناميكية التّقدّم-التّراجُع يمكنك بموجبها تسخير أفكارهم، ومشاركتهم وتسخيرطاقتهم لصالحك. إذا كان لا بد من المحافظة على مسافة ما بينك وبين الجمهور بسبب طبيعة جماعتك أو

مشروعك، فالتصرف الأمثل هو فتح أكبر عدد ممكن من القنوات الغير رسمية من أجل الحصول على نتائج مباشرة من المصدر.

أعد الاتّصال بقاعدتك

نحن نرى الآتي يحدث مرارا وتكرارا، شخص يحقق نجاحا عندما يكون أصغر سنا بسبب امتلاكه روابط عميقة مع جماعة معينة، حيث يأتي ما ينتجونه ويقولونه من مكان حقيقي ويتصل بالناس. ثم يفقدون هذه الصلة تدريجيا ويترتب على النجاح خلق مسافة ما، إذ يقضون معظم أوقاتهم مع أشخاص ناجحين آخرين. بشكل واع أو لا واع، يشعرون بأنهم مبتعدين وبمستوى أعلى عن جمهورهم، وعندئذ تكون قد تلاشت الكثافة من عملهم واختفى معها أي نوع من الأثر الحقيقي على العامة.

صارع الناشط الأسود المشهور {مالكوم إكس} هذه المشكلة بطريقته الخاصة. كان قد قضى شبابه كمحتال شوارع داهية، وانتهى به الأمر في السجن بتهم تتعلق بالمخدرات. هناك اكتشف الديانة الإسلامية من خلال ممارسة المسلمين لها، فتحول إليها فورا. و عند خروجه من السجن، أصبح متحدثا بارزا على مستوى عالٍ للجماعة. إلا أنه انقطع فجأة عن تمثيل الأمة الإسلامية وحول نفسه إلى عضو قيادي في حركة القوة السوداء المتنامية في الستينيات.

وخلال هذه المراحل المتعددة من حياته، شعر مالكوم بالغضب والإحباط الشديدين من مقدار الظلم الذي يتعرض له الأمريكيين السود، والذي اختبر الكثير منه في مقتبل عمره. قام بتوجيه هذه المشاعر إلى خطابات قوية، وكأنه يمنح صوتا للغضب الذي يشعر به العديد ممن عاشوا في أعماق الأحياء الخاصة بالسود في أمريكا. ومع ازدياد شهرته أكثر فأكثر أحسّ ببعض القلق، ذلك أن القادة الآخرين الذين عرفهم في المجتمع الأسود بدأوا يعيشون بصورة جيدة، لا يسعهم إلا الشعور ببعض المسافة والفوقية على هؤلاء الذين يفترض بهم تمثيلهم - كأب يرعى طفلا.

كره مالكوم تسلل هذا الشعور بالأبوية إليه، ففي اعتقاده أنه لا يمكن لأحد مساعدة الناس إلا أنفسهم وأن دوره يقتصر على إلهامهم للتحرك وليس التصرف باسمهم. ومن أجل تحصين ذاته ضد هذه المسافة النفسية، زاد اتصالاته بمحتالي الشوارع ومحرضي الشغب، وهم نوعية الناس من أدنى الطبقات والتي يتجنبها معظم القادة بشدة. أولئك الذين يتحدرون من قلب الأحياء

الأمريكية السوداء الذي هو قاعدة قوته، وعليه أن يعيد الاتصال بها. فأرغم نفسه على قضاء وقت أكثر مع هؤلاء الذين عانوا من حالات ظلم مؤخرا، مع استيعاب تجاربهم وحِس الغضب فيها. إنّ معظم الناس ينضجون مع تقدم العمر، ولكنه سيحتفظ بغضبه والعواطف الشديدة التي دفعته منذ البداية والتي استبغت عليه هالة من الكاريزما.

إن الهدف من الاتصال بالعامة ليس استرضاء الجميع أو إشهار نفسك لأكبر قدر ممكن من الجمهور، فالاتصال هو قوة الكثافة وليس المساحة أو الأرقام. ففي محاولتك لنشر دعوتك، استبدل الجودة بالكم وستدفع ثمنا جرّاء هذا. فإذا كنت تمتلك قاعدة من القوة – تتمثل في جماعة من الناس سواء كانت صغيرة أم كبيرة والتي تعترف بك، وهذه القاعدة ذهنية أيضا، وهي مؤلفة من أفكارك حينما كنت أصغر سنا والتي ارتبطت بعواطف قوية ألهمتك لاتخاذ مسار معين. الذي قد يؤدي إلى النجاح، لكن و بمرور الزمن قد يؤدي إلى إضعاف حس الاتصال لديك بهذه القاعدة المادية والذهنية، حيث ستصاب بالضياع وتتلاشى قواك الخاصة بالاتصال. اعرف قاعدتك واعمل على إعادة الاتصال بها، وابق روابطك بها حية، كثيفة، وحاضرة. عد إلى أصولك التي هي مصدر كل الإلهام والقوة.

اصنع المرآة الاجتماعية

يمكننا أن نتصور بأننا نتمتع بكل أنواع الإمكانيات والقدرات حينما نكون لوحدنا وفي داخل عقولنا، حيث يمكن لكبريائنا أن يتضخم لأي حجم. ولكن عندما ننتج شيئا لا يُحقّق التأثير المتوقع، فإننا نواجه فجأة حدّاً محدودا، فنحن لسنا رائعين أو ماهرين كما تخيلنا. في مثل هذه الحالة، يكون ميْلُنا إلى إلقاء اللوم على الآخرين لعدم فهمهم عملنا أو اعتراضهم طريقنا. إذ يصبح كبرياؤنا مجروحا وحساسا، فتبدو الانتقادات القادمة من الخارج كاعتداء شخصي لا يمكننا تحمله. لذا نميل إلى الانغلاق على أنفسنا مما يضاعف من صعوبة نجاحنا في المغامرة التالية.

بدلا من التقوقع، ضع في اعتبارك برودة الناس لفكرتك وانتقاداتهم كنوع من المرآة يحملونها باتجاهك. وهي مرآة حسية تحولك إلى مادة إلى شيء، وتستطيع بواسطتها رؤية نفسك كما يراك الآخرون. حيث لا يمكن لكبريائك أن يحميك فالمرآة لا تكذب، فأنت تستخدمها لتصحيح مظهرك وتجنب السخرية. إن آراء الاخرين تقوم بوظيفة مماثلة، فأنت ترى عملك من داخل عقلك وهو

مغطى بكل أنواع الرغبات والمخاوف، أما هم فيرونه كمادة - كما هو بالضبط، ومن خلال انتقاداتهم يمكنك أن تقترب أكثر من هذه الرؤية الموضوعية لتطور ما تعمله تدريجيا. { تحدير واحد : احترس من ردود فعل أصدقائك الذين يمكن أن تشوَّهَ أحكامهم بمشاعر الحسد أو المجاملة}.

إذا لم يتصل عملك بالآخرين اعتبر ذلك خطأك الخاص، فأنت لم تجعل أفكارك واضحة بما فيه الكفاية وقد فشلت في الاتصال عاطفيا بجمهورك. وهذا ما يخفف عنك أي غضب أو مرارة ناتجة عن انتقادات الناس، فأنت ببساطة تصحح عملك من خلال المرآة الاجتماعية.

مُخالفة المفهوم

العلم والمنهج العلمي قويان جدا، والمتابعة التطبيقية للمعرفة أصبحت تحكم جانبا كبيرا من تفكيرنا خلال القرون القليلة الماضية. ولكنها ولّدت انحيازا غريبا، حيث أنه من أجل فهم أي شيء يجب أن ندرسه على مسافة بعيدة وبمفهوم منفصل. على سبيل المثال، نميل إلى الحكم على كتاب مليء بالإحصائيات والاقتباسات من دراسات متنوعة على أنه يحمل ثقلا أكثر، لأنه يبدو متمتعا بالسّمو والموضوعية العلمية المطلوبة. إلا أن العلم مع ذلك يتعامل غالبا مع {المادة} وهي إما أن تكون جمادا أو شيء لديه حياة عاطفية هامشية. لذلك فإن دراسة هذه الأشياء من مفهوم منفصل هو أمر منطقي ويؤدي إلى نتائج عميقة، ولكن الأمر لا يترجم بشكل جيد عند التعامل مع الناس والمخلوقات التي تستجيب من جوهر عاطفي، إذ أن معرفة ما الذي يجعلهم مميزين من الداخل يُعتبر أمرا مفقودا. وعليه، تكون دراسة هذه الأمور من الخارج مجرد تحيز، وتنبع غالبا من مشاعر الخوف - إن التعامل مع خبرات الناس وذاتيتهم هو أمر فوضوي، فإعطاء المسافة عند التعامل مع الناس يعتبر شيئا أوضح وأسهل بالنسبة لنا.

لقد حان وقت إعادة تقييم هذا التصور، و رؤية الأشياء من المنظور المقابل. إن معرفة الطبيعة البشرية والعوامل الاجتماعية - وهو العلم الذي يكون غالبا الأكثر أهمية بالنسبة لنا - يعتمد على معرفة الناس والتنظيمات من الداخل واكتساب الإحساس بما يعايشونه. والطريقة المثلى للحصول على هذا، هي بواسطة الانضمام والمشاركة المكثفة خلافا للوضع العلمي المزيف الناتج عن الإدمان العقلي على الدراسات، الاقتباسات، والأرقام، والتي صممت جميعها لدعم المفاهيم

المسبقة. إن هذا النوع الآخر من المعرفة والذي ينبع من الداخل يجب عليك تقديرها أكثر من جميع الأمور الاجتماعية الأخرى، فهي التي تمنحك القوة للتأثير في الناس. إذا بلغت الحد الذي تشعر فيه بأنك مبتعد وفي الخارج، عليك أن تخبر نفسك بأنك لا تفهم ما تقوم بدراسته أو محاولة الوصول إليه. فأنت تفتقد الدليل وهناك عمل يجب إتمامه.

الرجل الذكي حقا هو من يشعر بما يقتصر الرجال الآخرين على معرفته فقط.

{بارون دي مونتسكيو}



الفصل الثّامن

التزم بالتّطوُّر الطّبيعي

{الإتقان}

الحمقى في الحياة يريدون أشياء بسرعة وبسهولة - كالمال، النجاح، والشهرة. ويكون الملل هو عدوهم وخوفهم الأكبر. ومع ذلك، مهما فعلوا فإنهم يُفلتون الفرص من بين أيديهم بذات السرعة التي تأتي بها. ومن الناحية الأخرى، إذا أردت الصمود في وجه منافسيك، وإذا أردت أن تبني أساسا لشيء يمكنه الاستمرار في التوسع، عليك أن تنخرط في تَلمذة مهنية، بحيث تتعلم مُبكّرا كيف تتحمّل ساعات التدريب والكدح، مع العِلم أنه في النهاية سيتحول كل ذلك الوقت إلى متعة أعلى - من إتقان ما ستبرع فيه وتحدي نفسك أيضا. فسيصبح هدفك هو بلوغ مستوى المهارة الأقصى والشعور التلقائي بما يجب عمله لاحقا.

المال البطيء

أتقن الآلة، وأتقن الموسيقى، ثم انسى كل هذه القذارة وأعزف.

{تشارلي باركر}

بسبب نشأته في منطقة جنوب كوينز، كان فقط الأشخاص الذين كان بإمكان {كرتس جاكسون} رؤيتهم يمتلكون أيّة أموال و قوة هم محتالي الشوارع، لذلك فقد اختار لنفسه هذا الطريق في عمر الحادية عشرة بطموحات كبيرة للمستقبل. إلا أنه سرعان ما رأى أن حياة المحتال لم تكن ساحرة على الإطلاق كما كان يتوقع، فهي تتألف في غالبها من الوقوف في زاوية شارع يوما بعد آخر لبيع ذات المواد لنفس المدمنين. وهذا يعني استمرار ساعات العمل دون القيام بأي شيء، وفي برد قارس أو حر لاذع، بانتظار قدوم الزبائن. وفي هذه الساعات الطوال الشاقة، كان عقل {كرتس} يفكر بصورة تلقائية بأنه قد يجد نفسه راغبا في الحصول على المال الذي يأتي بسرعة وبسهولة مع متعة أكثر. و كانت هناك فرص لهذا الأمر في الجوار، كانت تنطوي في الغالب على ارتكاب جرائم أو مخططات مشكوك فيها. في بعض الأحيان كان يشعر بالرغبة في التجربة، ولكنه في هذه اللحظات كان يُذَكّر نفسه بالقصص التي لا حصر لها عن محتالين يعرفهم ممن سقطوا في وهم المال السريع السهل، كل المغفلين الذين انتهي بهم المصير حتما يإما موتى أو محطمين.

كان هناك صديقه {تي سي} الذي تعب من الاحتيال وانضم إلى عصابة تمضي الصيف في نهب محلات البقالة و كذلك بنوك من حين لآخر. حيث جمع كمية كبيرة من المال في تلك الأشهر الثلاثة، ثم بددها طوال الخريف والشتاء. وفي الصيف التالي عاد إلى ذلك مجددا، لم يكن الأمر متعلقا بالمال فقط بل بالرعشة المتأتية من مقاربة كل هذا الخطر. إلا أن حظه قد نفذ في هذا الصيف الثاني، وقُتِل في تبادل إطلاق النار مع الشرطة.

وهناك أيضا زميل {كرتس} {الحاقد} الأكبر منه بسنوات قليلة، والذي كان قد ادّخر بعض المال من احتياله و الذي كانت لديه طموحات لشيء أكبر من ذلك بكثير. وقد اقتنع بإمكانية تحقيق ثروة

سريعة عبر شراء جزء من امتياز تجاري كان جديدا على الجوار، ولكنه شعر أنه لا بد أن يكون ممتازا. فأنفق ماله بأكمله على هذا المشروع، إلا أنه كان عجولا جدا، حيث لم ينتظر وقتا كافيا لتعويد العامة على حياته الجديدة. واعتقد الجميع أن هذه الأعمال ليست إلا واجهة المُعاملات في المخدرات. لذا فقد تجنبوه، وسرعان ما أصبح المكان مَرتَعاً للمحتالين والمدمنين. وفي غضون أشهر فشل في هذا ولم يتعافى أبدا من تلك التجربة.

هذا هو جوهر المشكلة، لتصبح محتالا ناجحا عليك أن تُعوّد نفسك على الوتيرة البطيئة والصعبة للوظيفة. ولكن في منطقة الجوار نادرا ما يبدو المستقبل واعدا، ويصعب على المحتالين تصور قيامهم بادّخار أموالهم ليوم أسود في المستقبل، في الوقت الذي يُرجّح فيه أن هذا اليوم لن يأتي. إلا أن الرغبة في شيء أسرع ستتسلل حتماً إلى دمائهم، وإذا استسلموا لها سيخلقوا دائرة لن يستطيعوا الخروج منها. فإذا تمكنوا من الحصول على بعض المال السريع سيكون لهم بمثابة المخدر، حيث سيبتهجوا وينفقونه على أشياء تثير إعجاب الناس. وبعد نفاذ المال سيعودوا إلى تجارة المخدرات، ولكنها ستبدو الآن بطيئة ومملة جدا. وعليه، سيحاولوا مرة أخرى لتحصيل شيء سريع فيقعوا في فخ جشعهم. وبمرور السنين سيفشلون في تنمية أي نوع من الصبر أو الانضباط، إذ سيعجزون عن التحكم في هذه الوتيرة المتغيرة صعودا وهبوطا لفترة طويلة جدا. ثم وفي عمر الخامسة والعشرين أو الثلاثين، سيكونوا قد استهلكوا أنفسهم دون اكتساب أيّة مهارات أو مال من سنوات عملهم، فيغدو مصيرهم بعد ذلك عموما غير سار.

بهدف مقاومة هذا الإغراء، قرر {كرتس} أن يُرغم نفسه على السير في الاتجاه المعاكس. حيث سيتعامل مع الاحتيال كوظيفة، وقد كان يخرج إلى زاوية الشارع في ذات الساعة يوميا ويعمل في الصباح الباكر إلى ساعة الليل. فتعود تدريجيا على هذه الوتيرة البطيئة. وخلال الساعات الطويلة الفارغة من العمل، أخذ يفكر في مستقبله ويضع خططا تفصيلية لما سينجزه سنة تلو سنة انتهاءا بالهروب من احتيال الشوارع في نهاية المطاف، إذ سينتقل إلى الموسيقي ثم الأعمال. ومن أجل اتخاذ الخطوة الأولى، عليه أن يقوم بتوفير ماله، وقد ساعدته هدف هذه الفكرة على تحمل الضجر اليومي في عمله. كما ابتكر أنماطا جديدة للاحتيال أثناء تلك الساعات البطيئة، بغرض التطوير المستمر لذاته في هذا العمل.

بالإضافة إلى ذلك، فقد مارس الملاكمة لضبط عقله وجسده. فقد كان سيئا في البداية ولكنه كان عنيدا أيضا، وأخذ يتدرب يوما بعد يوم إلى أن أصبح في النهاية ملاكما محترفا. وهذا ما علمه درسا لا يقدر بثمن، إذ يمكنه الحصول على ما يريد من خلال المثابرة الكاملة بدلا من العنف أو الإكراه، إن التطور خطوة بخطوة هو الوسيلة الوحيدة للنجاح في أي شيء. وفي عمر العشرين تحول إلى عالم الموسيقى، وكل هذا وفقا لخطته الأصلية.

في عام 1999م، و بعد بضع سنوات من تدريبه على يد {جام ماستر جاي}، وقّع {كرتس} اتفاقية مع شركة {كولومبيا للتسجيلات}. بدا الأمر وكأنه حُلم أصبح حقيقة، ولكن عند نظره إلى مغنيِّ الرّاب الآخرين من حوله الذين أمضوا وقتا أطول قليلا مع هذه العلامة الموسيقية، رأى بأن الأخطار المحيطة به ازدادت. كان الاتجاه كما رآه {كرتس} هو الاستغلال المباشر لطاقتك وشهرتك، حيث يشعر مغني الرّاب بأنهم وصلوا للقمة، وبشكل لا واع لن يعملوا بجدية وسيمضوا وقتا أقل في تعلم مهنتهم. وهذا التّدفق المفاجئ للمال الذي أصبحوا يملكونه، متصورين أن لهم اللمسة الذهبية وباستطاعتهم الاحتفاظ بها، كما أن نجاح واحد لأغنية أو ألبوم ما، سيزيد الأمر سوءا. إن عدم بناء شيء ما بالتدريج سواء - كان مهنة أو مستقبلا - سيجعله ينهار بأكمله خلال سنوات قليلة، حيث سيحتل مُغنّو الراب الأصغر سنا أو الأكثر حرصا أماكنهم وستصبح حياة السابقين كلها أشد بؤسا بسبب تذوقهم بعض المجد لمرة واحدة.

كان الحل بالنسبة لـ{كرتس} بسيطا: فهذا هو العالم الجديد الذي دخله، وعليه أن يأخذ وقته ويتعلّم جيدا. ففي خضم بيئة الهيب الهوب ذات الوتيرة السريعة، سيقوم هو بإبطاء وتيرة كل شيء، حيث تجنب الاحتفال واحتفظ به لنفسه غالبا. وقرر أن يعامل شركة {كولومبيا للتسجيلات} كجامعة، فهي فرصته الوحيدة لتعليم نفسه في عالم الأعمال. فقد كان يُسجّل أغانيه في الليل ويمضي اليوم بأكمله في مكاتب كولومبيا، متحدثا إلى الأشخاص في كل قسم. فتعلم أكثر فأكثر حول التسويق والتوزيع والتفاصيل العملية للأعمال، إذ درس جميع جوانب عملية الإنتاج وما يدخل في صناعة الأغنية الناجحة و تدرب على موسيقاه مرارا وتكرارا. فعندما أرسلته العلامة الموسيقية هو والعشرات من مغني الراب إلى قسم المونتاج في شمال نيويورك لكتابة الأغاني، عاد بستة وثلاثين لحنا بينما استطاع أغلبية الباقين بالكاد جمع خمسة أو ستة.

في أعقاب محاولة اغتياله في عام 2000م، قامت شركة {كولومبيا للتسجيلات} باستبعاده من علامتها الموسيقية، إلا أنه كان في ذلك الوقت قد تجاوز حاجته إلى خبرتها. حيث راكم الكثير من الخبرات و المهارات التي مكّنته من تطبيق الحملة الخاصة بألبومه المنوع، صانعا الأغنيات بسرعة جنونية ومُسوِّقا موسيقاه بذكاء كأي خبير في هذا المجال. فتطوّر خطوة بخطوة إلى أن جذبت الحملة انتباه {إيمنيم} الذي تعاقد معه ليضمه إلى علامته الموسيقية في شركة {انترسكوب} في عام 2003م.

وجد نفسه بعد عدة سنوات في عالم الشركات، واكتشف سريعا أنّ هذا العالم لا يختلف كثيرا عن الشوارع. فالعديد من رجال الأعمال والمُديرين التنفيذين الذين التقاهم لديهم نفس مستوى نفاذ الصبر. فهم يفكرون لمدى بضعة أشهر أو أسابيع فقط، وعلاقتهم بالمال عاطفية، كوسيلة لإبراز أهميتهم لتغذية كبريائهم. حيث يأتونه بمخططات تبدو جذابة في الوقت الحاضر لكنها لا تؤدي إلى أي وجهة على الطريق، فهم غير متناغمين مع التغيرات الهائلة الجارية في العالم والتخطيط لاستثمارها في المستقبل، لأن هذا سيستغرق الكثير من الجهد والوقت.

هذه الشخصيات في عالم الأعمال جاءت له بصفقات مضمونة من كل الجوانب ليكسب بعض الملايين السريعة، متصورين بأنه مثل بقية مغني الرّاب الذين يتشبثون بمثل هذه الفرص. إلاّ أن الصفقات المضمونة لن تساعده في بناء شيء ثابت أو حقيقي، فهي لا تعدو كونها أموالا وهمية. لذلك فقد رفض عروضهم واختار أن يبدأ بأعماله وفقا لشروطه الخاصة، بحيث يبني كل عمل على أساس العمل الأخير كالخيوط في السلسلة. وكان الهدف هذه المرة بسيطا : تأسيس إمبراطورية تدوم طويلا، وكما كان في السابق، سيصل إلى هناك من خلال إصراره المستمر.

الأسلوب الجريء

لا يستطيع معظم الناس تحمُّل الملل. هذا يعني أنه لا يمكنهم الاستمرار على شيء واحد إلى أن يتقنوه، ثم يتساءلون لماذا هم غير سعداء.

{فيفتي سانت}

كانت الحياة بالنسبة لأغلب أسلافنا البدائيين عبارة عن صراع مستمر، حيث تستلزم عملا لا نهاية له من أجل توفير المأكل والملبس. إذا كان هناك أي وقت من الفراغ، فإنه مُخصص عموما للطقوس التعبدية التي تعطي معنى لهذه الحياة الشاقة. وعلى مدى آلاف السنين من تطوُّر الحضارة، أصبحت الحياة بالتدريج أكثر سهولة للكثيرين، ومع ذلك أصبح هناك وقت الفراغ أكثر فأكثر. ففي مثل هذه اللحظات لم تكن هناك حاجة إلى العمل في نطاق ما أو القلق بشأن الأعداء أو الموارد، فهي مجرد فسحة من الساعات لملئها بطريقة أو بأخرى. وفجأة وُلدت عاطفة جديدة في هذا العالم، وهي الملل.

يكون العقل أثناء العمل أو التعبد مملوءً بمهمات متعددة لإِنجازها، ولكن عند وجود الفرد معزولا في المنزل، فإن وقت الفراغ هذا يسمح للذهن أن يتجول أينما شاء. مما يجعله ينجذب جراء هذه الحرية في التفكير إلى الأمور المقلقة بشأن المستقبل والمشاكل المحتملة والاخطار. فهذا الوقت الفارغ يعكس بصورة خافتة الفراغ الأبدي للموت نفسه. لذلك فإن هذه العاطفة الجديدة التي واجهها أسلافنا، وصلت إلينا كرغبة تطاردنا إلى يومنا هذا - هربا من الملل بأي ثمن من أجل إبعاد انفسنا عن القلق والخوف.

تشمل الوسائل الرئيسية للإلهاء بشكل عام جميع أنواع الترفيه، والمخدرات، و الكحول والأنشطة الاجتماعية. إلا أن لتلك المُلهيات أثر سريع الزوال كالمخدرات، حيث نعشق الأشياء الجديدة والسريعة التي تخرجنا من أنفسنا وتبعدنا عن الوقائع القاسية للحياة وعن تسلل الملل إلينا. حضارة روما القديمة انهارت بأكملها تحت ضغط هذه الحاجة والعاطفة الجديدة، إذ أصبح

اقتصادها مقيدا بابتكار الأنواع المستحدثة من الكماليات والترفيه التي استنزفت أرواح مواطنيها، ولم يتبق إلا القليل ممن لديه استعداد للتضحية بمتعتهم في سبيل العمل الجاد أو للمصلحة العامة.

هذا هو النمط الذي خلقه الملل للكائن الإنساني منذ ذلك الحين، حيث ننظر لما هو خارج أنفسنا من أجل الملهيات ونغدو معتمدين عليها. وتتمتع هذه الملهيات بسرعة ذات وتيرة أكبر من الوقت الذي نمضيه في العمل، فبالتالي يُختبر العمل كشيء ممل، بطيء و متكرر. كما أن أي شيء آخر يشكّل تحديا أو يتطلب جهدا، ينظر إليه بنفس الطريقة، فهو ليس ممتعا ولا سريعا. إذا ذهبنا في هذا الاتجاه بعيدا بما فيه الكفاية، سنجد أن اكتساب الصبر لتحمل العمل الجاد اللازم لإتقان أي نوع من الحرف، يصبح صعبا على نحو متزايد. و يصعب كذلك إمضاء الوقت وحيدا، وتنقسم الحياة بين ما هو ضروري {وقت العمل} و ما هو ممتع {الملهيات والتسلية}. ففي الماضي، كانت الحالات الشديدة من الملل تصيب غالبا أولئك الذين في الطبقات العليا في المجتمع، أما الآن فهو شيء يعاني منه معظمنا.

ومع ذلك، هناك علاقة أخرى مرتبطة بالملل و وقت الفراغ، تتمثل في الجرأة التي تؤدي إلى نتائج مختلفة جدا عن الإحباط والهروب. إذ يكون كالآتي : لديك هدف كبير تتمنى إنجازه في حياتك، شيء تشعر أنه مقدّر لك للقيام به. إذا بلغت هذا الهدف، سيجلب لك مستوى من الإشباع أعمق بكثير من الرعشات الزائلة الناتجة عن الملهيات الخارجية. لتفعل هذا يجب أن تتعلم حرفة ما، أي أن تُعلّم نفسك وتطوّر المهارات الملائمة، حيث تتضمّن جميع النّشاطات الإنسانيّة على عملية الاتقان. وعليك أن تتعلّم الخطوات المختلفة والإجراءات التي تحتويها، للانتقال إلى مستويات أعلى فأعلى من الاحتراف والكفاءة. فالأمر الذي يتطلب منك الانضباط، والمثابرة، والقدرة على تحمل الأنشطة المتكررة، و البطء والقلق المتأتي مع هذا التحدّي.

حينما تبدأ بالمضي في هذا المسار، سيحدث شيئان: {الأول} إن امتلاكك لهدف أكبر سيجعل عقلك خارج نطاق الوقت وسيساعدك على تحمل العمل الجاد والكدح. و{الثاني} أنه كلما أصبحت أفضل في هذه المهمة أو المهنة، كُلما سيكون الأمر ممتعا بشكل متزايد. حيث سترى تطورك في هذه العمليّة، وتطّلِع على العلاقات والاحتمالات التي لم تلاحظها من قبل فيصبح عقلك منغمسا في اتقانها بشكل أكبر. وفي خضم هذا الانغماس ستنسى مشاكلك، ومخاوفك من المستقبل وألعاب الناس المقرفة. ولكن على عكس التحويل الذي يأتي من مصادر خارجية {لمُلهيات}، فهذا المسار

سينبثق من الداخل. وستُطوِّر هذه المهارة لمدى الحياة، كنوع من الانضباط الذهني الذي سيشكّل قاعدة لقوتك.

لتفعل ذلك، عليك أن تختار مهنة أو حرفة تُشعرك بالبهجة بشكل عميق، بحيث لا تضع فاصلا بين العمل والمتعة. ويجب أن تأتي متعتك من إتقان عملية التّعلم ذاتها والانغماس العقلي الذي تتطلّبه.

كانت معظم الأعمال المتاحة في منطقة الجوار ذات مردود منخفض ونوع من العمل المتواضع الذي لا يؤدي إلى مهارات حقيقية. حتى الاحتيال هو في الواقع عمل مُضجر ولا يُعتبر طريقا ذو مستقبل جيد. إزّاء هذا الواقع، يتجه الناس إلى أحد الطّريقين، إمّا أن يتطلعوا للهروب من هذا الوضع من خلال المخدرات، الكحول، أنشطة العصابات، أو من كل ما يمكنه أن يوفر المتعة الفورية. أو قد يستطيعوا الخروج من هذه الدائرة عن طريق تطوير عمل مكثف، ومنضبط و ذو مصداقية. إن النوع الذي يسير في الاتجاه الثاني لديه تعطّشاً عميقا للسّطوة وشعورا كبيرا بالإلحاح. إن القفز على أعقابهم في كل الحالات يشكل احتمالا لحياة من الأعمال الوضيعة أو الملهيات الخطرة، لذا فهم يُعلّمون أنفسهم الصّبر والتّدرب على شيء ما. إذ إنّهم تعلموا في وقت مبكر من خلال أعمالهم أو من الاحتيال، أن يتحملوا الوقت الطويل الممل واللاّزم لإتقان عمل ما. فهم لا يعاقرون الخمر أو يبحثون عن الهروب من هذا الواقع، بل يرونه كوسيلة نحو الحرية.

إن البعض منّا الذين لم ينشؤوا في مثل هذه البيئات، لا يشعرون بهذه العلاقة الهامة بين الانضباط والقوة. فأعمالنا لا يشوبها قدر من الملل، وقد تقودنا يوما ما إلى شيء جيد فعلا، أو هذا ما نعتقده. كما طوَّرنا في أنفسنا بعض الانضباط في المدرسة أو العمل وهو بالنسبة لنا كاف. إلاّ أننا في الحقيقة نخدع أنفسنا، فأعمالنا في معظم الأحيان هو شيء نتحمله، حيث نعيش من أجل أوقاتنا خارج العمل لنحلم بمستقبلنا. فنحن لسنا مرتبطين بالنشاط اليومي في العمل بكامل قوانا الذعقلية، لأنه ليس ممتعا كالحياة خارجه. و نبدي تحملا أقل فأقل للحظات الملل والأنشطة المتكررة. إذا حدث أن خسرنا وظائفنا أو رغبنا في شيء آخر، فإننا نواجه فجأة حقيقة أننا لا نمتلك الصبر اللاّزم لصنع التغيير الملائم. فقبل أن يفوت الأوان، علينا أن نستيقظ لندرك أن القوة الحقيقية والنجاح يتحققان من خلال إتقان عملية التعلم، والتي تستند إلى قاعدة من الصبر الذي يجب أن نقوّيه باستمرار.

إن الأنواع الجريئة في التاريخ تُظهِر حتما في حياتها صبرا أعلى من معظمنا على المهمات المملة والمتكررة، مما يتيح لهم الإبداع في مجالاتهم وإتقان مهنهم. وجزء من هذا يأتي من رؤيتهم بشكلٍ مبكر النتائج الملموسة المترتبة على هذه الصرامة والصبر في حياتهم. ففي هذا السياق، توضح لنا قصة {إسحاق نيوتن} بشكل خاص هذا الأمر. ففي بداية عام 1665م، كان طالبا في جامعة {كمبردج} في الثالثة والعشرين من عمره وعلى وشك أداء امتحاناته ليكون عالم رياضيات، حينها تفشّى الطاعون فجأة في لندن. وكانت الوفيات مروعة وتتضاعف يوميا، فهرب الكثير من سكان لندن إلى الرّيف حيث نشروا الوباء على نطاق أطول وأوسع. وبحلول الصيف، أُجبِرَت {كَمبردج} على الإغلاق وتفرّق طلابها في كل مكان من أجل سلامتهم.

بالنسبة لهؤلاء الطلاب، لا شيء يمكن أن يكون أسوأ من ذلك. إذ أُرغِموا على العيش في قرى متفرقة و عانوا من خوفٍ شديد والعزلة طوال العشرين شهرا التالية. وباشتداد الطاعون في أنحاء انجلترا، لم يعد لدى عقولهم النّشطة شيء لتتعلمه، والعديد منهم كادوا أن يصابوا بالجنون بسبب الملل. أما نيوتن فقد أظهرت له أشهر الطاعون على الرغم من ذلك شيئا مختلفا كليا. حيث عاد إلى منزل والدته في {وولستورب لينكولنشاير}. كان قد انشغل في كامبردج بسلسلة من المشكلات الرياضية التي لم تزعجه هو فقط، بل كذلك أساتذته. فقرر أنه سيقضي الوقت في {وولستورب} للعمل على مثل هذه المشاكل، و لهذا السبب حمل معه عددا كبيرا من كتب الرياضيات التي جمعها، فقرر أن يدرسها بالتفصيل الدقيق. و أخذ يراجع نفس المشاكل يوما بعد يوم، مالئا دفاتر الملاحظات بمعادلات وحسابات لا حصر لها.

عندما تكون السّماء صافية، كان يتجول في الخارج ويواصل هذه التأملات أثناء جلوسه في بساتين التفاح المحيطة بالمنزل. فأخذ ينظر إلى تفاحة تتدلى على غصن، وحجمها في عينيه كان مساويا للقمر أعلاه، وتأمل العلاقة بين الاثنين – ما الشيء الذي يحمل الأول على الشجرة و ما الشيء الذي يحمل الآخر في مدار الأرض، مما قاده إلى أفكار بشأن الجاذبية. وحدق في الشمس وتأثيرها البصري على كل شيء حوله، وبدا يقوم بتجاربه الخاصة على الحركة وعلى خصائص الضوء ذاته. عندئذ تدفق عقله تلقائيا بمشكلات علم الهندسة وعلاقتها كلها بالحركة والميكانيكا.

كلما تعمق أكثر في هذه الدراسات، كلما استطاع رؤية العلاقات بشكل أوضح التي مكّنته من تكوين انطباعات مفاجئة. فقام بحل المشكلة تلو الأخرى، وكان حماسه و دافعيته يتسارعان عند

ادراكه للقوى التي يطلقها بداخله. بينما كان الآخرين عاجزين بسبب الخوف والملل، أمضى هو العشرين شهرا بأكملها دون فكرة عن الطاعون أو قلق بشأن المستقبل. كما وضع في هذا الوقت أيضا أساس الرياضيات الحديثة، والميكانيكا والبصريات. وتعتبر الفترة المذكورة، هي الأكثر غزارة وتركيزا من التفكير العلمي في تاريخ البشرية. وقد كان يمتلك {إسحاق نيوتن} بالطبع عقلا فريدا، ولكن لم يشك أحد في كامبردج من قبل بوجود هذه القوى الذهنية عنده. لقد استغرق هذه المدة من العزلة الاجبارية والعمل المتكرر من أجل تحويل نفسه إلى عبقري.

عندما ننظر إلى أولئك الذين برزوا في التاريخ، نميل إلى التركيز على إنجازاتهم، حيث يسهل علينا من هذه الزاوية أن نكون مبهورين فنرى أن نجاحهم ناتج عن عبقرية متأصلة في جيناتهم أو ربما بعض العوامل الاجتماعية. وأنهم موهوبين، ويصعب علينا بلوغ مستواهم أو هذا ما نعتقده. ولكننا نختار تجاهل الفترات الصعبة التي مروا بها في حياتهم، عندما خَضع كل واحد منهم لفترة تدريب قاسية و مملة في مجالاتهم. وما دفعهم إلى الاستمرار هي القوة التي اكتشفوها سريعا من خلال إتقان خطوات معينة. كما أتت إلى أذهانهم انطباعات مفاجئة تبدو كالعبقرية بالنسبة لنا، إلا أنها في الواقع جزء من أي عملية تعلم مكثفة.

إذا اقتصرنا على دراسة ذلك الجزء من حياتهم على عكس الأسطورة التي يكونوا عليها لاحقا، سندرك أنه باستطاعتنا نحن أيضا الحصول على تلك القوة بواسطة الانغماس البطيء في أي حقل للدراسة. ولا يمكن للكثير من الناس التعامل مع الملل الذي يستتبع هذه العملية، فهم يخشون البدء بهذه العملية المضنية مفضلين عليها ملهياتهم، أحلامهم، و أوهامهم، غير واعين بالمتعة العليا الموجودة هناك لِأولئك الذين اختاروا تعليم أنفسهم وإتقان مجال حرفتهم.

مفاتيح الجرأة

تأتي جميع مشاكل الإنسان من عدم معرفته لكيفية الجلوس وحيدا في غرفته.

{بليز باسكال}

كما يتعلم الأطفال اللغة، نخضع كلنا لنفس العملية. حيث نختبر في البداية قدرا ضئيلا من الإحباط - حيث يكون لدينا رغبات وحاجات نتمنى التعبير عنها، ولكننا نفتقر للكلمات. وبشكل تدريجي

نلتقط عبارات ونستوعب أنماط الكلام، وفي الأخير نجمع المفردات كلمة بكلمة. بعض هذه الأمور تكون ممل، إلا أننا نكون مدفوعين إليها بسبب فضولنا الشديد وتعطُّشِنا للمعرفة. في مرحلة معينة، نكتسب مستوى من الطلاقة، حيث يمكننا بموجبها التواصل بشكل أسرع مما نعتقد. و بعد ذلك لا نعود بحاجة للتفكير فالكلمات تخرج تلقائيا، وفي الأوقات التي نشعر فيها بالإلهام فإنها تتدفق منا بطرق لا يمكننا حتى تفسيرها. إن تعلم اللّغة سواء كانت لغتنا أو أخرى أجنبية تتضمن عمليّة من التركيز المكثف والتي لا يمكننا تفاديها، فليست هناك طرق مختصرة.

يُحدّد تعلّم اللغة نمطا لجميع أنشطة الإنسان، سواء كانت ذهنية محضة أو مادية. لكي نتقن آلة موسيقية أو لعبة فإننا نبدأ بأدنى مستوى للمهارة، حيث تبدو اللعبة مملة لاضطرارنا إلى تعلم القواعد واللعب على مستوى بسيط. وكما في تعلم اللغة، فإننا نشعر بالإحباط عند رؤيتنا الأخرين يلعبون جيدا ونتخيل كيف يبدو هذا الشعور، ولكننا محبوسون في تلك المرحلة من التدريب والتكرار الممل. ففي هذه النقطة إما أن نستسلم لإحباطنا ونوقف العملية، أو نتقدم مُحرّرين القوى المتوارية بالقرب منا. وبشكل تدريجي سترتفع قدراتنا وينخفض شعورنا بالإحباط، ولا نكون بحاجة للتفكير كثيرا، إذ نُفاجأ بمرونتنا والروابط التي انتابتنا في ومضة سريعة.

في الوقت الذي نصل فيه لمرحلة معينة من الاتقان، سنجد بأنه هناك مراحلا وتحديات أعلى. فإذا كنا منضبطين وصبورين فإننا سنتقدم، حيث تنتظرنا في كل مرحلة أعلى متعة وتبصر لم نكن حتى نتوقعه عندما بدأنا. و يمكننا المضي في ذلك إلى أبعد مما نرغبه، ففي أي نشاط بشري هناك دائما مستوى أعلى نستطيع الارتقاء إليه.

كان مفهوم التعلم هذا جزءا رئيسيا من الحكمة العملية لآلاف السنين، و هو متضمن في مفهوم إتقان أية مهنة. حيث تتوقف حياة الإنسان على بناء المعدات والسفن والمباني وغيرها، ولبنائها بشكل جيد، كان على المرء أن يتعلم الحرفة أولا، ممضيا سنوات في تدريب مهني يتقدم فيه خطوة بخطوة. ومع ظهور المطبعة والكتب التي يمكن توزيعها على نطاق واسع، تم تطبيق هذا الانضباط والصبر على التعليم، بهدف تحصيل المعرفة رسميا. إن الأشخاص الذين يظهرون أنفسهم كمتعلمين دون قضاء سنوات في مراكمة المعرفة، كانوا يُعتقد أنهم دجالون و مشعوذين وجديرين بالازدراء.

ومع ذلك، فقد وصلنا اليوم إلى مرحلة خطيرة يتمّ فيها نسيان هذه الحكمة الأوّلية. ويرجع السبب في هذا الأمر إلى الجانب المدمر للتكنولوجيا. إذ ندرك كلنا منافعها الهائلة والقوة التي امدتنا بها، إلا أن هذه السرعة والسهولة الشديدة في الحصول على ما نريد تضمنت نوعا جديدا من التفكير. نحن كائنات عديمي الصبر بالفطرة، ويصعب علينا دائما أن نرغب شيئا دون أن تكون لدينا إمكانية اكتسابه. وقد أبرزت السرعة المتزايدة للتكنولوجيا هذا الجانب الطفولي من شخصياتنا، بحيث يبدو التراكم البطيء للمعرفة مملا بشكل غير ضروري، حيث يجب أن يكون التعلم ممتعا بشكل سريع وسهل. وأن على شبكة الانترنت أصبح بإمكاننا إقامة علاقات قوية، و التنقل السريع على السطح من موضوع إلى آخر. كما أصبحنا نقدّر سعة المعلومة أكثر من عمقها، أي أننا نفضل القدرة على التنقل هنا وهناك بدلا من الحفر عميقا في مصدر المشكلة لِإيجاد كيفية اختلاف الأشياء.

وقد فقدنا إحساسنا في هذه العملية . حيث في مثل هذا الجو يظهر المشعوذون كالأعشاب الضارة، يُقدّمون الأسطورة القديمة بشأن إمكانية التغيير بشكلٍ أسرع – أي الطُّرق المُختصرة نحو السّطوة، والجمال، والنجاح – ويُقدّمونها على شكل كتب، وأقراص مدمجة، و{أسرار} قديمة تمت إعادتها إلى الحياة. فيجدون الكثير من الحمقى لاستغلالهم فيما يُروّجونه.

لا يُعدّ هذا النمط الجديد من التعلم والتفكير تقدُّماً، بل يخلق ظاهرة يمكن تسميتها بـ{الدائرة القصيرة}. ويتطلب بلوغ نهاية أي شيء و إتقان عملية التعلم زمناً طويلا، وتركيزا، وطاقة. فعندما يكون الناس مشتتين جدا، فإن عقولهم تنتقل من شيء لآخر باستمرار، فيصبح من الصعب عليهم بشكل متزايد الاحتفاظ بالتركيز على شيء واحد لساعات قليلة أو البقاء مُنعزلين لأشهر أو سنوات. إنّ العقل يميل تحت هذا التأثير إلى الدائرة القصيرة، فهو لن يكون قادرا على المضي في الطريق بأكمله إلى نهاية مهمة ما. بل سيرغب في الانتقال إلى شيء آخر يبدو أكثر جاذبية. فتصبح صناعة الأشياء صعبة عندما يكون التركيز مفقودا، الأمر الذي يفسّر الكم المتزايد من المنتجات الرديئة، والتي تم إنشاؤها مع القليل من الاهتمام بالتفاصيل.

افهم هذا : إن السر الحقيقي والمعادلة الحقيقية للسّطوة في هذا العالم تكمن في قبول الحقيقة المؤلمة بأن التعلم يتطلب عملية مستمرة، وهذا بدوره يستوجب الكثير من الصّبر والقدرة على تحمل العمل المضنى. ولا يتعلق الأمر بشيء مثير أو اغوائي قد يحدث من أول وهلة، ولكنها

حقيقة قائمة على شيء واقعي وجوهري - حكمة قديمة لا يمكن نقضها. إن المفتاح هو مستوى رغبتك، فإذا كنت تريد القوة والإتقان بالفعل فستتشرب هذه الفكرة بعمق و تطبعها في ذهنك، فليست هناك طرق مختصرة. و لن تثق بعد ذلك بأي شيء يأتي بشكل سريع وسهل، و ستكون قادرا على تحمل الشهور الأولى من الملل والعمل المكرر لأن لديك هدفاً أسمى. هذا ما سيحول بينك وبين الطرق المختصرة أو معرفة الكثير من الأشياء دون إتقان أي منها. في النهاية، إن ما تقوم به حقا هو تحقيق الاتقان لنفسك – أي أن تحاول أن تدرب نفسك على الابتعاد من قلة صبرك، وخوفك من الملل و وقت الفراغ، وحاجتك المستمرة للتسلية والمتعة.

فيما يلي خمس استراتيجيات رئيسية لتطوير العلاقة المناسبة للعملية.

تعلّم من خلال التّجربة والخطأ

نظرا لقيامه بالملاكمة في الشوارع في مراهقته، شعر {ديجاك جونسون} بأنه سيستطيع يوما ما أن يكون ملاكما عظيما. إلا أنه أسود وفقير جدا لدرجة ليست لديه قدرة على تحمل تكاليف المدرب. لهذا السبب، بدأ في عام 1896م، في عمر الثامنة عشر بعملية تطور قاسية مميزة. حيث كان يبحث فيها عن أي ملاكمة محتملة يمكنه دخولها في الحلبة، مع أي نوع من الخصوم. فقد عانى في البداية من بعض الأدى الفظيع من ملاكمين استخدموه كمادة للضرب، ولكن بما أن ذلك كان طريقه الوحيد للتعلم، فقد تمكن سريعا من أن يصبح مراوغا بقدر الإمكان من أجل إطالة أمد الملاكمات بما يتيح له التّحمُّل والتّعلُّم.

في الوقت ذاته، كانت الملاكمات تستمر أحيانا لعشرين جولة كاملة، وهدف {جونسون} دائما هو استدراجهم إلى الحد الأقصى. وأثناء ذلك كان يدرس خصومه بعناية، فلاحظ كيف أن بعض النوعيات تتحوّل إلى أنماط أكثر هدوءا بينما يزيد آخرون في توجيه لكماتهم. كما صنفهم بحسب نظرات أعينهم ولغة أجسادهم، وتعلم كيف يستدرج البعض منهم إلى حالة غضب ليستطيع دراسة ردود أفعالهم، فيركن إلى الجمود مع البعض الآخر بنمط ساكن ليرى أثر هذا أيضا.

كان منهج {جونسون} مؤلما إلى حد ما، فهو يعني خوض خمسة عشر إلى عشرين مباراة في السنة، وعانى من عدد لا يحصى من الضربات. وعلى الرغم من انتصاره على معظم خصومه، إلا أنه فضّل أن يكون مراوغا ويتعلم هذا العمل ، مما يعني الاستماع الى سخرية لا حد لها من

غالبية الجماهير البيض بأنه كان جبان. إلا أنه وتدريجيا، بدأ الأمر يعطي نتائجا جيدة. حيث واجه العديد من الخصوم لدرجة أنه أصبح ماهرا في إدراك نمطهم الخاص منذ اللحظة التي بدأ فيها القتال، كان بمقدوره أن يستشعر مواطن ضعفهم والوقت الذي يتحرك فيه بالتحديد لتوجيه الضربة القاضية. ولقد كيّف نفسه عقليّا و جسديّا مع وتيرة المباريات الطويلة القاسية، فاكتسب حدسا بمساحة حلبة الملاكمة ذاتها وكيفية مناورة واستنفاذ خصمه على مدار العشرين جولة. وقد اعترف الكثير من خصومه لاحقا بأنه بدا قادرا على قراءة أذهانهم، إذ كان دائما متقدّما عليهم بخطوة. فباتباعه هذا المسار، حوّل {جونسون} نفسه في غضون بضع سنوات الى بطل العالم للوزن الثقيل وأعظم ملاكم في عصره.

إن معظم مفهومنا عن التّعلم هو استيعاب الأفكار من الكتب، والقيام بما يطلبه منا الآخرون لفعله أو ربما أداء بعض التمارين الخاضعة للمراقبة. ولكن ذلك يعدّ مفهوما ناقصا وجبانا للتّعلم، ومنقطعا عن الخبرة العملية. فنحن كائنات نعمل الأشياء ولا نكتفي ببساطة بتصورها، بل لإتقان أيّة عملية عليك أن تتعلم بواسطة التجربة والخطأ. فأنت تجرّب، وتتلقى بعضا من الضربات المؤلمة، فترى ما يعمل وما لا يعمل في الوقت الحقيقي، وتُعرّض نفسك وعملك للمراقبة العامة. لذلك فان أخطاءك تنطبع في جهازك العصبي ولن ترغب بتكرارها، ويتقيّد نجاحك بالتجربة المباشرة التي تعلمك أكثر. وعليه، عليك أن تحترم هذه العمليّة بصورة عميقة، لأنك ترى وتشعر بهذا التّطور الذي تستطيع صنعه من خلال التدريب والعمل المستمر. فإذا مضيت في الأمر بعيدا بما فيه الكفاية، ستكتسب حاسة طرف الأصبع حول ما تكون الحاجة لعمله، لأن معرفتك ستصبح مرتبطة بشيء مادي داخلي. و يعتبر التمتع بهذا الحدس هو أقصى مرحلة في الإتقان.

أتقن شيئا بسيطا

غالبا ما يكون لدينا إحساس عام بانعدام الثقة، لأننا لم نتقن بالفعل أي شيء في الحياة. وبشكل غير واع نشعر بالضعف ولا نمضي بعيدا في مهمتنا، وقبل أن نبدأ بأي شيء فإننا نشعر بالعجز و الفشل. إن الطريقة الأفضل لتخطي ذلك نهائيا هي مواجهة هذا الضعف وجها لوجه وبناء نوع من الثقة في أنفسنا. ويجب أن يتم هذا أولا بتجربة شيء بسيط وأساسي، من أجل اختبار أنفسنا حول القوة التي يمكن لنا اكتسابها.

كان {ديموستيس} واحدا من أعظم الشخصيات السياسية في أثينا القديمة، و من خلال اتباعه هذا المسار، قرر أن يتغلب على خوفه الشديد من التحدث أمام العامة. ففي طفولته كان ضعيفا وعصبيا، ويتكلم بصوت متلعثم دون التوقف للتنفس، ولذلك كان يتعرض للسخرية دائما. وعندما أصبح شابّا، توفي والده تاركا له مبلغا جيدا من المال، إلا أن أوصياؤه سرعان ما استولوا على ثروته بالكامل. فقرر أن يصبح محاميا ويأخذ الجناة في نهاية المطاف إلى المحكمة بنفسه، إلا أن المحامي يحتاج إلى أن يكون متحدثا بليغا وهو فاشل جدا في هذا الأمر. ثم قرر التوقف عن مجال القانون على الرغم من أن ذلك بدا له شديد الصعوبة. ومع المقدار القليل من المال الذي كان لديه، سيعتزل العالم وسيحاول بطريقة ما أن يعالج إعاقته الكلامية، بما يتيح له على الأقل تقلّد نوع من الوظائف العمومية.

أخذ يدرس بصورة سرية في مكان يتيح له التدرب بمفرده، كما قام بحلق نصف رأسه حتى يشعر بالحرج من الخروج أمام الناس. ومن أجل تخطي هذا التلعثم، كان يمشي على طول الشاطئ مالئا فمه بالحصى الصغيرة، مرغما نفسه على التحدث عاليا دون توقف وبقوة أكبر من صوت الأمواج. كان يكتب الخطابات ويقوم بتسميعها أثناء صعوده على منحدرات حادة، من أجل تنمية تقنيات أفضل للتنفس. بالإضافة إلى ذلك، قام بتثبيت مرآة أثناء دراسته، لِيمكّنه من مراقبة تعبيرات وجهه عن قرب عند خطابته. كما دخل في محادثات مع زوار منزله، مع قياس كيفية تأثير كل كلمة أو نغمة عليهم. خلال سنة من هذا التدريب المكرس، تمكن من إزالة التلعثم بالكامل وحوّل نفسه إلى أكثر من خطيب مناسب. و بعد هذا كله قرر أن يعود إلى القانون ثانية، ومع كل قضية جديدة يكسبها ترتفع ثقته إلى آفاق جديدة.

نتيجة لتقديره أهمية التدريب، عمل بعدها على تطوير مهارته في إلقاء الخطابات. و تحوّل تدريجيا إلى الخطيب الأسمى في أثينا القديمة. وقد تُرجمت هذه الثقة المكتشفة حديثا إلى كل شيء فعله، إذ أصبح شخصية سياسية قيادية وعرِف بجرأته في مواجهة أي عدو.

عندما تستغرق الوقت الكافي لإتقان عملية تعلم بسيطة، للتغلب على مواضيع عدم الأمان الأساسية، فإنك تطور مهارات معينة يمكنك تطبيقها على أي شيء. كما ستلاحظ باستمرار الثمرات الناتجة عن الصبر، ومن التدريب والانضباط ، فتكتسب حسًّا بأنك تستطيع غالبا خوض

أيّة مشكلة بذات الطريقة. فأنت في الحقيقة تصنع لنفسك نمطا من الثقة الذي سيُمكنك من الاستمرار بشكل أسمى.

استوعِب قواعد اللّعبة

لكونه طالب قانون في جامعة {هاوارد} في أوائل عام 1930م، تأمّل {ثورغود مارشال} العديد من أنواع الظلم الذي يتعرض له السود في الولايات المتحدة الأمريكية، ولكن النوع الذي تأثر به عميقا هو الظلم الشديد في التعليم. حيث جال الجنوب في بعثة استطلاع حقائق تابعة للجمعية الوطنية للنهوض بالملوّنين [NAACP]، و اطلّع مباشرة على الجودة المتردية للمدارس المخصصة للسود. كان هو بنفسه قد شعر بهذا الظلم، إذ كان يريد الالتحاق بجامعة {ماريلاند} القريبة من منزله والمتضمنة لكلية حقوق ممتازة، ولكن الطلبة السّود كانوا ممنوعين من القبول هناك بغض النظر عن سجلهم الأكاديمي. ليتم تحويلهم إلى جامعات السّود مثل {هاوارد} التي كانت في ذاك الوقت أقل مستوى من غيرها. تعهد {مارشال} بأنه سيساهم في يوم ما وبطريقة ما، في استبعاد هذا النظام الجائر.

عند تخرجه من {هاوارد} في عام 1933م، واجه قرارا مهما بشأن مستقبله، حيث عُرضت عليه منحة دراسية في جامعة {هارفارد} للحصول على درجة عليا في القانون، الأمر الذي يمثل فرصة لا تصدق. إذ يمكنه أن يؤسس لنفسه مركزا جيدا في العالم الأكاديمي ليروج لأفكاره في العديد من الصحف، خاصة أن ذلك كان في خضم فترة اليأس، وعدم توفر وظائف للسّود إلا القليل جدا، وأن درجة علمية من {هارفارد} ستضمن له مستقبلا مزدهرا. إلا أن شيئا ما دفعه في الاتجاه المعاكس، حيث قرر بدلا من ذلك أن يبدأ تدريبا خاصا في {بالتيمور} ويتعلم من الأساس كيف يعمل نظام العدالة. ففي البداية بدا القرار أحمقا، فهو لم يكن لديه إلا القليل من العمل، و ديونه تتزايد، وكان قد خسر القضايا القليلة القليلة عنده دون أن يعرف السّبب. يبدو أن نظام العدل يتمتع بقواعده وأعرافه الخاصة التي لم يكن لديه طريق إليها.

فقرر {مارشال} أن يطبق استراتيجية مميزة للتغلب على ذلك. أولا، أن يحرص على التأكد من أن مذكراته القانونية كانت أعمالا مميزة من البحث والتفصيل، دون أية أخطاء أو محو، مع التزامه دائما بأكثر الأساليب المهنية في اللباس والتصرف بأقصى درجات المجاملة، دون

الظهور بمظهر المنحني الخاضع أو الفظ. بمعنى آخر، لم يمنح أحدا أدنى ذريعة للحكم ضده. وبهذه الطريقة بدد الشك و بدأ يربح القليل من القضايا، وحصل على مدخل لعالم المحامين البيض. الآن وعند دراسته هذا العالم عن قرب، اكتشف أهمية العلاقات والصداقات، وشبكات السلطة التي لم يكن يعرف عنها في السابق. كما أدرك أن بعض القضاة يتطلبون معاملة معينة، لذا فقد تعلم أن يتكلم اللغة ويكيفها اجتماعيا بأفضل ما يمكن. فوجد أنه في معظم القضايا، من الأفضل أن يتم النقاش حول نقاط تتعلق بإجراءات ضيقة بدلا من المفاهيم الأساسية.

نظرا لمعرفته كيفية المناورة ضمن هذه القواعد والأعراف، بدأ يربح المزيد والمزيد من القضايا. وفي عام 1935م، أقام دعوى ضد جامعة {ماريلاند} لصالح الطلاب السّود الذين حُرموا من القبول في كلية الحقوق بها، و قد ربحها. منذ ذلك الوقت، استخدم عِلمه لمحاربة كل أشكال العنصرية في نظام التعليم، وبلغ الذروة عام 1945م، مع انتصاره الأعظم على الإطلاق، حيث جادل المحكمة العليا في أمريكا في القضية المعروفة ب {براون ضد مجلس التعليم}. وقد أنهى حكم المحكمة الصادر لصالحه أيّ أساس للتمييز العنصري في التعليم في الولايات المتحدة الأمريكية. كان ما تعلمه مارشال {الذي أصبح لاحقا أول أمريكي - أفريقي يُعيّن في المحكمة العليا} بواسطة غمس نفسه في نظام العدالة المسيطر عليه من قبل البيض في عصره، أن التّطور الاجتماعي مهم بقدر التّطور القانوني أو الفني. ولم يكن هذا شيئا قد تعلمه في كلية الحقوق، ومع ذلك فإن ما تعلمه كان المفتاح لقدرته على العمل ضمن النظام، و إبراز القضية التي كان يصارع من أجلها.

افهم هذا : عندما تدخل مجموعة معينة كجزء من مهنة أو وظيفة، فهناك جميع أنواع القواعد التي تحكم السلوك - قيم الخير والشر، تنظيمات السلطة التي يجب احترامها، والأنماط التي يجب اتباعها للإجراء الناجح. إذا لم تراقبها وتتعلمها بصبر، سترتكب كل أنواع الأخطاء دون أن تعلم السبب أو كيف حدث. اعتبر المهارات السياسية والاجتماعية كحرفة، وعليك اتقانها كأي حرفة أخرى. في المرحلة الأولية من التدريب المهني، يجب أن تتصرّف كما فعل {مارشال} لتُخفي مميزاتك، فالهدف هنا ليس إثارة إعجاب الناس بتألقك بل تعلم تلك القواعد من الداخل. أنظر إلى الأخطاء الصارخة التي ارتكبها آخرون في المجموعة والسبب الذي جعلهم يدفعون ثمنا لها، فذلك سيكشف عن محرمات معينة ضمن الثقافة. وبمعرفتك العميقة لهذه القواعد يمكنك أن تبدأ بالمناورة بها لصالحك. في الوقت الذي تجد فيه نفسك في مواجهة نظام ظالم أو فاسد، فالطريقة

الأكثر فعالية هي دراسة قواعده من الداخل واكتشاف نقاط ضعفه، و من خلال معرفتك كيفية عمله يمكنك استبعادها لهدف نبيل.

انسجم مع التّفاصيل

نظرا لكونه طالب فنون شابّ في إيطاليا في أواخر القرن الخامس عشر، واجه {مايكل أنجلو} عائقا شخصيا. كانت لديه مفاهيم أساسية حول الأشياء التي أراد رسمها ونحتها، ولكنها لا ترقى إلى درجة المهارة المطلوبة. حيث شاهد الأعمال الفنية لفنانين آخرين ورغب في أن يتمتع عمله بذات الهالة والأثر، ولكنه أُحبِط بسبب السّطحية والتقليدية لما يصنعه. ثم قام بإجراء تجربة، فبدأ بنسخ أعماله المفضلة بجزئية بسيطة بالفرشاة، واكتشف أن التأثير الذي أبهره كثيرا كان متضمنا في التفاصيل. إن الوسيلة التي استطاع بها هؤلاء الفنانين صنع الأشكال، أو بعث الحياة في مشهد الطبيعة، من خلال تركيزهم الشديد على نقاط الجمال. وعليه، فقد بدأ بتدريب مهنيّ مميّز لحرفته، وسيدوم له لما بقي من حياته، ليُغيّر أسلوب تفكيره كليًّا.

عند صناعته لمنحوتاته، أصبح مهووسا بالهيكل العظمي، إلا أن الكتب والتقنيات المتعلقة بالموضوع بدت غير كافية له على الإطلاق. لذلك فقد بدا بتشريح الجثث البشرية واحدة تلو الأخرى، الأمر الذي منحه إحساسا عميقا بتكوين الإنسان، حيث استطاع أن يعكسه في عمله. كما تنامى اهتمامه بالأقمشة، وكيف ينثني كل نوع من الانسجة بطريقته الخاصة، وعمل على صقل إنتاجه من الملابس. بالإضافة إلى ما سبق، فقد وسّع دراساته للتفاصيل على الحيوانات وكيف تتحرك. حينما تم تكليفه بصنع أعماله الكبرى، تجنب الإغراء القديم بالبدء ببعض المفاهيم الأساسية، بدلا من ذلك نظر إلى المادة التي سيعمل عليها، والمساحة، والمكوّنات الفردية التي تضمها، ومن هنا سيتصور الشكل النهائي والأثر. وبواسطة هذا الاهتمام الشّديد بالتفاصيل، بدا أن {مايكل أنجلو} قد اكتشف السّر لجعل أعماله تنبض بالحياة بطريقة فاقت أي فنّان آخر في عصره.

عندما تبدأ بمشروع من أي نوع، فإن ذلك يكون غالبا من النهاية الخاطئة. حيث تميل إلى التفكير أولا بما تريد إنجازه، مُتخيلا المجد والمال الذي سيجلبه لك في حال نجاحه، ثم تحاول إخراج هذا المفهوم الى الحياة. ولكن باستمرارك في الأمر، فإنك في معظم الحالات تفقد الصبر لأن

الخطوات الصغيرة المؤدّية إليه ليست ممتعة كالرؤى المشوقة الموجودة في ذهنك. وعليك بدلا من ذلك أن تجرب الاتجاه المقابل، الذي يمكنه أن يؤدي إلى نتائج مختلفة - لديك مشروع تتمنى أن تخرجه للحياة، ولكنك بدأت بالانهماك في تفاصيل الموضوع أو الحقل. إذ نظرت إلى المواد التي ستعمل عليها، أذواق جمهورك المستهدف، وآخر التطورات التقنية في مجالك. فستستمتع بالتعمق أكثر فأكثر في هذه النقاط الجمالية، فيُصبح بحثك مركز. وستقوم بتشكيل المشروع نفسه وفقا لهذه المعرفة، حيث ستؤسّسه على واقعك، بدلا من مفاهيم راكدة في عقلك. إن التّصرف بهذه الطريقة يساعدك على إبطاء وتيرة ذهنك وتنمية الصّبر للعمل التفصيلي، وهو مهارة أساسية لإتقان أية مهنة.

أَعِد اكْتشاف اصراركَ الطّبيعي

هناك معضلة نواجهها جميعا، لننجز أي شيء جدير بالاهتمام في الحياة، فإن هذا عموما يستغرق منا بعض الوقت، و غالبا عقود. إذ إننا كائنات نجد صعوبة كبيرة في الاستمرار في إدارة مثل هذه الفترات الطويلة، إذ أننا غارقين في تفاصيل الحياة اليومية، حيث تتقلّب عواطفنا عند كل مواجهة. وكذلك لدينا رغبات فوريّة نعمل على تلبيتها. وخلال هذه الفترات الطويلة من الوقت التي نحتاجها لبلوغ الهدف، نتعرض للهجوم من آلاف المُلهيات والاغرَاءات التي تبدو ممتعة أكثر بالنسبة لنا، حيث نفقد البصيرة بأهدافنا فينتهي بنا الأمر متَّبِعِينَ منعطفا آخر. وهذا هو مصدر الكثير من حالات الفشل في حياتنا.

لإجبار نفسك على تجاوز أيّة عقبة أو إغراء، يجب عليك أن تكون مثابرا. وقد امتلكنا جميعا في طفولتنا تلك الصفة، لأننا كنا عازمين. وعليك ببساطة أن تعيد اكتشاف وتطوير هذه السّمة الشخصية. ويجب أن تدرك أولا الدور الذي يلعبه مستوى طاقتك في إتقان عملية التّعلم وإكمال الشيء إلى نهايته، وبالتالي إذا أخذت أهدافا إضافية أو مهام جديدة سيتشتت تركيزك ولن تستطيع الحصول على ما أردته في البداية. وإذا لم تتمكن المَضي في مسارين أو ثلاثة، لذا تجنب هذا الإغراء. ثانيا، حاول تقسيم الأشياء على وحدات أصغر من الوقت. فأنت لديك هدف كبير ولكن هناك خطوات على امتداد الطريق، وخطوات تقع ضمن خطوات أخرى. تلك الخطوات تستغرق أشهرا بدلا من سنوات، ويمنحك بلوغ هذه الأهداف الصغرى إحساسا بالمكافأة والتقدم الملموس.

وسيجعل ما سبق الأمر سهلا عليك لمقاومة أيّة مُلهيات على طول الطريق وسيجعلك تَتقدّم للأمام بجرأة. **تذكر هذا،** أي شيء قد يفسح المجال للمواجهة فهو يُعتبر داعم قوي بالنسّبة لك.

مخالفة المفهوم

نحن عموما نختبر الملل كشيء مؤلم يجب تجنبه بأي ثمن. حيث طورنا منذ الطفولة عادة البحث مباشرة عن نشاط ما لقتل هذا الإحساس، ولكن إذا تكرر هذا النّشاط كثيرا بما فيه الكفاية فإنه يصبح مملا أيضا. وكذلك الأمر بالنسبة لحياتنا، إذ أننا نبحث ونبحث عن مُلهيات جديدة، أصدقاء جدد ، واتجاهات جديدة لاتباعها، أو أشكال جديدة من التسلية، أو أديان أو قضايا جديدة للإيمان بها. وهذا البحث قد يقودنا إلى تغيير وظائفنا فيضعنا على طريق مُتعرّج هنا وهناك في بحثنا عن شيء لإخماد ذلك الشعور. إلا أنه في جميع هذه الحالات، أساس المشكلة ليس الملل ذاته بل علاقتنا به.

جرب رؤية الملل من المنظور المعاكس، كنداء لك لإبطاء نفسك والتوقف عن البحث عن الملهيات اللاّنهائية. قد يعني هذا إجبار ذاتك على قضاء وقت معين بمفردك، متغلبا على ذلك العجز الطفولي عن البقاء ساكنا. عندما تعمل أثناء هذا الملل المفروض ذاتيا عليك، سيميل عقلك للحماس، وستنتابك أفكار جديدة و غير متوقعة لملء هذه المساحة. ولكي تشعر بالإلهام، عليك أن تختبر أولا لحظة من الفراغ. استخدم تلك اللحظات لتقييم اليوم السابق، ومن أجل قياس ما أنت ذاهب إليه. إنه إسعافٌ لمنع الإحساس بالحاجة المستمرة للتسلية من الخارج.

في مستوى أعلى ضمن إعادة التأهيل هذه، ربما تختار كتابا للقضاء على الملل. ولكن بدلا من القراءة كوسيلة سلبية للإلهاء، أدخل ذهنيا مع المؤلف في نقاش أو جدال فعال، جاعلا الكتاب يخرج إلى الحياة في عقلك. كنقطة أبعد من تلك، احترف نشاطا جانبيا ثقافي أو مادّي ممن يتطلب عملية متكررة لإتقانه، حيث ستكتشف أثرا مهما في العنصر المتكرر ذاته. وبهذه الطريقة سيصبح الملل حليفك العظيم، إذ سيساعدك على إبطاء وتيرة الأمور، وستنمي الصبر والانضباط الذاتي. وستتمكن من خلال هذا التّطور من تحمُّل لحظات الفراغ التي لا بد منها في الحياة لتحويلها إلى مَلذّات خاصة بك.

هناك الآن أفراد ممن يفضلون الهلاك بدلا من العمل دون الاستمتاع بعملهم. إنهم انتقائيون ولا يلجؤون للمكافآت الكبيرة إذا لم يكن العمل نفسه هو مكافأة المكافآت. فهم لا يخافون الملل بقدر العمل دون متعة، بل في الواقع يحتاجون للكثير من الملل عندما ينجح عملهم. إلى جميع الأرواح المبدعة: إن الملل هو تعويذة الروح السّيئة التي تسبق الرحلة السعيدة و رياح المرح.

{فريدريك نيتشه}



الفصل التَّاسِع

تَجاوَز حُدُودَك

{الإيمان بالذات}

إن إحساسك بمن تكون يُحدّد سلوكك وتصرّفاتك، وما الذي تحصل عليه من الحياة في نهاية المطاف. إذا كنت ترى بأن المدى الذي يمكنك بلوغه محدود، فإنك غالبا ما تعجز عن مواجهة الكثير من المصاعب، مما يجعلك تُبقي طموحاتك مُنخفضة، لكن ستكسب بهذا قَدْر ضئيل ممّا تتوقعه. فمن خلال معرفة هذه الديناميكية، يجب أن تُدرّب نفسك على عكسِها - أُطلب المزيد، اطمَح لما هو أسْمى، وآمن بأنه مقدّر لك القيام بشيء عظيم. إذ ينبع شعورك بالاستحقاق الذاتي منك وحدك، وليس من أراء الآخرين إطلاقا. فبإيمانك الأسمى بقدراتك، ستتحمل المخاطر التي تزيد من فرص نجاحك، حيث يتبع الناس أولئك الذين يعرفون إلى أين هم ذاهبون. لذلك، اصنع جوا من اليَقين والجُرأة.

طُموح المُحتال

دعني أوضّح لك بأن الحريّة ليست شيئا يمكن اعطاؤه لأي شخص، الحرية شيء يأخذه الناس وهم أحرار، و بالقدر الذي يريدون أن يكونوا عليه.

{جيمس بالدوين}

كان لدى والدة كرتس جاكسون {سابرينا} طموح قوي واحد في حياتها، وهو كسب ما يكفي من المال بأي طريقة لنقلها هي وابنها بعيدا عن منطقة الحيّ. فقد أنجبت {كرتس} وهي في الخامسة عشر، والمَنفذ الوحيد للحصول على مقدار جيد من المال في هذا العمر هو تجارة المخدرات. كانت حياة المُحتالين مليئة بالمخَاطر، وخطيرة على المحتالة الأنثى بشكل خاص، لذلك عملت على بناء حضور مخيف لها لأجل حماية نفسها. فكانت أقوى وأكثر جرأة من المتعاملين الرجال، فجانبها الرفيق الوحيد هو ابنها الذي أرادت له مصيرا مختلفا عن الاحتيال. وبغرض حمايته من الحياة التي تعيشها، أبقته مع والِديها في منطقة جنوب كوينز، وكانت تذهب لرؤيته كلما أمكنَها الأمر، مصطحبة معها الهدايا له من أجل ابقاء عينيها عليه. حيث أنهما سينتقلان قريبا إلى مكان أفضل.

فقُتلت {سابرينا} في عمر الثالثة والعشرين في قضية مخدرات، ومنذ تلك اللّحظة بدا أن مصير {كرتس} في هذا العالم أصبح مسدودا. حيث صار وحيدا دون أبوين أو مرشد حقيقي يمنحه حسًّا بالتوجيه. كذلك بدا أن السيناريو المُتوقّع سيحدث تلقائيا، حيث سينجرف إلى حياة الشوارع، وسيلجأ إلى العنف والجريمة من حين لآخر لإثبات قوته. ثم سيجد طريقه إلى السجن، وسيعود بعد فترات معينة. أي أن حياته ستتقيّد بشكل رئيسي بهذا الحيّ، و قد يعود إلى المخدرات أو الكحول عندما يكبر في العمر، أو سيعود إلى سلسلة من الأعمال الوضيعة في أحسن الأحوال. وتشير كل الاحتمالات بالنسبة للأطفال الناشئين في مثل تلك البيئة دون رعاية أبوية إلى هذا المستقبل المحدود الكئيب.

إلاّ أن شيئا مختلفا جدا أخذ يتشكل في ذهنه. فبِرحيل والدته، بدأ يقضي وقته مُنعزِلا أكثر فأكثر، و ينغمس في خيالاته التي جعلته بعيدا عن منطقة الحيّ. فرأى نفسه رئيسا لشيء ما، وربما في التجارة أو الحرب، فتخيل بالتفصيل الدقيق الأماكن التي سيعيش فيها، والسيارات التي سيقودها، والعالم الخارجي الذي سيستكشفه يوما ما. فكانت حياته الخيالية التي في ذهنه مليئة بالحرية والإمكانيات، ولكنها لم تكن مجرد خيالات بل حقيقة، كان مقدرا لها الحدوث، واستطاع رؤيتها بوضوح. والأهم من ذلك شعوره بأن والدته ترعاه، وقد أصبحت طاقتها وطموحها بداخله الآن.

الغريب أنه سيتبع خطاها بنفس الخطة للاحتيال ثم الخروج من اللعبة. ولكي يتجنب مصيرها، أسس اعتقادا قويا بأنه لا شيء يمكن أن يوقفه، لا طلقة مسدس، ولا مخططات المحتالين الآخرين ولا الشرطة. وهذه الشوارع لن تقيّده.

في مايو من عام 2000م، نجا كرتس {أصبح يُعرف الآن بفيفتي سانت} بطريقة ما من التسع رصاصات التي أطلقها قاتل مأجور على جسده. وقد كان توقيت الاعتداء حسّاسا، و ذلك بعد سنوات من احتيال الشوارع ومن عالم الموسيقى، و كان ألبومه الأول على وشك الصدور. ولكن على إثر تداعيات الحادثة ألغت شركة {كولومبيا للتسجيلات} هذا الألبوم واستبعدته من علامتها الموسيقية، وقد اضطر في البدء من جديد. وفي الشهر التالي و بينما كان مستلقيا على سريره ليسترد عافيته من الجروح، بدأ يعيد بناء ذاته ذهنيا كما فعل بعد مقتل والدته. رأى في ذهنه بتفاصيل حيوية أكثر من أي وقت مضى الطريق الذي يجب أن يسير فيه الآن، إذ سيغزو عالم الراب بحملة الألبوم المُنوّع لم يسبق لأحد رؤية مثله من قبل. وسيأتي ذلك من طاقته العالية وإصراره، بل حتى من الصوت الخشن الذي يصنعه والصورة التي سيبرزها كزعيم عصابة لا يُقهر.

خلال سنة من الحادث، كان في طريقه لتحويل هذا الحلم إلى واقع. حيث غزت أغانيه الأولى الشوارع وكانت مثيرة للأحاسيس. وعلى الرغم من تقدمه في هذا المجال إلا أنه رأى عائقا واحدا كبيرا جدا لا يزال يعترض مساره : القتلة المأجورين يرغبون في إتمام المهمة وقد يظهروا في أية لحظة. لهذا السبب فقد اضطر على الحفاظ على شهرة قليلة والبقاء على ذات المستوى، إلا أن الإحساس بكونه مطارد أصبح أمرا لا يطاق. ولا يريد أن يعيش بهذه الطريقة، فقرّر بأن ما

يحتاجه هو مجموعة من الاتباع الأشداء المتماسكين الذين سيساعدون في حمايته وتجاوز هذا الإحساس بالاستهداف.

لتحقيق هذا، أخبر أحد أصدقائه المقربين بعقد اجتماع في بيت جديه في منطقة جنوب كوينز، الذين قاموا بدعوة أشد معجبيه حماسا في الحيّ، وهم رجال يعرفون كيف يصبحوا مخلصين وجديرين بالثقة والاعتماد عليهم. ويجب أن يحضروا معهم جميعا مسدسات للمساعدة في تأمين الشارع قبل ظهور {فيفتي}.

حينما دخل {فيفتي} غرفة الجلوس في منزل جديه في يوم الاجتماع شعر بالطاقة والبهجة، حيث امتلأ المكان بما يزيد عن عشرين شابا كلهم جاهزون لتلبية ندائه، ثم بدأ يرسم لهم رؤيته الدقيقة للمستقبل : موسيقاه جيدة ولكنها ستصبح أشد قوة، وكان متيقنا أنه سيبرم عقد موسيقِي ضخم خلال سنتين. فمن خلال ذهنه، استطاع منذ تلك اللحظة سماع أغاني ألبومه الأول، متخيلا الغلاف والموضوع بأكمله، إذ سيصبح الأمر قصة حياته. كما أكد لهم أن هذا الألبوم سيحقق نجاحا فلكيًّا، لأنه قد اكتشف طريقة معينة لكيفية صنع وتسويق الأغاني الناجحة. هو ليس بنجم الراب العادي، وقد شرح لهم أنه لم يدخل المجال بهدف الثراء أو الشهرة، ولكن من أجل القوة. وسيستخدم المال المتحصّل من مبيعات الألبوم لتأسيس مشاريعه الخاصة. هذا هو القدر، كل شيء في حياته كان مقدرا له الحدوث كما خطط له، ومن ضمنه محاولة الاغتيال وهذا الاجتماع في هذا المساء.

وسيقوم بإنشاء إمبراطورية أعمال، ليأخذهم جميعا معه. وسيقدم لهم أي شيء يرغبونه طالما أثبتوا بأنهم جديرين بالاعتماد عليهم ليُشاركوه إحساسه بالهدف. بإمكانهم أن يصبحوا مغنيّ راب ضمن علامته الموسيقية التي سيُنشِؤها لينضموا لرحلاته، أو أن يعودوا إلى الجامعة والحصول على مؤهل وسيدفع لهم تكاليف كل ذلك. وفسّر لهم {أنتم مجموعة ذئابي، ولكن لن يحدث شيء من هذا إذا قتل الذئب الرئيسي}. ما طلبه منهم هو مساعدتهم له في توفير الأمن، و ابقائه على اتصال بما يحدث في الشوارع، أو القيام ببعض أعمال الدعاية والتسويق الفردية لألبومه المنوع. وهو بحاجة إلى أتباع، وقد اختارهم.

كلهم تقريبا وافقوا على الاقتراح، وعلى مر السنوات التالية بقي الكثير منهم من أجل الحصول على مراكز مهمة في إمبراطورتيه المتوسعة. وإذا حدث و توقفوا للتفكير في الأمر، سيجدون غرابة تشابه المستقبل الذي جاء مع الصورة التي رسمها قبل سنوات عديدة.

في عام 2007م، وبعد النجاح الهائل الذي حققه في اليومين الأولين، بدأ {فيفتي} يستشعر مشكلة ما في المجال تلوح في الأفق. كان قد رسم صورة معينة أمام العامة : اسطورة فيفتي المرتكزة على قوته وحضوره المهيب وصموده، و هي مصممة في فيديوهاته ومقابلاته وصوره مع تألقه و أوشامه. معظمها حقيقة ولكنها مضخمة من أجل إحداث أثر درامى. وقد جلبت له هذه الصورة الكثير من الاهتمام ولكنها أخذت تنقلب إلى فخ خادع. فلكي يثبت لمعجبيه أنه ما زال فيفتي نفسه، عليه أن يرفع الرهان ويرتكب المزيد والمزيد من السلوكيات العنيفة. لم يكن بوسعه السير في قالب ناعم، ولكن الأمر لم يعد حقيقيا بالنسبة له بعد الآن فهو قد انتقل الى حياة مختلفة، وسيؤدي تشبثه بتلك الصورة السابقة إلى تقييد حريته بشدة. حيث سيبقى عالقا في الماضي وسجينا للصورة التي صنعها. و سيغدو كل هذا مبتذلا، فتخبو شعبيته.

في كل مرحلة من حياته، يجد نفسه يواجه تحديًا من خلال عقبة لا يمكن التغلب عليها – وهو البقاء على قيد الحياة في الشوارع دون وجود أحد الأبوين لإرشاده، الابتعاد عن العنف وقضاء الوقت في السجن، التملص من القتلة و ردهم على أعقابهم، وما إلى ذلك. لو كان في أي لحظة قد شك بنفسه أو تقبل القيود الطبيعية لقدراته، لأصبح ميتا أو ضعيفا بل إن الموت هنا أفضل في اعتقاده. ما أنقذه في كل حالة هو شدة طموحه وثقته بنفسه.

والآن لم يكن الوقت المناسب للاقتناع أو الشك بشأن المستقبل، فقد اضطر إلى تغيير نفسه مجددا، حيث قام بإزالة أوشامه المنقوشة على جسده، و غيّر اسمه مجددا أيضا. كذلك صنع صورة جديدة وأسطورة تلائم تلك الفترة من حياته، وكجزء من أعماله وصانع قرار، أصبح منسحبا تدريجيا عن أنظار العامة، فَارِدا عضلاته خلف الكواليس. هذا ما سيُفاجأ الجمهور ليبقيهم متقدمين بخطوة واحدة عن توقعاتهم، ليزيل أي عائق آخر الذي سيقيد حريته. ويعتبر إعادة تكوين ذاته بهذه الطريقة نقيضا صارخا للقدر الذي بدا أنه ينتظره بعد وفاة والدته.

الأسلوب الجريء

إنَّ رأيك عن ذاتك يصبح انعكاسا لواقعك. إذا كانت لديك شكوك، فعندها لن يثق أو يؤمن أحد بك وسَيسوء كل شيء. فإذا اعتقدت العكس، فهذا العكس هو ما سيحدث. إن الأمر بهذه البساطة.

{فيفتي سانت}

عندما وُلِدْتَ، انْضَممتَ إلى هذا العالم دون هوية أو بدون تكوْين ذاتي، كنت ببساطة رزمة من الدوافع والرغبات الفوضوية. ولكنك تدريجياً اكتسبت شخصية ذات الطموح الكثير أو القليل على مر السنوات. إما أن تكون اجتماعيًّا أو خجولاً، جريء أو متردد – أي مزيج من مجموعة السّمات المختلفة التي تُحدّدك. فتميل إلى قبول هذه الشخصية كشيء واقعي جدا وثابت، إلاّ أن الكثير من هذه الهوية مؤسّس ومصاغ بواسطة قوى خارجية، آراء وأحكام مئات الأشخاص الذين يمرون بطريقك على مدار السنوات.

فتبدأ هذه العملية مع والديك. كطفل، كنت تمنح اهتماما كبيرا لما يَقولاَنِه عنك، فَتُشكل سلوكك لتفوز برضاهم وحبهم. كما تراقب عن كثب لغة جسدهم لترى ما يعجبهم ومالا يعجبهم. إنَّ الكثير من هذا له أثر هائل على نموِّك، فإذا علّقوا على سبيل المثال على خجلك، سيساعد ذلك ببساطة على تقوية أيّة اتجاهات لديك في هذه الناحية، فتصبح فجأة واعيا بارتباكك فيُصبح جزءا بداخلك. أما لو قالوا لك شيئا مختلفا، محاولين تشجيعك على مهاراتك الاجتماعية لجذبك للخارج، قد يكون له أثر مختلف جدا. بمعنى آخر، الخجل هو صفة مرنة تتفاوت وفقا للأوضاع والأشخاص المحيطين بك، ولا يجوز اعتبارها سمة ثابتة للشخصية إطلاقا. وعليه فإن هذه الأحكام المُقدّمة من الوالدين، والأصدقاء، والمدرسين تحمل ثقلا مُفرطًا فتصبح منضوية في طَبعك.

العديد من هذه الانتقادات والآراء ليست موضوعية على الإطلاق. إنّ النّاس يتُوقون إلى رؤية صفات معينة فيك، فيعكسون عليك مخاوفهم وأحلامهم. يريدونك أن تطابق نموذجا تقليديا يألفونه، و أنّه لا أمر محبط ومُخيف أن يعتقد الناس بعدم قدرتهم على اكتشاف حقيقة شخص ما. إنّ

السّلوك الذي يُعتبر مختلفا أو غير طبيعي، و الذي قد ينبعث بصورة جيدة من مكان عميق بداخلك، يتم إحباطه بشدة. كذلك يلعب الحسد دورا في الأمر، إذا كنت جيدا في شيء ما، ربما قد يتم إشْعَارُك بالغرابة وغير مرغوب فيك. حتى مدح الآخرين فيك، غالبا ما يكون مصممًّا لحثّك بقيم معينة يرغبون برؤيتها فيك. كل ما سبق يشكل شخصيتك، ويُقيّد نطاق سلوكك، فيصبح كالقناع الصلب على وجهك.

افهم هذا : أنت في الحقيقة بِحد ذاتك لغز لنفسك. فقد بدأت في الحياة كشخص مُميّز كليّا، أي مزيج من الصفات التي لن تتكرر أبدا في تاريخ الكون. فقد كنت في سنوات المبكرة كتلة من العواطف والرغبات المتضاربة، ثم تمّ وضع شيء غريب فوق هذه الحقيقة. إنّ هويتك هي شيء أكثر فوضوية و مرونة من هذا الطّبع السّطحي، فأنت ممتلئ بالإمكانيات والقدرات الغير مُستغلّة.

كطفل، لم تكن لديك قوة حقيقية لمقاومة هذه العملية، ولكنك الآن كبالغ يمكنك الرفض بسهولة وإعادة اكتشاف شخصيتك المتفردة. يُمكنك التّوقف عن استمداد إحساسك بالهوية وتقدير الذات من الآخرين، ويمكنك التّجربة وتجاوز الحدود التي وضعها الأشخاص لك، لتقوم بتصرف مختلف عما توقعوه. إلا أن الأمر ينطوي على المُخاطرة - فأنت تبدو غير تقليدي وربما غريب قليلا في أعين أولئك الذين يعرفونك، وقد تفشل في هذا العمل فيسخرون منك. وقد يُعدُّ التوافق مع توقعات الناس أكثر أمنا و راحة، حتى وإن كان فعل هذا يجعلك تعيسا ومقيدا. ولكن في الحقيقة، فأنت تكون خائفا من نفسك وما يمكنك أن تكون عليه.

هناك أسلوب آخر للتّعامل مع حياتك بجرأة، حيث ستبدأ بتحرير ذاتك عن أراء الآخرين. وذلك ليس سهلا كما يبدو، فأنت ستكسر عادة طويلة من الرجوع المستمر إلى آراء الناس لتقدير أهميتك. عليك أن تجرب وتشعر بإحساس عدم إشغال ذاتك بما يَعتقدهُ الآخرون أو ما يتوقعوه منك، ولا تتقدم أو تتراجع نتيجة أخذ آرائهم في الاعتبار، أبعد عنك أصواتهم التي تتحوّل غالبا إلى شكوك بداخلك. فبدلا من التّركيز على تلك القيود عندك، فكر في الإمكانيّات التي تتمتع بها من أجل سلوك جديد مختلف. حيث أنه من الممكن تغيير شخصيتك وتشكيلها بقرارك الواعي عند القيام بذلك.

نحن بالكاد نُدرك الدور الذي تلعبه قوة الإرادة في أفعالنا. فعندما ترتفع برأيك عن ذاتك وما أنت قادر عليه، فذلك له أثر قاطع على ما ستفعله، على سبيل المثال، ستشعر بالراحة عند تحمُّل

بعض المخاطر، عالمًا بأنك ستكون قادرا دائما على النهوض على قدميك إذا فشلتَ في أمرٍ ما. كما أن تحمُّل هذا الخطر سيرفع مستويات طاقتك، فإما أن تواجه التحدي أو تنهزم، وستجد مُصَادَرة غير مُستغلة من الإبداع بداخلك. إنّ الناس ينجذبون إلى هؤُلاء الذين يتصرفون بجرأة، وسيكون لاهتمامهم و إيمانهم بك أثر في زيادة ثقتك. إنّ الشعور بقلة التقيّد بالشكوك سيُخفف من كوابح شخصيتك الفردية، مما يجعل كل ما تفعله مؤثرا بشكلٍ أكبر. وأنّ هذا التحرك باتجاه الاحساس بالثقة يتمتع بخاصية إشباع ذاتية يستحيل إنكارها.

إنّ التحرك نحو هذا الاعتقاد الذاتي لا يعني أنك تنأى بنفسك عن الآخرين وعن آرائهم لأفعالك. إذ يجب أن تعتمد مقياسا ثابتا لكيفية رؤية الناس لعملك، لكي تستخدمه لتحقيق أقصى فائدة من آرائهم ومُلاحظاتهم {أنظر الفصل السّابع}. ولكن هذه العمليّة يجب أن تنطلق من موقِع قوة داخلية. فإذا كنت معتمدا على أحكامهم بشأن إحساسك بالتقدير، فستصبح ذاتك ضعيفة و هشة دائما ولن يكون لديك نقطة ارتكاز أو حس بالتوازن، حيث ستذبل على إثر الانتقادات فترتفع عاليا جدا مع أي إطراء. يجب أن يقتصر دور آرائهم على م مساعدتك في صياغة عملك وليس عن صورتك الذاتية. لو ارتكبت خطأً ما، أو إذا حكم عليك العامة بشكل سلبي فلديك نواة داخلية صلبة يمكنها تقبل تلك الأحكام، مع بقاء الثقة بقيمتك الذاتية.

في البيئات الفقيرة مثل العيش في الأحياء، يتعرض شعور الناس بهويتهم وما يستحقونه للاعتداء دائما. فيميل الناس في الخارج إلى الحكم عليهم بسبب المكان الذي جاؤوا منه على أنهم عنيفون، خطرون وغير جديرين بالثقة، كما لو أن المكان الذي صُودف ميلادهم فيه يحدد من هم. وبالتالي يميلون إلى استيعاب تلك الأحكام و ربما يشعرون بعمق بأنهم لا يستحقون الكثير مما يعتبر جيدا في هذا العالم. وأن هؤلاء الذين يعيشون في الأحياء الفقيرة ممن يريدون التغلب على هذا الحكم من العالم الخارجي، عليهم أن يصارعوا بطاقة وشدة مضاعفة. ويجب أن يقتنعوا أولا بأنهم يستحقون أكثر من ذلك بكثير ويمكنهم الارتفاع بقدر ما يريدون بواسطة قوة إرادتهم. حيث ستصبح شدة طموحهم هي العامل الحاسم، و الذي يجب أن يكونَ مُرتفعًا جدا بنشاطٍ كبير. هذا هو سبب ظهور غالبية الشخصيات الطموحة الواثقة في التاريخ من ظروف صعبة ومضنية في معظمها.

أولئك الذين يعيشون خارج هذه البيئة {بيئة الفقر}، يكون {الطموح} بالنسبة لهم كلمة قذرة تقريبا. إذ يتم ربطها بشخصيات تاريخية مثل {ريتشارد الثالث} أو {ريتشارد نيكسون}، حيث تفوح منها {الطموح} رائحة انعدام الأمان والأفعال الشيطانية لبلوغ القمة. ويعتقدون أنّ الأشخاص الذين يرغبون في السلطة بشدة لا بد من أنهم يُعانون من مشكلات نفسية. فينبثق الكثير من هذا التّعقُّل الاجتماعي المُصطنع بشأن فكرة السّطوة والطموح من الشّعورِ اللاّوَاعي بالذّنب والرغبة في إبقاء الناس في الأسفل. فبالنّسبة لهؤلاء الذين يحتلون مراكز ذات امتيازات معينة، يبدو لهم طموح من هم من الطبقة السُّفلى كأنّه شيء مخيف ومهدد لمراكزهم.

إذا كنتَ قادما من رخاء نسبي، فمن الأرجح أنك مشوب ببعض هذه التحيزات ويجب أن تتخلص منها بقدر المستطاع. فإذا كنت تعتقد بأن {الطُّموح} قبيح وبحاجة لكبته أو إخفائه، فسيتعيّن عليك الالتفاف حول الآخرين، مُظهرا إنسانية زائفة لتضطر في التفكير بعقل مزدوج في بعض التحركات اللازمة للسّطوة. أما إذا رأيته كشيء جميل، باعتباره القوة المُحركة خلف جميع إنجازات الإنسان العظيمة، فعندئذ لن تشعر بالذنب في رفع مستوى طموحك بقدر ما تريد، وستُبعِد أولئك الذين يعيقون طريقك.

أحد أعظم الرجال الجسورين في التاريخ والذي يعتبر رائد حركة {إلغاء العبودية} في القرن التاسع عشر هو {فريدريك دوغلاس}. كان قد وُلد ضمن النظام الوحشي المعروف بالرّق، والذي صُمّم بكل تفاصيله لتدمير روح الانسان. ويتم ذلك بواسطة إبعاد الناس عن عائلاتهم بحيث يعجزون عن تنمية أيّة روابط عاطفية حقيقية في حياتهم، باستخدام التهديد الدائم والخوف لكسر أي إحساس بالإرادة الحرة مع التأكد من إبقاء العبيد جهلة وأُمّيينَ. وعليه، فإنهم يؤمنون فقط بأقل الآراء عن أنفسهم. وقد عانى {دوغلاس} بنفسه جميع هذه المصائر في طفولته، ولكنه بطريقة ما كان يعتقد منذ سنواته المبكرة بأنه يستحق أكثر من ذلك بكثير، وأنّ هناك شيء قوي تم سحقه بداخله بل واعتقد أنّه بإمكانه العودة للحياة مجددا. فحينما كان طفلا، رأى نفسه وهو يهرب من براثن العبودية يوما ما، فأخذ يغذي نفسه بهذا الحلم.

ثم في عام 1828م، وفي عمر العاشرة، قام سيدهُ {دوغلاس} بإرساله ليعمل في منزل صهره في {بالتيمور بولاية ماريلاند}. وقد اعتبر {دوغلاس} ذلك نوعا من العناية الإلهية التي عملت لصالحه، يعني هذا أنه سيهرب من العمل الشّاق في المزرعة ليحصل على المزيد من الوقت

للتفكير. كانت سيدة المنزل في {بالتيمور} تقرأ الإنجيل باستمرار، وفي أحد الأيام سألها اذا كانت ستعلمه القراءة، ووَافقت و التزمت بذلك بسعادة وتعلم هو سريعا. إلا أن رب المنزل سمع بالأمر و وبخ زوجته بشدة، فالعبد يجب أن لا يُسمح له أبدا بالقراءة والكتابة. وبالتالي منع زوجته من الاستمرار في تعليمه، مع ذلك تمكّن {دوغلاس} الآن تولي الأمر عن طريق التحايل للحصول على الكتب والقواميس لنفسه. فقام بحفظ الكلمات المشهورة والتي يستطيع مراجعتها في ذهنه في أي وقت من اليوم، و تخيل نفسه وهو يصبح خطيبا عظيما ليناضل ضد شياطين الاستعباد.

مع المعرفة المتزايدة بالعالم الخارجي، ازدادت مرارة {دوغلاس} و استيائه من الحياة التي أُجبر عليها. وقد أثر ذلك على توجهه وقد شعر أسياده بهذا. فتمّ ارسالُه في عمر الخامسة عشر إلى مزرعة يديرها السيد {كوفي}، وكانت مهمته الوحيدة في الحياة هي تحطيم روح العبد المتمرد.

ومع ذلك لم ينجح {كوفي} في مهمته، إذ أنّ {دوغلاس} كان قد أنشأ في عقله هوية خاصة لن تتطابق مع ما أراد {كوفي} أن يفرضه عليه. هذه الصورة لقيمته الذاتية العالية والتي آمن بها بكل طاقته أصبحت حقيقته. كما احتفظ بحريته الداخلية وصحته النفسية، وحول كلّ الضّرب وسوء المعاملة إلى دافع له للهروب إلى الشمال. وقد منحه الأمر أيضا مادة ليشاركها يوما مع العالم حول شياطين العبودية. فقرر {دوغلاس} بعد عدة سنوات الهروب الى الشّمال، وهناك أصبح قائدا لحركة إلغاء العبودية. وفي نهاية المطاف، أسّس صحيفته الخاصة و عمل باستمرار على الدفع ضد الحدود التي يحاول الناس فرضها عليه.

افهم هذا : سيهاجمك الناس باستمرار في الحياة، وأحد أسلحتهم الرئيسية هو زرع الشكوك بداخلك حول نفسك - أهميتك، قدراتك، وامكانياتك. وسيقومون غالبا بتمويه الأمر على أنه رأيهم الموضوعي ولكنه ينطوي دائما على هدف سياسي، إنهم يريدون إبقاءك مُحبطاً. فأنت عرضة باستمرار لتصديق تلك الآراء، خاصة إذا كانت صورتك الذاتية هشة. ولكنك تستطيع في كل لحظة في الحياة تحدي الناس وتجريدهم من هذه القوة، وذلك بواسطة الاحتفاظ بحس الهدف، والمصير الأسمى الذي تُحقّقه. انطلاقا من هذا الوضع، لن تؤذيك اعتداءات الناس بل ستجعلك فقط تشعر بالغضب لتصبح أكثر عزما. فكلما رفعت هذه الصورة الذاتية أكثر، قَلّتْ الأحكام والتلاعبات التي ستتقبلها وتَقلّ كذلك العقبات التي تعترض طريقك. فإذا كان شخص مثل

{دوغلاس} استطاع تكوين هذا الاتجاه وسط أشد الظروف تقييدا، فلا شكّ أنه يمكن لنا إيجاد طريقنا الخاص بنا إلى هذه القوة الداخلية.

مفاتيح الجرأة

المرء يمتلك الحرية، والرغبات الغير المقيدة، ويمتلك نفسه. كل هذا لا يطابق بالضبط أي تصنيف، ويقذف باستمرار جميع الأنظمة والنظريات إلى الجحيم. فمن أين أتى حكماؤنا بفكرة أن الإنسان يجب أن تكون له رغبات شريفة ؟ ما يحتاجه المرء هو فقط التّمني المُستقل بغض النظر عما يُكلّفه هذا الاستقلال وما يؤدي إليه.

{فيودور ديستوفسكي}

في عالم اليوم، تدور فكرتنا عن الحرية إلى حدٍّ كبير حول القدرة على إشباع احتياجات ورغبات معينة. فنشعر بالحرية إذا كنا نستطيع الحصول على نوع الوظيفة التي نُفضّلُها، وشراء الأشياء التي نريدها، و فعل ما يحلو لنا من السلوك على نطاق واسع طالما أنه لا يؤذي الآخرين. ووفقا لهذا المفهوم، {الحرية} هي شيء سلبي في الأساس، فهو يمنحه لنا وتضمنُه لنا حُكومَتنا {غالبا من خلال عدم التدخل في شؤوننا} و المجموعات الاجتماعية المُختلفة.

إلاّ أنه يوجد مفهوم مختلف تماما للحرية، فهي ليست شيئا يمنحنا إيّاه الناس كميزة أو حق، بل حالة ذهنية تستلزم منا العمل لاكتسابها والمحافظة عليها بالكثير من الجهد. هي شيء حيوي وليس سلبي، وتأتي من ممارسة الإرادة الحرة. إنّ الكثير من أفعالنا في شؤوننا اليومية ليست حرة ولا مستقلة، حيث نميل إلى الخضوع لأعراف المجتمع في السلوك والتفكير، أي أنّنا نتصرف انطلاقا من العادة دون كثرة التفكير حول لماذا نفعل الأشياء. فحينما نتصرف بحرية فإننا نتجاهل أيّ ضغوط للامتثال، إذ نتجاوز سلوكياتنا المعتادة. تأكيدا على إرادتنا وفرديتنا، لنتحرك بأنفسنا.

لِنَقُل أنّ لَدينَا وظيفة توفر لنا مالا كافيا للعيش براحة لتمنحنا مستقبلا معقولا، ولكن هذا العمل لا يُشبعنا بعمق لأنه لا يقودنا إلى أي مكان نريد الذهاب إليه . بالإضافة إلى أنه ربما علينا التعامل مع رب عمل صعب المِراس ومتغطرس. كما سترغمنا مخاوفنا من المستقبل، عاداتنا المريحة، و حس الانضباط لدينا على البقاء. فكل هذه العوامل تضع الحدود و تقيدنا. إلا أنه يمكننا في أي لحظة التحرر من الخوف وترك العمل، دون أن نتيقن إلى أين نحن ذاهبين ولكن واثقين بأننا سنفعل الأفضل. إنّنا في هذه اللحظة نمارس الإرادة الحرة التي تنبثق من رغبتنا وحاجتنا العميقة. عندما نغادر يجب أن ترتفع عقولنا الى مستوى التحدي. و للاستمرار في هذا الطريق علينا أن نقوم بالمزيد من الأفعال المستقلة، حيث لا يمكننا الاعتماد على عادات أو أصدقاء لنرى أنفسنا من خلالهم، وأنّ الفعل الحر يتمتع بقوة دفع خاصة به.

سيُجادل الكثيرونَ في أن فكرة هذه الحرية النَّشطة هي وهم في الأساس، فيقولون نحن نِتاج بيئتنا. وعليه، إذا أصبح الناس ناجحين، فذلك يعود إلى استفادتهم من عدد من الظروف الاجتماعية الملائمة – أي أنهم كانوا في المكان المُناسب وفي الوقت المُناسب، أو حصلوا على التعليم والتوجيه المُناسبين. ولاشك أن إرادتهم لعبت دورا ولكنه دور بسيط، وعليه ينصرف الجدال إلى أنه لو كانت الظروف مختلفة فلن تحصل هذه الشخصيات على النجاح الذي لديها الآن، بغض النظر عن مدى قوة إرادتها.

قد يتم توجيه جميع أنواع الاحصائيات والدراسات لدعم هذا الخلاف، إلا أنّ هذا المفهوم في النهاية مجرد نتاج لعصرنا ويستند إلى الحرية السلبية. فهو يُركز على الظّروف والبيئة، كما لو أنّ التصرفات الحرة الاستثنائية لـ{فريدريك دوغلاس} يُمكن تفسيرها أيضا من خلال أسباب جسدية أو الحظ الذي حظي به في تعلّم القراءة. إنّ الخلاصة من هذه الفلسفة هو إنكار الحرية الأساسية التي نتمتع بها كلنا لاتخاذ قرارات مستقلة عن أي قوى خارجية، لتقليص الشخصية الفردية، فهي تعني أننا مجرد منتجات تطور اجتماعي معين.

افهم هذا : يمكنك في أيّة لحظة اعتراض هذه الفلسفة وأفكارها ورميها في سلة النفايات عن طريق فعل شيء غير منطقي و غير متوقع ومخالف لما فعلته في الماضي، كتصرف لا يفسر ببساطة بسبب تربيتك أو جهازك العصبي. وما يمنعك من اتخاذ هذا الفعل ليس والدتك أو والدك

أو المجتمع، وإنما مخاوفك. أنت حر في الأساس لتتحرك خلف أيّة قيود وضعها لك الآخرين، لِتعيد صياغة ذاتك بعناية كما تتمنى.

إذا كنت قد مررت بتجربة مؤلمة بشكل رهيب في الماضي، فَلَك أن تختار إبقاء الألم هناك والتمرغ فيه. أما في الناحية الأخرى، يمكنك تحويله إلى غضب، أو قضية لإظهارها أو شكل من أشكال العمل، أو تستطيع ببساطة التخلص منه والمضي إلى الأمام، مُطلِقا الحرية والقوة التي جلبها لك. ولا أحد يمكنه استبعاد هذه الخيارات أو اجبارك على استجابة، فالأمر برمته يعود لك.

إلا أنّ الانتقال إلى هذه الصورة الأكثر حيوية من الحرية لا يعني أن تتيح لنفسك التجاوز للقيام بأفعال تُعدّ غريبة أو فاسدة، فعلى سبيل المثال يجب أن يرتكز قرارك بتغيير المسار الوظيفي، على دراسة متأنّية لمدى قوتك ورغباتك العميقة والمستقبل الذي تريده. وهذا ينبع من التفكير في نفسك وعدم قبول ما يعتقده الآخرون عنك. كما أن المخاطر التي تتحملها ليست عاطفية أو من أجل البحث عن الإثارة، بل محسوبة. وستلعب الحاجة إلى التوافق واسترضاء الآخرين دورا في أفعالنا بشكل واع أو لا واعٍ، وأنّ التحرر منها كليا هو أمر مستحيل و غير مرغوب. أنت فقط تكتشف نطاقا أكثر حرية من الحركة في حياتك والقوة التي يمكن أن تجلبها لك.

ما يمنعنا من التحرك في هذا الاتجاه هو الضغوط التي نشعر بها عند الامتثال - أي أنماط تفكيرنا الجامدة المعتادة، وشكوكنا الذاتية ومخاوفنا. وفيما يلي خمس استراتيجيات لمساعدتك على تجاوز هذه الحدود.

تحدّى جميع التّصنيفات

كفتاة صغيرة نشأت في {كنساس} في أواخر القرن العشرين، شعرت {إيمليا أيرهارت} بالغربة عن المكان. كانت تحب أن تفعل الأشياء بطريقتها الخاصة - كَلَعب الألعاب الخشنة مع الأولاد، أو قَضاء ساعات بمفردها في قراءة الكتب، أو الاختفاء في رحلات طويلة. كانت تميل إلى السلوك الذي يعتبره الآخرون غريبا وغير تقليدي. وفي المدرسة الداخلية تم طردها بسبب قيامها بالمشي على السطح بملابس النوم. ومع تقدمها في العمر، شعرت بضغط شديد لتستقر وتكون كبقية الفتيات، ولكنها كانت تشمئز من الزواج ومن الضغوط الواقعة على النساء. لذا فقد بحثت

عن وظيفة وجربت العمل بيديها في كافة أنواع الأعمال، بل وعشِقت المغامرة والتحديات وكانت الأعمال المتوفرة حينئذ وضيعة لتسبب فراغ الذهن.

وفي أحد الأيام في عام 1920م، ذهبت في رحلة قصيرة بالطائرة و فجأة شعرت أنها وجدت نداءها. فأخذت دروسا وأصبحت قائدة طائرة، وأحست أنها وجدت في الهواء الحرية التي كانت تبحث عنها دائما. كانت قيادة الطائرة تحديا مستمرا - جسديا وذهنيا. حيث استطاعت التعبير عن الجانب الجريء من شخصيتها وعشقها للمغامرة، بالإضافة الى اهتمامها بآليات الطيران.

لم تؤخذ قيادة المرأة للطائرة في ذلك الوقت على محمل الجد، كان الرجال هم من سَجّلوا الأرقام القياسية وشقوا مسارات جديدة. ولمكافحة هذا الأمر، كان على {أيرهارت} أن تدفع القيود إلى أبعد ما يمكن عبر القيام برحلات بطولية ستضع خطوطا رئيسية لتضيف شيئا جديدا للمهنة. وفي عام 1932م، أصبحت أول قائدة طائرة تطير بطائرة منفردة عبر المحيط الأطلسي، والتي تحولت إلى أشد رحلاتها ارهاقا و تحديا للموت. وفكرت في عام 1935م بعبور خليج المكسيك، و كان قد أخبرها أحد أشهر الطيارين الذكور في ذلك الوقت بأن الأمر خطير جدا ولا يستحق المجازفة. ولكن نتيجة لشعورها بوجود تحد في هذا، قررت محاولة الطيران على أية حال واجرائها بسهولة نسبية، وأظهرت للأخرين كيف يتم عمل ذلك.

لو أنها استسلمت في أية لحظة من حياتها للضغط لتكون مثل الآخرين، لَفقدت السّحر الذي يبدو الآن أنه يتبعها كلما مضت في اتجاهها الخاص. فقررت أن تستمر في أن تكون نفسها، بغضّ النظر عن النتائج. وكانت ترتدي بطريقتها الغير تقليدية وتتحدث عن رأيها في الأمور السياسية، حتى وإنْ كان ذلك يعتبر غير لائق. وعندما طلب الصحفي والاعلامي الشهير {جورج بوتنام} يدها للزواج، قبلت {أيرهارت} بشرط أن يوقع عقدا يضمن بموجبه احترام رغباتها لأقصى قدر من الحرية في العلاقة.

إنّ الأشخاص الذين قابلوها كانوا يُعلّقون دائما بأنها لم تكن حقا ذكورية أو أنثوية أو حتى مزدوجة الجنس، بل تمثل نفسها كليا كمزيج نادر من الصفات. إنه ذلك الجزء منها الذي سحر الناس وأبقاها تحت الأضواء. وفي عام 1937م، قامت بأخطر رحلة طيران في عملها، إذ ستدور حول العالم من خلال خط الاستواء وتتضمن الرحلة استراحة في جزيرة صغيرة في

المحيط الهادي . إلا أنها اختفت في مكان ما قرب الجزيرة ولم يعثر عليها أبدا، و كل هذا أضاف فقط إلى اسطورة {أيرهارت} كمجازفة ماهرة فعلت كل شيء بأسلوبها الخاص.

افهم هذا : في اليوم الذي وُلدت فيه، صرت متورطا في معضلة مستمرة حتى يومنا هذا، وهي التي تحدد نجاحك أو فشلك في الحياة. أنت كفرد، لديك أفكار ومهارات تجعلك مميزا، إلا أنّ الناس يحاولون دائما اخضاعك إلى تصنيفات ضيقة لتجعلك أكثر قابلية للتوقع وأسهل للتحكم. يريدون رؤيتك كخجول أو مُنفتح، حساس أو قاسي. فإذا استسلمت لهذا الضغط، قد تحصل على بعض القبول الاجتماعي ولكنك ستخسر الأجزاء الغير التقليدية من شخصيتك والتي هي مصدر تميزك وقوتك. ويجب أن تقاوم هذه العملية بأي ثمن، و أن تنظر إلى أحكام الآخرين الضيقة والمُنظّمة كشكل من أشكال السّجن. مهمتك هي أن تحتفظ بـِ أو تعيد اكتشاف تلك الجوانب من شخصيتك التي تتحدى التصنيف. فمِن خلال بقائِك متفرّدا، ستصنع شيئا مميزا، لتثير نوعا من الاحترام الذي لن تحصل عليه أبدا من خلال الامتثال الفاتر.

أعد اكتشاف نفسك باستمرار

في طفولته، كان الرئيس المستقبلي {جون كينيدي} ضعيفا جدا وكثير المرض، حيث قضى الكثير من الوقت في مستشفيات متعددة ونشأ على نحوٍ ضعيف وواهن المنظر. تنامى لديه بسبب هذه التجارب رعب من أي شيء يجعله يشعر بفقدان السيطرة على حياته. وإحدى صور الضعف التي ضايقته بشكل خاص هي أحكام الناس المستندة إلى مظهره. كانوا يرونه ضعيفا وهشا، مُستخفّين بالقوة المتوارية لشخصيته، لذلك فقد بدأ بعملية طويلة الأمد لانتزاع هذه السيطرة من الأخرين وإعادة تأسيس ذاته باستمرار وصياغة الصورة التي يريد من الناس أن يرونها به.

في شبابه، كان يُنظَرُ إليه على أنه الابن المحب للمتعة لوالد قوي، لذلك عند اندلاع الحرب العالمية الثانية ذهب للتجنيد في البحرية على الرغم من قيوده الجسدية، عازما على إظهار الجانب الآخر من شخصيته للآخرين. ومن ثم لكونه أصبح ملازما على متن طوربيد في المحيط الهادي، تعرض قاربه للاصطدام بواسطة مدمرة يابانية وانشق إلى نصفين، إلا أنه استمر في قيادة رجاله إلى بر الأمان ونال العديد من الميداليات لشجاعته. أثناء هذه الحادثة، أبدى تجاهلا شديدا لحياته الخاصة، ربما في محاولة منه وإلى لإثبات رجولته. فقرر في عام 1946م، أن يترشح

للكونجرس، واستخدم سجله الحربي لصناعة صورته كرجل شاب سيكون أيضا مقاتلا جسورا بنفس القدر لدائرته الانتخابية.

عندما أصبح {سيناتورا} بعد بضع سنوات، أدرك أن الكثيرين من العامة يرونه غير ذي ثقل - شاب ولم يثبت ذاته. قرر ثانية أن يعيد اكتشاف نفسه، هذه المرة عن طريق تأليف كتاب { تمت كتابته بواسطة كاتب خطاباته - ثيودور سورينسون -} و كان عنوانه {ملامح في الشجاعة}، وثّق فيه قصصا لسيناتورات مشهورين تحدوا الأعراف وحققوا أشياء عظيمة. و فاز الكتاب بجائزة {بوليتزر}، والأهم أنه غيّر كليا الصّورة العامة عن {كينيدي} ، إذ يرونه الآن وقورا ومستقلا ويتبع بطريقة ما دَرْب السيناتورات الذي كتب عنهم - و من الواضح أنّ هذا التأثير كان مقصودا.

حينما ترشح للانتخابات الرئاسية في عام 1960م، قلّل الناس من شأنه مرة أخرى، حيث رأوه ذلك السيناتور الكاثوليكي المتحرر الشاب الذي لا يروق ببساطة لغالبية الأمريكيين. قرر هذه المرة أن يعيد صياغة ذاته ليكون كقائد ملهم، وسيقود البلاد خارج ركود عصر {ايزنهاور}، معيدا أمريكا إلى جذورها الأصلية لِيصنع حسّا بالهدف الموحّد. كان مثالا للشباب والقوة {خلافا لضعفه الجسدي المستمر}، وأصبح جذابا بما فيه الكفاية للاستحواذ على اهتمام الجمهور ومن ثم الفوز بالانتخابات.

افهم هذا : يُقيّمك الناس على أساس المظاهر، و الصّورة التي تعكسها من خلال تصرفاتك، كلماتك، وشكلك. إذا لم تتحكّم بهذه العملية، سيراك النّاس ويعرفونك بالطريقة التي يريدونها والتي تكون غالبا في غير صالحك. ربما تظنّ أنّ التّمسك بتلك الصورة سيجعل الآخرين يحترمونك ويثقون بك، إلا أن الحقيقة هي العكس، ذلك أنه بمرور الوقت ستبدو تقليديا وضعيفا. إنّ الثبات عبارة عن وهم على أي حال، فكل يوم يَمُر يؤدي إلى تغيرات بداخلك، وعليك أن لا تكون خائفا من التعبير عن هذه التطورات. حيثُ يتعلم الأقوياء مبكرا في الحياة أنهم يتمتعون بحرية تشكيل شخصياتهم وملاءَمة احتياجاتهم وأمزجتهم وفقا لما يتطلبه الوقت، وبهذه الطريقة يفقدون الآخرين توازنهم ويحتفظون هم بجو من الغموض. يجب أن تتبع هذا المسار لتجد متعة عظيمة في إعادة اكتشاف ذاتك، كما لو أنك مؤلف تكتب الدراما الخاصة بك.

دمّر أنماطَك

تعتمد الحيوانات على الغرائز والعادات للبقاء على قيد الحياة. أما نحن كبشر نعتمد على تفكيرنا المنطقي الواعي الذي يمنحنا حرية أعظم للتصرف، والقدرة على تغيير سلوكنا وفقا للظروف. ومع ذلك هناك جزء حيواني من طبيعتنا، الذي يدفعنا لتكرار ذات الأشياء ويسيطر على أُسلوبنا في التفكير. كما نخضع أيضا لأنماط ذهنية تجعل أفعالنا متكررة. هذه هي المشكلة التي سببت هاجسا كبيرا للمهندس العظيم {فرانك لويد رايت}، وقد توصّل بعد ذلك بحل عظيم.

كمهندس شاب في تسعينيات القرن الثامن عشر، لم يدرك {رايت} لماذا يختار معظم الأشخاص في مهنته تصميم البناء وفقا لمخططات. حيث يجب أن يتبع بناء المنزل قالبا معينا يتم تحديده وفقا للمواد والسعر، و هناك أسلوب واحد صار شائعا واستنسخه الناس إلى مالا نهاية. إنّ العيش في مثل هذه المنازل أو العمل في مثل هذه المكاتب يجعل الناس يشعرون بعدم الإنسانية، كالتروس في آلة. لا توجد في الطبيعة شجرتان متشابهتان إطلاقا، حيث تتشكل الغابة في نوع من التصميم العشوائي وهذا هو سر جمالها. وعلى ذلك، قرر {رايت} أن يتبع هذا التصميم الأصلي بدلا من نموذج الإنتاج الضخم لعصر التكنولوجيا. قرر أنه لن يكون هناك بناءان من تصميمه متشابهان أبدا بأية طريقة، بغض النظر عن التكلفة والجهد. كذلك سيطبق هذا الأمر على سلوكه و ردود أفعاله مع الآخرين، إذ سيستمتع بكونه متقلب الأطوار من خلال قيامه بعكس ما يتوقعه زملائه و زبائنه منه. هذا الأسلوب الغريب في العمل قاد إلى صنع التصميمات الثورية التي جعلته أشهر مهندس في عصره.

تم تكليفه في عام 1934م من {ايدجار كوفمان} قطب القطاع التجاري في {بيتسبرغ} لتصميم منزل للإجازات مواجها لشلال في {بير كريك} في {بنسلفانيا} الريفية . احتاج {رايت} إلى رؤية المخطط في ذهنه قبل أن يستطيع افراغه على الورق، ولكن بالنسبة لهذا المشروع لم يتبادر إليه شيء، لذا قرر أن يمارس لعبة على نفسه. ببساطة، تجاهل العمل ومضت عدة أشهر. وفي الأخير، ضاق {كوفمان} ذرعا واتصل {برايت} هاتفيا طالبا منه رؤية المخطط، و هتف {رايت} بفرحة أنه أنهى العمل. على إثر هذا أخبره {كوفمان} بأنه سيأتي إليه بعد ساعتين للاطلاع عليه.

كان مساعدي {رايت} فزعين، فهو لم يرسم حتى خطا واحدا حتى الآن. وفي خضم ارتباكه شعر بدفقة ضخمة من الطاقة الإبداعية، و بدأ برسم البيت. فقرر أن المنزللن يواجه الشلال، بل سيكون معلقا ومندمجا به. فابتهج {كوفمان} عندما رأى التصميم وأصبح ذلك المنزل يعرف بـ {الشلال}، ويعتبر أجمل إبداع لـ{رايت} . لقد أجبر {رايت} في الحقيقة عقله على مواجهة المشكلة دون أبحاث أو مفاهيم مسبقة، في ذات اللحظة كليا. بل كان الأمر بالنسبة له أيضا تدريبا لتحرير ذاته من العادات السابقة وصنع شيء مختلف بالكامل.

ما يمنعنا من استخدام المرونة الذهنية والحرية التي نتمتع بها فطريا هو الروتين في حياتنا. فنحن نرى نفس الأشخاص ونفعل نفس الأشياء، فتسير عقولنا على هذه الأنماط. الحل هو كسر تلك العملية، على سبيل المثال يمكننا الانغماس عن عمد في القيام ببعض الأعمال العشوائية أو حتى غير منطقية، أو ربما فِعل عكس ما نقوم به بصورة طبيعية في حياتنا اليومية، من خلال القيام بتصرف لم يسبق لنا فعله إطلاقا فإننا نضع أنفسنا في منطقة غير مألوفة، فتصحو عقولنا بشكل طبيعي بسبب الوضع المستحدث. لنستطيع في نفس السّياق إرغام أنفسنا على اتخاذ مسارات مختلفة - كزيارة أماكن غريبة، مقابلة أشخاص مختلفين، الاستيقاظ في ساعات غريبة، أو قراءة الكتب التي تتحدى عقولنا بدلا من إخمادها. يجب أن نطبق هذا حينما نشعر بشكل خاص بأننا عاجزين وغير مبدعين، إذ أنه من الأفضل لنا في هذه اللحظات أن نكون صارمين مع أنفسنا و مع أساليبنا وأنماطِنا.

اخْلق إحسَاسًا قَدَرِيا

في عام 1428م، بدأ الجنود المتمركزين في {الحامية} في بلدة {فوكلور} الفرنسية يتلقون زيارات من فتاة في السادسة عشر تدعى {جين دارك}. كانت ابنة فلاحين متواضعين من قرية فقيرة مجاورة، وقد كررت على أولئك الجنود الرسالة ذاتها - أنه تم اختيارها من الله لإنقاذ فرنسا من الحالة اليائسة التي وقعت فيها. في السنوات القليلة الماضية، سيطر الغزاة الإنجليز على البلاد، الذين أخذوا الملك الفرنسي كرهينة في إنجلترا، كان الإنجليز على وشك غزو مدينة {أورليان} الفرنسية الرئيسية، أما {دوفين} الابن البكر للملك، وهو وريث العرش، بقي قابعا بعيدا في القصر داخل البلاد مقررا عدم القيام بأي شيء. كانت لدى {جين} رؤى، وشرح لها عدد من

القديسين ما تفعله بالضبط - أن تقنع ابن الملك بمنحها قوات لقيادة {أورليان} لهزيمة الإنجليز هناك، ومن ثم قيادة الابن إلى {ريمس} حيث سيتوج كملك جديد لفرنسا والذي سيعرف بـ{تشارلز السابع}.

كان لدى الكثير من الناس في فرنسا في ذلك الوقت مثل هذه الرؤى، و الجنود الذين استمعوا لـ{جين} لم يكن بوسعهم فعل شيء ولكنهم شعروا بالريبة. إلا أن {جين} كانت مختلفة عن الآخرين. وعلى الرغم من قلة اهتمام الجنود بالأمر، فقد استمرت في العودة إليهم برسالتها المعتادة ولم يستطع ثنيها شيء. كانت جريئة، تمشي دون حماية وسط جنود مضطربين، وتتكلم بوضوح كأي فتاة ريفية ولكن دون أن تكون هناك ذرة شك في صوتها وعينيها اللتان تُشعّان بالرضا. وكانت متيقنة من هذه الرؤى ولن ترتاح حتى تنفذ ما قدر لها، كما أن تفسيراتها لما ستفعله كانت تفصيلية جدا بحيث تبدو حاملة لثقل حقيقي.

وعلى ذلك، صدق قلة من الجنود بأن ما تقوله حقيقي وقاموا بتحريك سلسلة من الأحداث، حيث اقنعوا الحاكم المحلي بأن يسمح لهم بمرافقتها إلى ابن الملك، وقد صدّق الأخير في نهاية المطاف قصتها ومنحها القوات التي طلبتها. كما اقتنع مواطنوا {أورليان} بأنه قد قُدّر لها أن تكون منقذتهم، إذْ احتشدوا إلى جانبها وساعدوها على هزيمة الإنجليز. وقد استمرت قوة الدفع التي جلبتها لفرنسا لما يتجاوز السنة، إلى أن تم القبض عليها وبيعها للإنجليز. وبعد محاكمة طويلة أحرقت في حوض باعتبارها ساحرة.

تكشف قصة {جين دارك} عن مبدأ بسيط : كلما ارتفع إيمانك بنفسك، ارتفعت معها قدرتك على تغيير الواقع. إن تمتعك بثقة عالية يجعلك جسورا ومثابرا، فيتيح لك تخطي العقبات التي تعيق معظم الناس في مساراتهم، ويجعل الآخرين يؤمنون بك كذلك. إنّ الصيغة الأشد قوة من الثقة بالنفس هي الشعور بحس قدري يجذبك للأمام، وهذا {القدر} قد يأتي من مصدر خارجي أو من نفسك. فكر في الأمر بهذه الطريقة : أنت تتمتع بمجموعة من المهارات والتجارب التي تجعلك متفردا والتي تشير إلى بعض المهام الحياتيّة قد قُدّر لك إنجازها، كما أنك ترى علامات لهذا في ميولك وقت شبابك في أمور محددة تنجذب لها بشكل طبيعي. فعندما تُشارك في هذه المهمة فإن كل شيء يبدو متدفقا بصورة أكثر تلقائية، مما يجعلك مؤمنا بأنك مختار لإنجاز شيء لا يجعلك سلبيا أو مقيدا بل عكس ذلك. حيث تتحرّر من الشكوك والمخاوف الطبيعية التي تشوبنا جميعا،

فتتمتع بحس الهدف الذي يرشدك ولكن لا يربطك بطريق واحد لعمل الأشياء، بل حينما تنخرط إرادتك بعمق في المهمة، فإنها ستدفعك خلف أية قيود أو مخاطر.

راهن على نفسك

من السهل دائما تبرير شكوكك وتحفظك الغريزي، خصوصا في الأوقات الصعبة. حيث ستقنع نفسك بأنه من الحماقة القيام بأية مجازفات، وأنّه من الأفضل الانتظار حتى تصبح الظروف ملائمة أكثر. إلا أن هذه العقلية خطرة، وتدل على انخفاض شديد في الثقة بذاتك والتي ستشمل أيضا الأوقات الجيدة، إذ ستجد أنه من الصعب إخراج نفسك من وضعيتك الدفاعية. والحقيقة هي أن أعظم الاختراعات والتطورات في التكنولوجيا أو الأعمال تحدث عموما في الفترات الصعبة، فبسبب الحاجة الشديدة للتفكير الإبداعي والحلول الجذرية المنفصلة عن الماضي. هذه هي اللحظات التي تنضج فيها الفرص. وبينما يتراجع الآخرون أو يقتصدون في النفقات، عليك أن تفكر في تحمُّل المخاطر، أي تجربة الأشياء الجديدة، والتّطلع إلى المستقبل الذي سينبثق من الأزمات الحالية.

يجب أن تكون مستعدا على الدوام للمراهنة على نفسك ومستقبلك، عن طريق الذهاب في الاتجاه الذي يبدو للآخرين خائفين منه. هذا يعني بأنك تؤمن أنه في حالة فشلك، ستتوفر لديك موارد داخلية للشّفاء. وأنّ هذا المعتقد يُعتبر نوعا من شبكة الحماية الذهنية، فعندما تبدأ بمشروع أو اتجاه جديد، سينتقل عقلك إلى حالة التركيز، حيث ستصبح طاقتك مركزة وشديدة. ومن خلال إحساسك بالحاجة لتكون مبدعا، سيرتفع عقلك إلى مستوى الحدث.

مخالفة المفهوم

بالنسبة لمعظمنا، تُفسّر كلمة {الأنا} و {الأنانية} بشيء سلبي غالبا. إذ يمتلك الأشخاص المغرورين رأيا مبالغًا فيه حول أنفسهم، وبدلا من الأخذ في الاعتبار ما يهم المجتمع أو الجماعة أو الأسرة، فإنهم يفكرون أولا وغالبا بأنفسهم ويتصرفون بناءً على ذلك. وتنبعُ رؤيتُهم المحدودة في ضوء احتياجاتهم ورغباتهم. ولكن هناك طريقة أخرى للنظر إلى الأمر – كلنا نمتلك ذاتا مغرورة أو إحساس بمن نكون، وهذه الذات أو العلاقة الذاتية أما أن تكون قوية أو ضعيفة.

لا يتمتع الأشخاص ذوي الذوات الضعيفة بالشعور بالأمان بشأن أهميتهم أو امكانياتهم. حيث يُوَلّون اهتماما أكبر لآراء الآخرين، و ربما يعتبرون أي شيء كاعتداء شخصي أو إهانة، كما يحتاجون اهتماما دائما وتقييما من الآخرين. ومن أجل تعويض أو إخفاء هذه الهشاشة، فإنهم يضعون واجهة من الغرور والعدوانية. وهذه الأنواع المحتاجة ، الاتكالية، والمهووسة من الذوات هي التي نجدها مزعجة ومثيرة للاشمئزاز.

أما الأنا القوية فمختلفة تماما. إنّ الأشخاص المتمتعين بإحساس ثابت بقيمتهم الذاتية ويشعرون بالثقة بشأن أنفسهم، لديهم استعداد لرؤية العالم بموضوعية أكبر. ويمكنهم أن يكونوا مراعين لغيرهم وجديرين بالثقة بسبب قدرتهم على الخروج من ذواتهم. كما يضع أصحاب الذوات القوية حدودا، فإحساسهم بالفخر لا يسمح لهم بتقبل التّلاعب أو السلوك الجارح. نحن عموما نحب التواجد حول مثل هذه الشخصيات، حيث أن ثقتهم وقوتهم مُعدية. ويجب أن يكون امتلاك مثل هذه الذات القوية غاية لنا جميعا.

إنّ الكثير من الأشخاص المتمتعين بمستويات مرتفعة من القوة، كالمشاهير على سبيل المثال، يجب عليهم وفقا لثقافتنا أن يظهروا تواضعا وحياءً زائفا، كما لو أنهم وصلوا إلى أبعد ما وصلوا إليه عن طريق الصدفة وليس بالغرور أو الطموح. فهم يريدون التّصرف كما لو أنهم لا يختلفون عن أي أحد آخر، ويكادون يشعرون بالحرج من قوتهم ونجاحهم. كل هذه هي من علامات الأنا الضعيفة. وأنت كصاحب {أنا} من نوع قوي، عليك أن تهتف فرحا بفرديتك وتشعر بالفخر الكبير لإنجازاتك. إذا لم يستطع الأخرون تقبل ذلك أو اعتبروك مغرورا، فتلك مشكلتهم هم وليس أنت.

نحن أحرار عندما تنطلق تصرفاتنا من شخصيتنا بأكملها، وعندما يتم التعبير عنها، وعندما يظهر هذا التشابه الغير قابل للتفسير معها والذي نجده أحيانا بين الفنان وعمله.

{هنري برجسون}



الفصل العاشر

وَاجِه فَنَاءَكَ

{السُّمُوْ}

عند مُواجهة فَنَائِنا يُمكننا القيام بأحد الأمرين. نَستَطِيع تجنب التّفكير فيه بأي ثمن، والتّشبَّث بالوهم بأنّ لدينا الوقت الكامل في هذه الحياة، أو يُمكننا مواجهة هذا الواقع كما هو، وقُبوله، بل واحتضانُه، وتحويل وعينا عن {المَوْت} إلى شيء إيجابي وفَعّال. فعند تَبَنِّي هذه الفلسفة الجَريئَة، نكتسب حسًّا بالتناسب، فنصبح قادرين على فصل ما هو تافه عما هو مهم حقا. إنّ معرفة أيامِنا ستكون معدودات، فإنّه سيُصبح لدينا شعوراً بالإلحاح وشعورا بالالتزام نحو مهمة ما. وسيصبح باستطاعتنا تقدير الحياة بشكل أفضل لعدم ثباتها. فإذا تمكّنا من التَّغلب على الخوف من الموت، فلن يتبقّى هناك شيء للخوف منه.

المُحتال المُتحَوّل

لقد وصلت إلى مرحلة لم أكن أخشى فيها الموت. هذه الروح في الحقيقة جعلتني رجلا حرا في الواقع، بينما في الظاهر بقيت شخصا مسجونا كعبد.

{فريدريك دوغلاس}

بحلول منتصف التسعينات شعر {كورتيس جاكسون} بعدم الرضا التام عن حياته كمحتال الشوارع. والطريقة الوحيدة التي تمكن فيها من رؤية مصيره كانت تتمثل في الموسيقى. حيث كانت لديه بعض الموهبة كمغني راب، لكن ذلك لن يجعله شخصا مختلفا جدا عن هذا العالم. وقد شعر بالارتباك إلى حد ما حول كيفية اقتحام عالم الراب، وقد كان قليل الصبر لبدء هذه العملية. ثم تغير كل شيء في ليلة واحدة في عام 1996م. في ملهى {مانهاتن} الليلي حيث التقى {كورتيس - الذي يعرف الآن باسم فيفتي سانت} بمغني الراب الشهير والمنتج {جاي ماستر جاي}. كان يشعر في نفسه أن هذه قد تكون فرصته الوحيدة، وعليه أن يستفيد منها على أفضل وجه. فتحدث مع {جاي} ليسمح له بزيارة الاستوديو الخاص به في اليوم التالي ليقدم له ويسمعه موسيقى الراب. بالفعل نجح في إثارة إعجابه بما يكفي وقد وافق عليه {جاي} أن يساعده كمرشد لفيفتي. يبدو أن كل شيء الآن سوف يوضع في مكانه.

كان فيفتي قد احتفظ ببعض المال أثناء مدة انتقاله إلى هذه المهنة الجديدة، لكن لم يدُم هذا الأمر إلى الأبد. حيث قد حصل له {جاي} على بعض الحفلات الموسيقية، ولم يتم دفع ثمنها بعد. وفي الشوارع القريبة من منزله، كان يرى أصدقاءه المحتالين في حالة جيدة، بينما كانت أمواله كانت تتضاءل إلى لا شيء. فما الذي سيفعله عندما ينفد منه المال؟ وقد باع سيارته ومجوهراته بالفعل. وقد وضعت حبيبته مولودا له وكان بحاجة إلى المال لإعالة طفله الحديث الولادة. فبدأ يشعر بنفاذ الصبر أكثر من أي وقت مضى.

بعد الكثير من المثابرة والإصرار، قد حصل على شخص في شركة {تسجيلات كولومبيا} للاستماع إلى موسيقاه، وأصبحت العلامة مهتمة بتوقيعه على الصفقة. ولكن من أجل الخروج من العقد الذي وقعه مع {جاي}. اضطر أن يعطيه تقريبا كل الأموال المدفوعة مقدمة من شركة

{تسجيلات كولومبيا}. والأسوأ من ذلك أنّه في {كولومبيا} وجد نفسه الآن قد تائهاً وسط جميع مغني الراب الآخرين الذين وقعوا على العلامة. فبدا مستقبله أكثر غموضا من أي وقت آخر.

ومع نفاذ مدخراته المالية، تعيّن عليه العودة الآن إلى حياة الاحتيال في الشوارع، مما جعله يشعر بالمرارة. حيث لم يكن زملاؤه السابقين سعداء برؤيته مرة أخرى. وقد شعر وكأنه في حاجة إلى المال بسرعة، وأصبح أكثر عدوانية من المعتاد، فخلَق بعض الأعداء الذين بدأوا يهددونه في الشّوارع. وقد كان يُقسم وقته بين الاستوديو والسرقة والاحتيال، وكان أول ألبوم له في {كولومبيا} على وشك الخروج، ولكن الشّركة لم تفعل شيئا لتعزيز ألبومه والترويج له. فبدا أن كل شيء في حياته ينهار في نفس الوقت.

في أحد أيام مايو من عام 2000م، عندما دخل إلى المقعد الخلفي لسيارة أحد أصدقائه، ظهر شاب فجأة على نافذة السيارة ملوّحًا ببندقيته وبدأ يطلق النار عليه من مسافة قريبة. فانتشر الرصاص في كل مكان، اخترقت تسعة منها جسده، بما في ذلك واحدة فتحت فجوة عملاقة في فَكِّهِ. ثم سارع القاتل إلى سيارة كانت في انتظاره، مُتيقِّنا منه أنه قد أكمل عمله بإطلاق الرصاص على رأس {فيفتي}. وقد قام أصدقاء فيفتي بنقله بسرعة إلى أقرب مستشفى. وكما تكشفت جميع الأحداث، لم يكن الحدث بحد ذاته حقيقيا بالنسبة إليه، كان مثل فيلم، وهو ما شاهده يحدث للآخرين أمامه. ولكن في وقت من الأوقات، وأثناء خضوعه لعملية جراحية، شعر أنه على وشك الموت وفجأة بدا الأمر كله حقيقيًا للغاية. وقد غمر ضوء حارق عينيه، وتسلل ظل فوقه لبضع ثوان، وبينما توقف كل شيء إلى نقطة مُحددة. تلك اللحظة كانت عبارة عن لحظة هادئة بشكل غريب. ثم مرت.

وقد بقي في منزل جده عدة شهور إلى أن تعافى من الجروح المُميتة التي عانى منها. وفي اللحظة التي استعاد فيها قوته، كادَ أن يضحك على الأمر برُمّته - لقد خدع الموت . بطبيعة الحال، بالنسبة للمحتالين في الحي لم يكن بشيء ذا أهمية ولا أحد قد شعر بالأسف تجاهه. ويجب عليه أن يتحرك وأن لا ينظر إلى الوراء، و يراقب أيضاً القتلة الذين يتطلعون لإنهائه. وفي أعقاب حادثة إطلاق النار، ألغت شركة {كولومبيا للتسجيلات} ألبومه وأسقطته من علاماتها - لأنه كان محاطا بالعنف الشديد. وقد عزم فيفتي على أن يأخذ بثأره - حيث سيطلق نوعا من حملة

{الأغاني المتنوعة} في الشوارع التي ستجعله مشهورا وسيعود هؤلاء المسؤولين التنفيذيون أنفسهم متوسلين التوقيع معه.

ومع ذلك، عندما كان يستعد للعمل، لاحظ أن شيئا ما قد تغير بداخله. وجد نفسه يستيقظ في وقت مبكر من المعتاد في الصباح وكتابة الأغاني في وقت متأخر من الليل، منغمسا تماما في عمله. فعندما يتعلق الأمر بتوزيع أغانيه في الشوارع، لم يكن يهتم فيها بكسب المال في الوقت الحاضر - ولم يعد يهتم أكثر بالموضة أو المجوهرات أو الحياة الليلية. كل المال الذي كان يجنيه يقوم بتوفيره في سبيل حملة {الأغاني المتنوعة}. لم يكن يُعطي اهتماما كبيرا إلى كل المشاحنات البسيطة التافهة التي حاول آخرون جره إليها. حيث قد ركزت عيناه على هدف واحد فقط، ولا شيء آخر، فقط ما هو مهم. في بعض الأحيان كان يعمل بشدة كبيرة التي يمكن أن تفاجئ حدود قدراته. كان يضع كل ما لديه في هذه المرحلة بنجاح - ولم تكن هناك خطة بديلة.

كل شيء كان يسير وفق شدته وتركيزه. ففي الجزء الخلفي من عقله عرف أن تلك اللحظة التي كان قريبا فيها من الموت قد غيرته إلى الأبد، كان لا يزال يشعر بالإحساس الأصلي في جسده، النور والظلام، قد ملأتاه بشعور من الإلحاح لم يسبق له أن عايشه من قبل، كما لو أن الموت كدعوة للتحدي بالنسبة له. ففي الأشهر التي سبقت حادثة إطلاق النار، كان كل شيء ينهار. أما الآن فقط أصبح كل شيء يأخذ ويقع في مكانه، مثل القدر.

بعد سنوات، عندما جمع إمبراطورية أعمالِه، بدأ فيفتي لقاء المزيد والمزيد من الناس الذين يلعبون ألعاب السّطوة الغريبة معه. فالشركة التي تعاقدت معه أصبحت ترغب فجأة في إعادة التفاوض على عقدها أو العمل بشكل متقلب والأخذ بعين الاعتبار عملية الانسحاب، كما لو كانوا قد توصلوا للتو إلى ماضيه السيئ السمعة. ربما كانت مجرد حيلة للضغط عليه للتوصل إلى شروط أفضل. ثم كان هنالك من عاملوه بازدراء متزايد في {علامته للتسجيلات}، حيث قدموا له دعاية ضئيلة أو أموالا تسويقية، كأنهم يقومون بحيلة {خذه - أو - أتركه}. وأخيرا كان هناك من عملوا معه منذ البداية، ولكن الآن، بدأوا يشتمُّون رائحة المال من خلال نجاحه، و بتقديمهم لمطالب غير معقولة.

كانت هناك أشياء معينة تهمه أكثر من أي شيء آخر - تكمن في الحفاظ على حركته على المدى الطويل، والعمل مع أولئك الذين كانوا متحمسين وليس مع أشخاص من المرتزقة، وأيضا

السيطرة على صورته وعدم تعكيرها من أجل المال السريع. إن ما يترجم إلى هذا كان بسيطا : حيث سيمارس سلطته في الابتعاد عن أي موقف أو أي شخص يهدد هذه القيم، وسيخبر الشركة بمحاولة إعادة التفاوض على الشروط التي لم يعد مهتما بها. فمع {شركة التسجيلات} كان يتجاهل الحيلة والمكر وقد كان يصب ماله الخاص في تسويق ألبومه، مع فكرة تركهم في أقرب وقت و الشّروع في العمل بمُفرده. قد كان أيضا يقطع علاقته بأصدقائه السابقين دون لحظة تفكير.

من خلال تجربته، فكلما شعر أن لديه الكثير ليخسره وتمسكه بالآخرين أو تمسُّكه بالصفقات خوفًا من البديل، لا انتهى به الأمر بخسارة الكثير. وقد أدرك أن المفتاح في الحياة هو أن تكون دائمًا على استعداد للمغادرة. ولقد كان مندهشا في كثير من الأحيان، من أنه عند القيام بذلك، أو حتى الشعور بذلك، سيعود الناس إليه وفقا لشروطه، خوفا مما قد يخسرونه الآن في هذه العملية، فإذا لم يعودوا يشكر الله على إعفائه منهم.

لو أنه فكر بذلك في ذلك الوقت، لأدرك أن إدارة ظهره بهذه الطريقة هو موقف وفلسفة التي بلورت في ذهنه شيئا مذهلا في يوم حادثة إطلاق النار، أي في اللحظة التي ألهمهُ فيها الموت. إن التشبث بالناس أو المواقف بدافع الخوف هو بمثابة التشبث باليأس حتى على أسوأ الشروط، وقد انتقل الآن إلى أبعد من هذه النقطة، فإذا لم يكن خائفا من الموت، فكيف يمكن له أن يكون خائفا من أي شيء آخر بعد الآن؟ .

الأسلوب الجريء

يتحدّث النّاس عن الرّصاصة التي أصابتني كأنها تمثل شيئا مميزا. يتصرفون كما لو أنهم لن يواجهوا نفس الشيء. لكن في يوم من الأيام قد يواجه الجميع رصاصة قد تحمل اسم أحدهم.

{فيفتي سانت}

بفضل المهارات اللغوية التي طورها أسلافنا البدائيون، أصبحنا نحن البشر كائنات عاقلة، اكتسبنا فيها القدرة على النظر أبعد إلى المستقبل و السيطرة على بيئتنا. لكن هذه النعمة قد تكون شيئا

سيئا حيث قد سبّبت لنا معاناة لا نهاية لها. على عكس أي كائن آخر، نحن البشر نمتلك وعيا على أننا كائنات فانية. ويُعتبر شعورنا بفنائِنا هو أكبر مصدر لجميع كوابيسنا، وهذا الوعي بالموت ليس إلا مجرد التفكير في مستقبل يترقبنا، لكن هذا الفكر مرتبط بألم شديد والفِراق. حيث يأتي ذلك بما يصاحب الاعتقاد بأننا مطاردون من حين لآخر – فما فائدة أن نعمل بجهد أكبر، وما فائدة تأجيل الملذّات الفورية، وجَني الكثير من الأموال و التّمتُّع بالقوة، وفي يوم ما، ربما غذا، سنموت؟ يبدو أن الموت يلغي جميع جهودنا ويجعل الأشياء بلا معنى.

إذا استسلمنا إلى هذين الفكرتين - الألم واللاَّمعنى – فسنصبح شِبه مشلولين تقريبا في حالة خمود وكسل عن فعل أي شيء أو سنقود أنفسنا إلى دائرة الانتحار. لكن بوعي أو بدون وعي اخترعنا حلين لهذا الإدراك. الحل الأول - أكثرها بدائية هو خلق مفهوم {الحياة الآخرة} التي من شأنها أن تخفف من مخاوفنا وتعطي أفعالنا المزيد من المعنى. والحل الثاني - الذي يهيمن على تفكيرنا في الوقت الحاضر هو محاولة نسيان أننا كائنات قابلة للفناء فنَدفُن أنفسنا في اللحظة الراهنة ونتناسى قابلية الموت. وهذا يعني قمع أي تفكير في الموت نفسه. ولكي نُسهّل الأمر علينا، نُلهي عقولنا بالروتين اليومي وبالاهتمامات التافهة وبالمخاوف البسيطة. وأحيانا عندما يموت شخص قريب منا نتذكر فيها شعورنا بالخوف من الموت. لكن بشكل عام، قد طورنا عادة تم إغراقها بالمخاوف اليومية البسيطة.

لكن المشكلة هي أن هذا القمع ليس فعالا حقا. وقد أصبحنا بشكل عام واعين بأننا كائنات فانية في سن الرابعة أو الخامسة. في تلك اللحظة، كان لهذا الفكر الوعي بالفناء تأثير عميق على حياتنا النفسية. لقد ربطناها بمشاعر الفِراق عن الأحباء، وربطناها أيضا مع أي نوع من السواد والظلمة، أو الفوضى، أو المجهول. وهذا يزعجنا بشدة. ومنذ ذلك الحين تَمَوْضَع هذا الخوف بداخلنا. ومن المستحيل استئصال أو تجنب مثل هذا الفكر الهائل، حيث يمكنه أن يتسلل من مكان أخر إلى داخل عقولنا، ويتسرب إلى سلوكنا بطرق لا يمكننا حتى أن نتخيلها.

يمثل {الموت} الحقيقة المُطلقة - وهو الحد الأقصى لأيامنا وجهودنا بشكل حاسم. ويجب علينا مواجهة الأمر بمفردنا ونترك وراءنا كل ما نعرفه ونحبه – أي فصل تام. وهذا الأمر يرتبط بالألم الجسدي والعقلي. فإذا قمنا بتجنب أي شيء قد يُذكرنا بالموت عندها سنقمع نعمة هذا الفكر، وجراء قمع أفكارنا {عن الألم والموت} قد ننخرط في جميع أنواع الخيالات والأوهام، فنكافح من

أجل إبقاء عقولنا بعيدة عن أي نوع من الواقع الصعب الذي لا مفر منه. فنتشبّث بالوظائف، والعلاقات، والأشياء المريحة، وكل ذلك لكي نتجنّب الشعور بالفِراق {الموت}. فنُنمّي التّحفُّظ بشكل مبالغ فيه لأي نوع من المخاطر التي قد تنطوي على الصعوبات أو الفشل أو الألم. فنُبقي أنفسنا محاطين بالآخرين ليخلّصوننا من عزلتنا، قد لا نكون مدركين لذلك بوعي تام، لكن في النهاية ننفق كمية هائلة من الطاقة النفسية في هذا القمع. إنّ الخوف من الموت لا يزول، إنّما هو مجرد حالة الرجُوع إلى القلق وإلى العادات الأصغر التي تحد من التمتع بالحياة.

ومع ذلك، هناك طريقة ثالثة وجريئة للتعامل مع الفَنَاء. فمنذ لحظة ولادتنا، نحمل بداخل أنفسنا شعورا بالموت. فهو ليس مجرد حدث خارجي ينهي أيامنا ولكنه شيء في داخلنا، بل لدينا فقط العديد من الأيام للبقاء على قيد الحياة، فهذا المقدار من الوقت هو شيء فريد بالنسبة لنا، إنه ملكنا وحدنا، وهو الشيء الحقيقي الوحيد الخاص بنا. فإذا ابتعدنا عن هذا الواقع بتجنب فكرة الموت، فنحن نهرب حقا من أنفسنا، حيث ننكر فيها الشيء الوحيد الذي لا يمكن إنكاره، فنعيش كذبة كبيرة. لذا لكي تتخذ نهج الجرأة، يتطلب منك قبول حقيقة أنه لديك سوى القليل من الوقت للعيش، وأن الحياة بحد ذاتها تنطوي على مستويات من الألم والفِراق. ومن خلال تبني هذا، فإنك تحتضن الحياة نفسها وتقبل كل شيء بها. وباعتمادك على الاعتقاد بالحياة الآخرة أو إغراق نفسك في لحظة تفادي الألم فهذا يعتبر احتقارا للواقع، واحتقارا بالتأكيد للحياة نفسها.

عندما تختار تأكيد حياتك من خلال مواجهة فَنَائِك {الموت}، فإنّ كل شيء يتغير. ما يهمك الآن هو أن تعيش أيامك بشكل جيد وبقدر الإمكان. ويمكنك أن تختار القيام بذلك من خلال السّعي خلفَ الملذات التي لا نهاية لها، لكن لا شيء يصبح مملا بسرعة أكثر من الاضطرار إلى البحث دائما عن مُلهيات جديدة. إذا كان بلوغك لأهداف {معينة} هو أكبر مصدر للمتعة لديك، فإن أيامك مليئة بالهدف والتوجيه، وعندما يحنّ موعد موتك، لن تشعر بأي نَدم. فأنت لا تقع ضِمنَ التفكير العدمي على أن كل شيء قمت به لا جدوى منه، لأن هذا يعتبر مضيعة كبيرة للوقت القصير الذي أُعطِيَ لك. أما الآن ستُصبح لديك طريقة لقياس ما يهمك في الحياة - مقارنة مع ضيق أيامك. وأنَّ القلق والمعارك التّافهة تصبح بالنسبة لك شيئا ليس له أي قيمة، فيصبح لديك شعورا بالإلحاح والالتزام – أي أنّ ما تفعله يجب أن تفعله بشكل جيد، وبكل طاقتك، وليس بتركيز عقلك على مائة اتجاه.

لِإنجاز هذا فهو أمر بسيط بشكل ملحوظ. إنّ المسألة مسألة النّظر نحو الداخل ورؤية {الموت} كشيء تحمله في جزئك الباطني، كأنه جزء منك لا يجب قمعه. وهذا لا يعني أن تُطيلَ التّفكير بشأنه، ولكن أن يكون لديك إدراك مستمر للواقع الذي تَعتنِقُه. فأنت بذلك تحوّل الرعب من الإنكار {انكار الإحساس بالموت} إلى شيء نشط وإيجابي - وفي الأخير ستصبح متحررا من التفاهة، و القلق الغير المجدي، ومتحررا أيضا من الخوف و الاستجابات الخجولة.

إنّ هذه الطريقة الثالثة الجريئة لِلاقتراب من {الموت} قد بدأت في العالم القديم، بالضبط في الفلسفة الرّواقيّة. وجوهر المذهب الرّواقي هو تعلم فن كيفية {الموت}، والذي يُعلّمُك بشكل مُتناقض كيف تَعِيش. وربما أعظم كاتب رواقي في العالم القديم كان {سينيكا} الأصغر، الذي وُلد في الرابع قبل الميلاد. فعندما كان شابا، كان {سينيكا} خطيبا موهوبا للغاية، مما أدى به ذلك إلى مهنة سياسية واعدة. ولكن كجزء من نمط سيستمر طوال حياته، فقد أثارت هذه الموهبة حسد أولئك الذين شعروا بأنهم أدنى منزلة منه.

في 41 بعد الميلاد، تم تلفيق عدة تهم لـ{سينيكا} من طرف رجال الحاشية الملكية الذين كانوا يَحسدونه، فبسببهم قام الإمبراطور {كلوديوس} بنفيه إلى جزيرة {كورسيكا}، حيث كان يكتفي بعزلته مدتها ثماني سنوات مديدة، وقد كان {سينيكا} على دراية بالفلسفة الرّواقية، ولكن الآن في هذه الجزيرة المأهولة، سيَتعيّن عليه أن يمارس تلك الفلسفة في الحياة الواقعية، ولم يكن الأمر سهلا بالنسبة له، حيث وجد نفسه مُنغَمسًا في كل أنواع الأوهام ووقوعه في اليأس، وقد كان صراعا داخليا مستمرا، الذي انعكس في رسائله العديدة إلى أصدقائه في {روما}. ولكن ببطء انتصر على كل مخاوفه من خلال قهر خوفه من {الموت}.

وقد مارس {سينيكا} جميع أنواع التمارين العقلية، مُتخيِّلا أشكالاً مؤلمة للموت والنهايات المأساوية المحتملة. وقد جعلها مألوفة وليست مخيفة. حيث استخدم شعورًا بـ{العَار والخزي} ليُقنع نفسه – بأنّ خوفه من {المَوت} يعني أنه سيكره الطبيعة نفسها، التي تقضي بقتل جميع الكائنات الحية، و يعني أيضا أنه أدنى من أصغر الحيوانات التي قَبِلَت موتها دون شكوى وتذمر. إنّ استئصاله لهذا الخوف ببطء منحه شعورا بالتّحرر. فأحسَّ بأنّ لديه مهمة توصيل هذه القوة المكتشفة حديثا إلى العالم بسرعة جنونية.

في 49 بعد الميلاد تمت تبرئته أخيرًا، وتم استدعاؤه إلى {روما}، لِتعيينه في منصب رفيع كمدرب ومعلم خاص للفتى البالغ من العمر 12 عاما {لوسيوس دوميتيوس أهينوباربوس} [الذي سرعان ما عُرف باسم الإمبراطور نيرون]. فخلال السنوات الخمس الأولى من حكم {نيرون}، كان {سينيكا} هو الحاكم الفعلي للإمبراطورية الرومانية، حيث سلّم الإمبراطور الصّغير نفسه إلى الملذات التي كانت تهيمن فيما بعد على حياته. وعلى {سينيكا} أن يكافح باستمرار لكبح بعض نزعات {نيرون} العنيفة، لكن في معظم الحالات كانت تلك السّنوات مزدهرة وكانت الإمبراطورية محكومة بشكل جيد. ثم ظهر {الحسد} مرة أخرى من طرف رجال حاشية {نيرون}، حيث بدأوا في نشر القصص التي كان {سينيكا} يثري بها نفسه على حساب الدولة. وبحلول عام 62 بعد الميلاد، {استطاع سينيكا} أن يرى الحقيقة أمامه، حيث تقاعد من الحياة العامة وانتقل إلى منزل ريفي، وسلّم كل ثروته تقريبا إلى {نيرون}. و في {65 ب.م} كان متهما بتورطه في مؤامرة قتل الإمبراطور، وقد أَرسل الامبراطور ضابطا إليه، وعلى الطّريقة الرومانية، طلبوا من {سينيكا} أن يقتل نفسه.

طلب {سينيكا} بهدوء إذن لِمراجعة وصيته، فَتَمّ رفض طَلبه. فالتفتَ إلى أصدقائه الذين كانوا حاضرين وقال لهم : [كَوني ممنوع من إظهار الامتنان لخدماتكم، أترك لكم الشّيء المتبقي الذي أمتلك {نمط حياتي التي كنت أعتز بها}]. والآن سوف يعيد تمثيل ما كان يتدرب عليه في عقله قبل سنوات عديدة في المنفى في جزيرة {كورسيكا}. وقد كان انتحاره بعد ذلك صعبا للغاية. حيث قام بتقطيع عروق ذراعيه وكاحليه، وجَلس في حمّام ساخن لجعل تدفق الدم أسرع، و أيضا قام بشرب السم. وقد كان وفَاتُه بطيئا ومؤلِما بشكل لا يُصدّق، لكنه حافظ على هدوئه حتى النهاية، لكي يكون متأكدا من أن الجميع سيرون أن وفاته مطابقة لحياته وفلسفته.

كما فهم {سينيكا}، لتحرير نفسك من الخوف يجب عليك العمل بشكلٍ عكسي، أي أن تبدأ بالتفكير في موعد فنائِكَ، وأن تقبل هذا الواقع وتحتضنه، وأن تُفكر في حتمية موتك وأن تكون عازما على مواجهته بشجاعة وجرأة قدر الإمكان. فكلما فكرت في معدل احساسك بموعد فَنائِكَ، كلما قلت مخاوفك، وهذا الأمر سيصبح حقيقة لن تعود بحاجة إلى قمعها. فمن خلال اتباعك هذا المسار، ستَعرف كيف {تموت} بشكل جيد، وهكذا يمكنك الآن البدء بتعليم نفسك كيف تعيش بشكل جيد أيضاً. و لن تتعلق بالأشياء الغير الضرورية وسوف تكون قويا ومعتمدا على نفسك، وغير خائف من أن تكون بمفردك. وستكون لديك خفة معينة مع معرفة ما يهم القيام به - وأيضا

يمكنك الضحك على ما يراه الآخرون على محمل الجد. وأنّ ازدياد المَلذات اللحظية ستجعلك تعرف بعدمية ثباتها وستستفيد منها أكثر. فعندما يحين موعد فَنائِكَ، والذي سيحدث يوما ما، عندها لن تنهزم ولن تبكي مرة أخرى، لأنك عشت جيدا ولن تشعر بأيّ ندم.

مفاتيح الجرأة

يبدو أن هناك مكانًا ما في هذا الجزء المظلم من جميع حياتنا ... عنصر خالي من العيوب، وخالٍ من الزّمن، وخالٍ من الفراغ، ومن الخوف والرهبة البدائية، يَنبَعُ رُبما من ولادتنا... إنّ الخوف والرّهبة عنصران يمارسان تأثيرا ضارا على حياتنا... إنّ هذا الخوف الأول، هو الرغبة في الحصول على اسم أفضل، دافع مُنعكس تجاه النّشوة، والخضوع الكامل، والثقة.

{ريتشارد رايت}

في الماضي، كانت علاقتنا بـ{الموت} علاقة جسدية ومباشرة. حيث كُنا نرى بشكل روتيني الحيوانات التي تُقتَل أمام أعيننا من أجل - الطّعام أو كقرابين. وخلال أوقات الطّاعون أو الكوارث الطبيعية شهدنا حالات وفيات لا حصر لها. و لم تكن المقابر مُخبَّأَةً بل كانت تحتل مركز المُدن أو الكنائس المجاورة. والكثير من النّاس يموتون في منازلهم، محاطين بالأصدقاء والعائلات. وهذا القرب من {الموت} زاد خوفًا منه، ولكنه في الحقيقة يبدو شيئا طبيعيًّا أكثر، وجزءًا كبيرا في الحياة. ويلعب {الدّين} دورا قويّا ومُهمّا في تَثْبِيط هذا الخوف.

ومع ذلك، ظل الخوف من الموت شيئا شديداً، ومع تضاؤل سطوة الدّين في تهدئة مخاوفنا، وجدنا أنه من الضروري إيجاد حل جديد للمشكلة - حيث ألغينا تقريبا تمامًا الوجود المادي للموت. فأصبحنا لا نرى الحيوانات التي تُذبح من أجل طعامنا، وأصبحت المقابر تحتل مناطق نائية وليست جزءا من وعينا. وفي المستشفيات، يتم عزل الموتى بعيدا عن أنظارنا، كل شيء

أصبح مصنوعا كمُطَهِر لتجريد وعينا عن الموت. إن عدم إدراكنا بهذه الظاهرة هو علامة على القمع العميق للموت في أنفسنا.

نحن نرى صورًا لا حصر لها عن الموت في الأفلام ووسائل الإعلام، لكن هذا له تأثير متناقض. حيث يتم جعل الموت وكأنه شيء مجرد، كأنه صورة مُجردة على الشّاشة، على سبيل المثال {مشاهدة حالات الموت في الأفلام ليس كمشاهدته في الواقع لأن احساسك به وهو أمامك بشكل واقعي له تأثير أفضل على وعينا}. بالنسبة لنا يصبح شيئا مرئيا ومذهلا، لكن ليس حدثا شخصيا نختبره {اختباره في الواقع}، قد نكون مهووسين بالموت في الأفلام التي نشاهدها، لكن هذا فقط يجعل من الصعب مواجهة فنائِنا في الواقع.

كوننا منفيون من وجودنا الواعي، يُطاردنا الموت في اللاّواعي الخاص بنا على هيئة مخاوف، فيصل إلى عقولنا في شكل سامي و رفيع. إنّ كلمة [السُّموْ] أصلُها لاتيني، تعني العتبة أو بداية المدخل، وهي فكرة أو خبرة تقودنا إلى عتبة الموت، مما يمنحنا إلماما جسديا بهذا اللغز المطلق {الموت}. وهو شيء كبير وواسع حيث أنه يُستعصى على قدراتنا الوصفية. وهذا يعتبر انعكاسا للموت في الحياة، لكنه يأتي على شكل شيء يُلهم الاحساس بالرعب والرّهبة. إنّ الخوف وتجنب فكرة {الفناء} يُعدّ أمراً مُنهِكا. لكن إذا اختبرته بشكل سامي سيكون له تأثير علاجي أفضل عليك.

يواجه الأطفال هذا السّمُو في كثير من الأحيان، لا سيما عندما يواجهون شيئا كبيرا وغير مفهوم لفهمهم {غامض ومُبهم لا يستدعي أي نوع من مشاعر الخوف} - كالظلام، و سماء الليل، وفكرة اللاّنهاية، والإحساس بالزمن في ملايين السنين، وإحساسهم الغريب بالتآلف مع حيوان ما {حتى لو كان مُفترسا}، وما إلى ذلك. نحن أيضا لدينا هذه اللحظات في شكل تجربة مكثفة يصعب التعبير عنها بالكلمات. يمكن أن تأتي إلينا في لحظات من الإرهاق الشّديد أو الجهد، فعندما يتم دفع أجسادنا إلى أقصى الحدود، في السّفر إلى مكان غير عادي أو في استيعاب عمل فني مليء بالأفكار أو الصّور بحيث لا يُمكننا مُعالجتُها بعقلانية. إنّ الفرنسيون يُسمّون [هزّة الجماع أو النشوة] بـ{le petit mort}، أو الموت الضئيل، و السُّمو هو نوع من النشوة الذهنية، حيث يكون العقل غارقا بشيء مُفرط أو شديد الاختلاف. إنه ظل الموت الذي يتداخل مع عقولنا الواعية، لكنه يُلهمنا بإحساسٍ حيوي ومبهج.

افهم هذا: لإبعاد فكرة الموت عن أذهاننا، نَغمر عُقولنا في التّفاهة والروتين اليومي، فنخلق وهم أنه لا يحيط بنا بأي شكل من الأشكال، وهذا يعطينا راحة مؤقتة، لكن الأمر يجعلنا نخسر الاحساس بالارتباط بشيء أكبر، وبالحياة نفسها. ولن نعيش حقا حتى نتصالح مع فكرة فنائِنا. ولكي نصبح مدركين لهذا السّمو من حولنا علينا تحويل مخاوفنا إلى شيء ذو معنى ونشاط. ولِمواجهة القمع في ثقافتنا، يميل السّمو في أي شكل كان إلى إثارة مشاعر الرهبة والقوة. فمن خلال إدراك ماهيته، يمكننا أن نفتح عقولنا للتجربة والبحث عن هذا السّمو بنشاط تام. وفيما يلي هناك أربع مشاعر للحظات السّمو وكيفية استحضارها.

الإحساس بالبَعث

نشأ {إرنست همنغواي} في ضواحي شيكاغو في مطلع القرن العشرين، وشعر بالاختناق التام بسبب كل الانسجام والتفاهة من الحياة هناك. مما جعله يشعر بأنّه ميت من الدّاخل. كان يتوق إلى استكشاف العالم الأوسع، وهكذا في عام 1917م، في سن الثامنة عشرة من عمره، تطوع للعمل كسائق سيارة إسعاف للصليب الأحمر في إيطاليا، في إحدى جبهات الحرب. هناك شعر بشكل غريب أنه قد تسرع برمي نفسه إلى الموت والخطر. وفي إحدى الحوادث، كاد أن يُقتل بشظايا مُتفجّرة، و قد أدت هذه التجربة إلى تغيير طريقة تفكيره إلى الأبد، وهذه التجربة كانت تتردد في عقله على النحو التالي : [عندما كنت قريبا من الموت ... عندها شعرت بروحي أو شيئا ما يخرج من جسدي تماما، كما لو كنتَ تسحب منديلا حريريا من جيبك عند زاوية واحدة]. هذا الشعور بقي في الجزء الخلفي من عقله لعدة شهور وسنوات قادمة، وكان شيئا فريدا بشكل غريب. إنّ النّجاة من الموت بهذه الطريقة جعله يشعر وكأنه بُعِثَ من جديد. والآن يمكنه أن يكتب عن تجاربه ليجعل عمله يهتز بالعاطفة.

ومع ذلك هذا الشعور بالبعث من جديد قد تلاشى، وسيضطر إلى القيام ببعض الأعمال الصّحفية المملة أو سيدخل في روتين الحياة الزوجية. هذا الموت الداخلي عاد إليه مُجددا مما جعلهُ يُعاني افي كتاباته. وقد كان بحاجةٍ إلى الشّعور بهذا القرب من الموت في الحياة مرة أخرى، ولكي يقوم بذلك، اضطر إلى تعريض نفسه لأخطار جديدة. وهذا يعني أن يقدم تقرير عن نشاط الخطوط الأمامية في الحرب الأهلية الإسبانية، وبعد ذلك قام بتغطية أكثر المعارك دموية في فرنسا في

الحرب العالمية الثانية. في كلتا الحالتين قد تجاوز أمر تقديم التقرير وانغمس بنفسه في ساحة القتال. وقد تولى مصارعة الثيران، وصيد الأسماك في أعماق البحار، وصيد الطرائد الكبيرة. وقد عانى من حوادث السيارات والطائرات التي لا تعد ولا تحصى، ولكن ذلك حفز حاجته لمزيد من المخاطر. وفي كل تجربة، يعود به هذا الإحساس بالإثارة في الحياة، وبهذه الطريقة وجد سبيلا إلى إنشاء رواية له.

هذا الشعور بإخراج روحك من جسدك مثل المنديل الحريري هو جوهر الإحساس السامي الرفيع. فبِالنسبة لـ{هيمينغواي}، لا يمكن استحضارها إلا بشيء متطرف، بواسطة الاحساس بالموت نفسه. ومع ذلك، يمكننا أن نشعر بذلك الإحساس وبفوائده بجرعات صغيرة. فعندما نشعر بأن الحياة أصبحت مملة أو حبيسة، يمكننا أن نجبر أنفسنا على ترك تلك المنطقة المألوفة التي اعتدناها، يعني هذا أخذ رحلة إلى مكان غريب بشكل خاص، ومحاولة القيام بتحدّ مادي {سواء كانت رحلة بحرية أو تسلق جبل ما}، أو الشروع في مغامرة جديدة لسنا متأكدين من قُدرتنا على النجاح فيها، وهي الحالة التي نختبر فيها لحظة من العجز في مواجهة شيء كبير وساحق. وهذا الشّعور بالسيطرة ينزلق من بين أيدينا، مهما كان الأمر ضعيفا أو هشّا، يسمى الاحساس بالموت. فإذا لم نصل إلى هذا الإحساس، يجب علينا أن نرفع من مستوى جهدنا. وفي هذه العملية، تتعرض عقولنا لأحاسيس جديدة. فعندما ننهي الرحلة أو المهمة ونأتي إلى منطقة آمنة، نشعر وكأننا نولد من جديد. وعند شعورنا بسحب خفيف للمنديل {الشعور بخروج الروح من الجسد} يصبح لدينا تقدير كبير للحياة ورغبة في العيش بشكل كامل.

الشّعور بالاضمحلال والإلحاح

في النصف الأول من القرن الرابع عشر، كانت في اليابان فترة من الاضطرابات الشديدة - حيث كانت انقلابات القصر والحروب الأهلية قد قلبت البلاد رأسا على عقب. وقد شعر أفراد الطبقة المتعلمة بالانزعاج الشديد من هذه الفوضى. و في خضم كل هذه الثورة، قرر شاعر ذو رتبة متدنية في القصر عُرف فيما بعد باسم {كينكوا} أن يأخذ عهد مع نفسه ليصبح راهبا بوذِيا. لكن بدلا من أن يتقاعد في الدير، بقي في العاصمة {كيوتو}، ولاحظ بهدوء الحياة المحيطة به حيث بدا له أن البلاد في طور الانهيار.

فكتب {كينكوا} سلسلة من القطع القصيرة التي لم تنشر في حياته ولكن تم جمعها وطباعتها في وقت لاحق تحت اسم {مقالات عن الخُمول}، وقد ازدادت شهرة هذا الكتاب مع مرور الوقت. حيث ركزت العديد من ملاحظاته عن الموت، والذي كان حاضرا فيها في تلك الفترة. لكن أفكاره حول الموت ذهبت في الاتجاه المعاكس حيث تمحورت حول الإحباط والاعتلال، وقد وجد فيهما شيئا ممتعا ونوعا من النشوة. على سبيل المثال، حيث فكّر في تلاشي وموت الأشياء الجميلة مثل أزهار الكرز و مرحلة الشّباب نفسها. وقد عبر عن هذا على النحو التالي :[إذا كان الإنسان لا يتلاشى أبدا كقطرات الندى، ولم يتلاشى أبدا كالدخان، فسيظلّ هناك إلى الأبد في هذا الكون، فكيف للأشياء أن تفقد قوتها في تحريكنا! فأثمن شيء في الحياة هو ما فيها من غموض]. وهذا جعله يفكر في الحشرات التي عاشت لمدة يوم أو أسبوع فقط، ومع ذلك يمكن أن يكون الوقت ضيّقا. وهذا هو ظلّ الموت الذي يجعل كل شيء مؤثر ومفيد لنا [بمعني احساسنا بنهاية حياتنا فهو أمر مفيد لنا ويجب نستغل كل دقيقة في حياتنا].

وجد {كينكوا} باستمرار طرقا جديدة لقياس اتساع الزّمن الذي يمتد إلى ما لانهاية. في أحد الأيام تم دفن رجل في إحدى المقابر بالقرب من إقامة {كينكوا} في {كيوتو}، وقد كان قبر الرجل محاط بأعضاء عائلة الميت، وقد كتب {كينكو}، أن عائلة الميت مع مرور السّنوات ستقل زيارتهم للقبر، وشعورهم بالحزن عليه سيتلاشى ببطء. وفي غضون فترة من الزمن سيكونون ميتين جميعا أيضا، ومعهم ذكرى الرجل الذي دفنوه. وستصبح علامة القبر مغطاة بشكل كبير بالأعشاب. فإن أولئك الذين سيمرّون بقرون من الزّمن سوف يرون تلك القبور فقط كمزيج غريب من الحجر والطبيعة. وفي نهاية المطاف سوف تختفي تلك القبول تماما، وستذوب في الأرض ولن يصبح للقبور وجود. ففي ظل مواجهة هذا الواقع الذي لا يمكن إنكاره، وفي ظل هذا الامتداد الأبدي، كيف لنا ألا نشعر بالحيوية من هذا الحاضر؟ حقا إنها معجزة أن تكون على قيد الحياة إلى يوم آخر.

هنالك نوعان من الزمن يمكننا اختباره - النّوع المبتذل التافه والنّوع السامي. ففي النوع المبتذل فهو أمر محدود للغاية في نطاقه. حيث تتكون من اللحظة الحالية وتمتد إلى بضعة أسابيع أمامنا، وأحيانا أبعد. ففي الوقت المعتاد، نميل إلى تشويه الأحداث - حيث نرى الأمور على أنها أكثر أهمية بكثير مما هي عليه، غير مدركين أنه في غضون بضعة أسابيع أو سنة، فإن ما كان يزعجنا جميعا سيكون فيما بعد بشيء ليس له أي أهمية. أما في النّوع السامي هو الإلمام بواقع

الاتساع الهائل للزّمن والتغيرات المستمرة التي تحدث فيه. ويتطلب هذا أن نرفع رؤوسنا للّحظة وأن نشارك في أنواع التأملات مثل تلك التي استحوذت على كينكو. لنتخيل القرون المستقبلية في الحاضر أو س يحدث في هذا الموضع كأنه قد وقع قبل ملايين السنين. عندها سنصبح مدركين أن كل شيء في حالة تغير مستمر، ولا شيء دائم.

إن التّأمل في النّوع السامي له آثار إيجابية لا تُعدّ ولا تُحصى - فهو يجعلنا نشعر بالإلحاح لإنجاز الأمور في الوقت الحاضر، فيعطينا فهما أفضل لما يهم حقا، ويَغرس تقديرا كبيرا للزّمن، ويعطينا أيضا انفعالا و جمالا لكل الأشياء التي تتلاشى بعيدا.

الشّعور بالرَّهبة

نحن مخلوقات تعيش في ظل اللغة. كل شيء نفكر فيه ونشعر به يكون محاطا بالكلمات - و التي لا تعبر أبدا بالكامل عن الواقع الذي نعيش فيه، فالكلمات فقط مجرد رموز. وعلى مر التاريخ، كان لدى النّاس كل أنواع التجارب الفريدة التي يشهدون فيها شيئا يفوق القدرة على التعبير عنه بالكلمات، وهذا الأمر يثير نوعا ما شعورا بالرّهبة، ففي عام 1915م، وجد المستكشف الكبير {إرنست شاكلتون} نفسه وطاقمه قد تقطعت بهم السبل على طوفان جليدي كبير بالقرب من قارة {أنتاركتيكا}. ولعدة أشهر، طافوا في هذا المنظر الطبيعي البائس، قبل أن يتمكنوا من إنقاذ أنفسهم في وقت لاحق من العام التالي. فخلال فترة الطّفو، شعر {شاكلتون} وكأنه يزور كوكبا ما، كوكبا لم يصل إليه البشر بعد – حيث رأى شيئا لم يتغير لملايين السنين - وعلى الرغم من تهديد الموت الذي مثله هذا المشهد، فقد شعر بفرح غريب.

في الستينيات، عمل أخصائي الأعصاب أوليفر ساكس على المرضى الذين كانوا في غيبوبة منذ عشرينيات القرن الماضي، وقد كانوا في ذلك الوقت ضحايا لوباء مرض النوم، وبفضل دواء جديد، استيقظوا من هذه الغيبوبة وسجّل أفكارهم التي اختبروها في غيبوبتهم، وقد أدرك أنهم كانوا ينظرون إلى الواقع بطريقة مختلفة عن أي شخص آخر، الأمر الذي جعله يتساءل عن إدراكنا نحن البشر لهذا العالم - ربما نرى سوى جزءًا مما يحدث من حولنا لأن قوتنا العقلية تحددها عاداتنا وتقاليدنا، وربما هناك واقع نفتقده. و من خلال هذه التأملات وقع في شرك الاحساس بالسّمو.

في السبعينيات من القرن السابع عشر، كان قس {هوغونوت} المُسمّى بـ{جان دي ليري} واحدة من أوائل الغربيين الذي عاش بين القبائل البرازيلية في خليج رِيُو. وقد لاحظ {جان دي ليري} جميع أنواع الطقوس التي أخافته في تقاليدهم الوحشية والهمجية، ولكن في إحدى الأمسيات سمع {جان} أحد رجال القبيلة يُغنون بطريقة غريبة وبشكل روحي، غمره ذلك بشعور مفاجئ بالرّهبة. وقد كتب في وقت لاحق :[وقفت هناك وأنا مشحون بالابتهاج والمتعة، وكلما أتذكر ذلك، يرتعد قلبي، ويبدو أن أصواتهم لا تزال في أذني].

هذا الإحساس بالرهبة يمكن أن يستثيره منظر شاسع أو غريب - مناظر طبيعية لا نهاية لها {البحر أو الصحراء}، آثار من الماضي البعيد {أهرامات مصر}، وعادات غير مألوفة للناس في أرض أجنبية. ويمكن أيضا أن تَنجُم عن أشياء في الحياة اليومية. على سبيل المثال، بالتركيز على التنوع المذهل للحياة الحيوانية والنباتية من حولنا، والذي استغرق تطوُّره ملايين السنين إلى شكله الحالي. تخيل، على سبيل المثال، أنك كنت مصاباً بالعمى وتم منحك فجأة حاسة البصر. للوهلة الأولى كل شيء سيبدو لك غريبا وجديدا من حولك - الّشكل الغريب للأشجار وبهرجة اللون الأخضر السائد الذي أمامك. أو حاول تخيّل الأرض في صغرها الفعلي، بقعة صغيرة في مساحة شاسعة. إنّ السُّمو على هذا المستوى هو مجرد وسيلة للنّظر إلى الأشياء في غرابتها الفعلية. فهذا سيحررك من سجن اللغة والروتين، ومن هذا العالم الاصطناعي الذي نعيش فيه. إنّ تجربة هذه الرهبة على أي نطاق تشبه الانفجار المفاجئ للواقع - وهو أمر علاجي وملهم.

الشعور المحيطي - الاتصال بالحياة كلها

إنّ عدم مواجهة فكرة فنائِنا، يجعلُنا نميل إلى التّرفيه عن أوهام معينة حول الموت، فنعتقد أنّ بعض الموتى أكثر أهمية من غيرها - سواءاً كانوا مشاهير أو سياسيين بارزين. على سبيل المثال، نشعر بأن بعض الموتى هم أكثر مأساوية من غيرهم، أو أشخاص ماتوا بشكل مبكر للغاية جراء حوادث معينة، لكن الحقيقة أن الموت لا يميز أحدا، وهو الأمر العادل النهائي في هذه الحياة، إنه يضرب الأغنياء والفقراء على حدّ سواء. فبالنسبة للجميع، يبدو أن الموت يأتي مبكرّا جدا ويمكن اعتباره شيئا مأساويا. وباستيعابنا لهذا الواقع سيكون تأثيره إيجابي علينا جميعا.

فنحن نتشارك نفس المصير وكلنا نستحق نفس درجة الاشفاق. وهذا ما يربطنا جميعا في النهاية، فعندما ننظر إلى الأشخاص من حولنا، يجب أن نرى فكرة فنائهم أيضا.

يمكن تمديد هذا الأمر أكثر فأكثر إلى السمو - فالموت هو الذي يربطنا بجميع الكائنات الحية كذلك. لذا يجب أن يموت كائن حتى يعيش الآخر. إنها عملية لا نهاية لها ونحن جزء منها. هذا هو ما يعرف بالشّعور المحيطي – أي الإحساس بأننا غير منفصلين عن العالم الخارجي بل و جزءٌ من الحياة بجميع أشكالها. إن الشّعور بهذا في {لحظات ما} يُلهم نوعا من ردود فعل النشوة، على عكس التفكير الكئيب في الموت.

مخالفة المفهوم

في منظورنا الطبيعي نرى الموت كشيء معارض تماما للحياة، وهو حدث منفصل يُنهي أيّامنا. وعلى هذا النحو، فهي فكرة تجعلنا نخاف منها، ونتجنبها، وأيضا نقْمعها. لكن هذا الأمر غير صحيح، حيث هذه الفكرة نشأت بالفعل من خوفنا. فالحياة والموت متشابكان و لا ينفصمان، وغير منفصلين، ولا يمكن أن يوجد الأول دون الآخر. فَمِن لحظة ولادتنا نحمل فكرة فنائِنا داخل أنفسنا كإمكانية مستمرة. وإذا حاولنا تجنب أو كبتِ هذه الفكرة، وإذا حاولنا الحفاظ على فكرة الموت خارج نطاقه، فسوف نَحرم أنفسنا من الحياة أيضا. فإذا كنا خائفين من الموت، فإننا سنخشي الحياة نفسها. ويجب أن نحول هذا المنظور ونواجه الواقع من الدّاخل، وأن نجد طريقة لقبول واحتضان {الموت} كجزء من الحياة. فقط بهذا الموقف يمكننا أن نبدأ في التغلب على الخوف من فنائنا، ومن ثم نبدأ في التغلب أيضا على المخاوف الأصغر التي تصيبنا في حياتنا.

عندما كدت أموت جعلني هذا الأمر أفكر مليا في نفسي - قد يحدث لي هذا الأمر مرة أخرى في أي لحظة. ومن الأفضل لي أن أسرع في فعل الأشياء التي يجب علي فعلها. عندها بدأت أعيش حياتي كأنني لم أعش من قبل. افهم هذا عندما يتلاشى الخوف من الموت، لا شيء يمكنه أن يزعجك ولا أحد يستطيع أن يمنعك أو يوقفك.

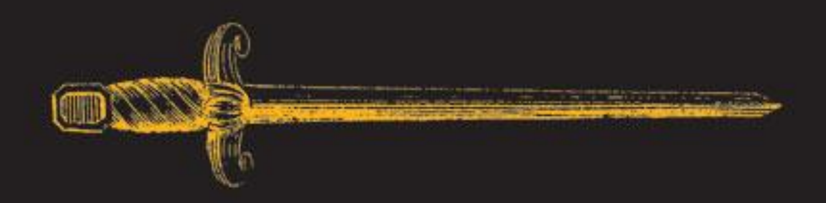
{فيفتي سانت}


محمد الإدريسي و رشا عربي

الجُرأة في وَجه أي شيء

الاحتيال المُطلق هو التنقل بحرية بين عوالم الشوارع والشركات، للعثور على التدفق الخاص بك لكي لا تبقى محبوسًا في نفس الوضع.

هذه هي قوانين {فيـ50ـفتي} : وهو الدليل المُطلق لتصبح استراتيجيًا وواقعيًا







روبرت غرين بالعربي